

(٥)

الجزء الخامس – السنة الاولى
شعبان ١٣٨٤هـ
كانون الثاني ١٩٦٥م

٨ / ١ / ٥

ان مواد العدد ترتب لاعتبارات فنية
لا علاقة لمكانة الكاتب أو اهمية البحث بها

الأقلام
مجلة فكرية عامة
تصدرها شهريا
وزارة الثقافة والارشاد
بغداد - العراق

هيئة التحرير

السيد عبد الكريم فرحان — الدكتور عبد الرحمن خالد القيسي — الدكتور مصطفى جواد
الدكتور جميل سعيد — الدكتور فيصل الوائلي — الدكتور احمد شاكر شلال
الدكتور احمد مطلوب — السيد خالد الشواف — السيد نعمان ماهر

سكرتير التحرير : عامر رشيد السامرائي

المراسلات : باسم سكرتير التحرير ، الاشتراكات : دينار واحد داخل العراق ٧٥٠ فلسا للطلبة ودينار ونصف خارج العراق

بيت الحكمة التونسية

للاستاذ حسن حسني عبدالوهاب

توطئـــة :

القرن الثالث للهجرة من أزهر عصور العلم في الاسلام ، فيه نهضت الامة نهضتها الكبيرة ، وفيه ظهرت رغبة المسلمين في الاطلاع على مكنون الاشياء ، وفيه تمخضت فكرة التنقيب والبحث ، ونبعت القرائح ، وولى العرب وجوههم الى البحوث العلمية بعد ما شغلتهم فتوح البلدن قرنين كاملين ، فحولوا حينئذ أنظارهم في مشارق الارض ومغاربها الى اكتساب المعـارف متبعين في ذلك سنة من تقدمهم من الامم الفاتحة ذات المدنيـات العالمية ، خاضعين لناموس الطبيعة وقد ساقهم حب الاطـلاع الى كشـف ما بيد غيرهم من التراث العلمي الموروث ·

وقـد ساعدهم على هـذا الاهتمام انحياز كل شـعب من الشعوب الاسلامية بصقعه ، واستقلاله بوطنه استقلالا كاملا أو ذاتيا أعانهم على اظهار مزاياهم ونحائزهم القومية(*) ·

في عنفوان الخلافة العباسية استقلت بلاد فارس وارثة تمدن بني ساسان ، واستقلت مصر ذات الحضارة الراسخة من عهد الفراعنة ، وهي أقدم حضارة عرفها البشر ، واستقلت الاندلس صاحبة التمدن اللاطيني القوطي ، كما استقلت افريقية (تونس) ذات التقاليد الموروثة من لدن القرطاجنيين والرومان والروم البيزنطيين ·

وكان نقل العلم في الاسلام قد بلغ منتهاه ، واقتدت الممالك الجديدة في عنايتها بالثقافة بما هو سائر في بغداد ــ عاصمة الخلافة وكعبة البلاد ــ وعياً وحضارة ·

انكب أبناء الجيل العربي الجديد على اقتناء المعارف ، وضربوا اكباد الابل بالرحلة في أطراف البلاد سهلها ووعرها ، وقطعوا المفاوز وجابوا الفيافي والفدافد في طلب العلم ــ ولو من الصين ــ فأموا العواصم العربية القاصية كالمدينة والكوفة والبصـرة ، رغبة في أخـذ الرواية الصحيحة والسند الثابت من المنابع الفياضة للسنة والتشريع ، وعكف فريق منهم ــ بتحريض من الامراء ــ على البحث عن شتى المدنيات السالفة ، والوقوف على ما تحوي من ذخائر المتقدمين وخزائن كتب السلف وما تشـمل من نتائج التجارب السابقة ، فضربوا الارض طولا وعرضا ، وقصدوا الهند

وما وراء النهر ، وعطفوا على مخبآت جند سابور ، وهياكل أثينة واستخرجوا دفائنها من مرقدها العتيق ونبهوها من سباتها العميق ، فصقلوها بالسنتهم وعربوا معجمها ، وقربوا شاردها حتى أصبحت لديهم شيئا مألوفا •

ولم يقف ابناء العرب عند هذا الحد بل جلبوا الى ديارهم مشاهير التراجمة ، وجاؤا بالرهبان والقساوسة من المعابد ، والكهان من الهياكل والبيعات والسينوغات(1) واستكشفوا ما تكنه صدورهم من علوم كاملة واسرار خفية ، ورووا عنهم الاسانيد المحفوظة ، المضنون بها عن غيرهم ، حتى بلغوا الحاجة ، وأدركوا المطمح الاسنى الذي ترمي اليهم نفوسهم •

واذ ذاك جاشت قرائح تلامذة الامس ، ونبعت خواطرهم بما حوت من علم جم • واطلاع دقيق ، وكان نتاج انكبابهم على تطبيق التجارب ، ورصدهم الكواكب ، واستخراج مجهول الحساب أن فاقوا أساتذتهم بالامس ، فحملوا منار العلم عاليا ، وتقدموا بالمدنية البشرية جمعاء بخطى لم يدرك سواهم مداها ، ولا بلغ غيرهم نصفها •

نقتصر بحثنا هنا على ما انتجت جهود العرب في ميادين العلوم والرقي الفكري في القطر الافريقي — ونعني به البلاد التونسية اليوم — حينما كانت عاصمته الكبرى : مدينة القيروان •

مأثرة بني الاغلب :

في آخر القرن الثاني للهجرة — سنة ١٨٤ — نال بنو الاغلب التميميون الاستقلال بامارة افريقية ، ولم يشذوا عن دائرة الخلافة العباسية القائمة في بغداد ، ولا حاولوا الانسلاخ عنها ، بل التزموا — طوال استقلالهم — الاعتراف بسيادتها العلياء ، والامتثال لاشاراتها ، والانقياد الى توجيهها في مهمات الامور ، واظهار الخضوع لسلطانها بدفع خراج سنوي ، وتقديم الهدايا المرسومة في كل سنة ، وبأعلامها بكل ما يحدث في البلاد من مهمات الامور والقضايا وبالتالي القيام بخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية •

تعهد ابراهيم الاغلب — مؤسس الاسرة — لهارون الرشيد بدفع خراج قدره ستون الف دينار ذهبا في كل عام وباسقاط الاعانة التي كانت تمد بها الخلافة حكومة افريقية ومبلغها أربعون الف دينار ، وبذلك صارت جباية تونس مائة الف دينار ، واستمرت الدولة الاغلبية ترفع هذا الخراج لمقر الخلافة الى آخر مدتها •

ونالت دولة بني الاغلب امتيازات عريضة خولت لها التصرف المطلق في داخل البلاد وحصر وراثة الامارة في افراد الاسرة •

وعلى تلك القواعد الاساسية الحافظة لحقوق الخلافة من جهة ، ومن اخرى المساعدة للبلاد التونسية بتدبير شؤونها الداخلية والخارجية تمت المشارطة بين هارون الرشيد وابراهيم بن الاغلب •

يندهش الباحث أمام الصعوبات التي اعترضت الدولة الاغلبية من حين انتصابها ويعجب مما قاسته من كفاح مضني في سبيل اذلال العراقيل الحادثة داخل البلاد وخارجها ، فمن ثورات رؤساء الجند العربي الطامحين لتحطيم الحكومة طمعاً في الحلول مكانها الى مقاومة عصابات البربر التي ترمي — بحكم النعرة القبلية — الى اقصاء السلطة العربية المستأثرة بالامر أضف الى ذلك ضرورة اتخاذ وسائل الدفاع والحيطة عن بلاد معظمها ممتد على ساحل البحر ، تترصد الاساطيل البيزنطية والافرنجية الفرص للوثوب على مراقبة لامتلاكها وأسر سكانها ، الى مقاومة اطماع القبائل البربرية مثل زناته وكتامة ، وهوارة — المتمرسة بالاوعار والجبال المحيطة بالبلاد الى ترميم ما انثلم من عمارة البلاد القديمة ومعالمها العمومية — رومانية كانت أو رومية — مثل الحصون والطرقات والجسور والسدود ومصانع المياه الضرورية ضررة حيوية — لصقع معطش في الصيف ، غريق في الخريف ، بسبب تهاطل الامطار وغور السيول على المزارع والمغروسات

اتجه بنو الاغلب بهمة لا تعرف الكلل ولا يعتريها الفتور ، واخلاص نادر الى هذه المشاكل كلها في آن واحد ، فذللوا صعابها ، واخضعوا شارده الى أن بلغوا غاية لم تدرك في أي عصر من عصور تاريخ افريقية ، ولا في مدة الرومان على طول مداها .

وهنا نقطة اعتبار لا محيص للباحث من الوقوف عندها ، والفات النظر اليها وهي قلة ما لدينا من الوثائق التاريخية لافخر عصر ، وندر النصوص الواصلة الينا عن أجمل دور قامت به دولة عربية في هذه البلاد

ذلك انا لم نجد مؤرخا مواطنــا شاهد عصر الاغلبة ، عصرا لم تتجاوز مدته حياة شخص من المعمرين ، وكتب لنا ما رآه ، ودون عن عيان أعمال بني الاغلب ووصف مآثرهم عن كثب حتى يتسنى لنا ان نستمد من تقييداته مباشرة ، مع ان هذا العصر لم يخل من رواة اخبار ومشاهير كتاب ولكن تآليفهم لم تصل الينا بكل أسف[٢] وغاية ما نعلمه من انباء هذه الدولة المباركة هو ما تفضل بالاشـارة اليـه بعض مؤرخي المشـرق كابن عبدالحكم المصري ، والبلاذري واليعقوبي ، مع الملاحظة بان ما أورده من أخبار افريقية انما أتوا به من باب الاستطراد ولم يكن مقصودا بالذات

وعسى الابحاث الاثرية تسمح لنا يوما بزيادة الاطلاع على انجازات ذلك العصر الذهبي ومخلفاته ، اما لو اقتصرنا على ما لدينا من المعلومات عن احداث الاغالبة ومؤسساتهم فلا يتحصل منها الا نتف مقطرفـة لا تشفي الغليل ، ولا يخفى أن الانباء التي نقلها متأخرو المؤرخين ، كابن الاثير والذهبي ، وابن خلدون كلها تتكرر وتتناقل باستمرار من غـير افـادة جديدة ، ولا مشاحة انه لم يشاهد في الاقطار الاسلامية المعاصرة للقرن الثالث للهجرة ولاية نالت من أمرائها عناية مستمرة وجهود متواصلة بقدر ما نالته افريقية التونسية على عهد الاغالبة من كثرة المنشآت الصالحة

والمؤسسات ذات النفع العمومي ، وبفضل ذلك رسخت قـدم الحضارة العربية في البلاد واستقر فيها الاسلام ـ ديناً ولغة ـ استقراراً نهائياً لم تؤثر فيه الاحداث على مر الزمان .

وفي الحق أن المعالم التي تركها بنو الاغلب في البلاد هي الصحيفة الفخرية الكبرى لتخليد أثرهم الماجد في سجل التاريخ ، والتنقيب عن مخلفاتهم الاثرية هو الوسيلة الرشيدة لمعرفة أعمالهم ومنشآتهم اذا أعوزتنا النصوص والروايات النقلية الموثوق بها .

وقد سلكنا طريقة الاعتماد على النصوص التاريخية المروية من جهة ، وعلى ما اكتشفته الحفريات الضيئلة من أخرى في تحرير هذا العجالة ، وبالله التوفيق .

تقدم الثقافة :

أنشأ الامراء الاغالبة في مدة استيلائهم مدينتين مجاورتين لعاصمة القيروان ، وهما : (العباسية) ثم (رقادة) اتخذوهما مقرا لسكناهم وحولوا اليهما الدواوين ومصالح الحكومة وأسكنوا بجوارهم افراد أسرتهم ورجال دولتهم وحرسهم الخاص .

على أن هذه النقلة لم تكن تؤثر البتة على مركز القيروان العلمي ولم تتسبب في تراجع حركتها التجارية أو الصناعية بل ان القيروان دأبت على ما كانت عليه من ذي قبل ، وقد تزاحم فيها بالمناكب طلاب العلم من ابناء البلاد ومن النازحين اليها من اطراف الاصقاع المغربية والاندلس .

ففي أواسط القرن الثالث كنت ترى جامعها الكبير ، ومساجدها ونواديها العلمية مكتظة بالتلاميذ صغارا وكبارا مثلما كان يشاهد في معالم بغداد والكوفة والبصرة وفي فسطاط مصر .

ولم يغفل الامراء بعد انتقالهم عن زيارة القيروان مرتين في الاسبوع على الاقل ـ الاثنين ، والخميس ـ لتفقد العاصمة وحضور صلاة الجمعة بمسجدها أو لتشييع جنازة عالم كبير . وكان من عادتهم : « أن يركبوا في ليالي شعبان ورمضان من العباسية او من رقادة في حاشيتهم ورجالهم ، وبين ايديهم الشموع الموقودة فيمسون حتى يدخلون القيروان من باب (ابي الربيع) ووراءهم دواب محملة بالدراهم ، فيعطون منها الضعفاء والمساكين ، ويزورون الدمناء ـ وهي مرستان البلد ـ فيوزعون على من بها من المرضى وذوي العاهات ، ثم ينتهون الى المسجد الجامع فيتلقاهم السكان ويدعون لهم[٣] ثم يعودون الى قصورهم » .

ولا ننسى ان سوق العلوم ـ والدينية منها خاصة ـ راجت في القيروان منذ فجر القرن الثاني للهجرة ، وقصد أفواج من ابنائها ـ مثل عبدالرحمن بن زياد ، وعبدالله بن غانم وابن فروخ وسواهم كثير ـ قصدوا الحجاز والعراق وارض الكنانة في سبيل رواية الحديث وعلوم العربية ، وعادوا

الى وطنهم مملوئي الوطاب بما اجتهدوا في اقتنائه فبثوا بين طبقات من الشباب الافريقي معلوماتهم ، وعكفوا على تدوين مروياتهم واستنباط أصول الاحكام من الكتاب والسنة .

أجل ! أقبل الافارقة على دراسة العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وما الى ذلك ، كما تناولوا الفنون الاخرى من لغة وأدب وفلسفة ، وقد وصل اليهم ما ترجم عن اليونانية والفارسية البهلوية ، والسريانية والهندية فاقبلوا على دراستها أيما اقبال . وتزاحمت الآراء والمذاهب في افريقيا فكنت ترى في عاصمتها الكبرى السنى ممن يقول بآراء أهل العراق ، ومنهم من يرجح آراء أهل المدينة ، وآراء الاوزاعي ، وسفيان الثوري ، ومحمد بن ادريس الشافعي وترى لجنبهم المعتزلي المغالي ، والمتكلم المتفلسف ممن لا يتقيد بمذهب ما ، وترى الطبيب المطلع على ما دون قبله في النبات والادوية المفردة ، وتشاهد المنكب منهم على فهم أفكار ارسطو والعناية بشروحها مما يدل على انتشار العلوم والفنون مع اختلاف المشارب والمناهج .

بيت الحكمة الافريقية

سبق لنا ان بحثنا في غير هذا ــ عن حركة العلوم الشرعية في افريقية وعن سيرها ومظاهرها وتطوراتها ، ويناسب الآن أن نتكلم على أكبر مؤسسة وجدت قديما في البلاد لدراسة العلوم الفلسفية والحسابية والفلكية والطبية وغيرها من الفنون الموصوفة بالرياضية ونبسط القول عما وصلت اليه معلوماتنا عن بيت الحكمة وما كانت عليه من النظام حسب تقديرنا الخاص .

رفع التباس :

ظن بعض من وقف على ذكر « بيت الحكمة » الافريقية في ترجمة حياة (ابي اليسر الشيباني(٤)) انها كانت تحل مكانا بين معاهد القيروان اذ كانت من منشآت الامراء الاغالبة ولم ينتبه الى أن أفراد هذه الاسرة لم يكن مقامهم في عاصمة افريقية الكبرى وانما كان في (العباسية) من أول ولاية ابراهيم الاول (سنة ١٨٤هـ ــ ٨٠٠م) ثم سكنوا بعدها (رقادة) منذ انتقل اليها ابراهيم الاصغر واتخذها مقر الامارة (سنة ٢٦٤هـ ــ ٨٧٨م) وذلك قبل سقوط الدولة باثنين وثلاثين عاما ، وكلنا يعلم ان هذا الامير هو الذي أسس « بيت الحكمة » ولم تكن موجودة قبل استلامه مقاليد الحكم ، كما نعلم انه كان مولعا أيما ولوع بالعلوم الرياضة والحكمة ، وان اشتغاله بالفلسفة وما يتبعها من الفنون حمله على انشاء هذه الدار ، وقد وجه عناية كاملة الى جلب علماء اخصائيين من : كتاب ماهرين ، وأطباء ومهندسين ومغنين من الممالك الشرقية يعني من العراق ، والشام ، ومصر حسبما تراه بعد .

ومن حسن الطالع ان ايام ابراهيم الثاني في الحكم امتدت اكثر من ربع القرن ، وان هذا العصر ـ أواخر القرن الثالث هجري ـ وهو العصر الذي نضجت فيه العلوم واكتست بالهندام العربي وتلونت بصبغته في أرجاء العالم العربي المتمدن ، كما نهضت فيه العلوم بانواعها واصنافها الى الأوج العالي الذي ميزها به الطابع العربي عن غيرهـا من الحضارات الاخرى ، ومثل هذه المنشآت العلمية لم تكن لتظهر وتزدهر الا في بلاط الملـوك والامراء ذوي الشأن وتحت حمايتهم وعنايتهم المباشرة ، أو في قصور كبار رجال الدولة ذوي الثراء ليتسنى لها أن تعيش وتدوم وتقوم بالرسـالة التي أنشئت من شأنها ، وذلك في سائر الاصقاع الاسلامية .

لهذه الاسباب كلها لم يكن انشاء بيت الحكمة الا في دائرة الملك وتحت رعايته وصيانته يعني في مدينة رقادة ، منزل الامراء من بني الاغلب بجوار منازلهم ودواوين دولتهم . ثم انا لم نعثر على ذكر « بيت الحكمة » الافريقية الا في مدة ابراهيم الاصغر ومن جاء بعده من الامراء ، اما قبـل ذلك فلا خبر لها على الاطلاق ، وقاعدة الملك كانت وقتئذ في رقادة الى آخر أيام الاغالبة وصدرا من أيام الفاطميين .

نظام بيت الحكمة

أشرنا في بحثنا الخاص عن معالم « رقـادة » الى أن بيـت الحكمـة كانت تحل مكانا باحد القصرين ، اما « الصحن » او « الفتح » وهما مـن محدثات الامير ابراهيم الثاني ، ولم يتيسر لنا تعيين مقرها بأدق من ذلك، وعسى الحفريات الجارية في انقاض رقادة تكشف لنا ما يعيننا على تحـديد مكانها بالتحقيق .

وقد يكون من الصعب أيضا ان نجزم بصفة قطعية لما اشتملت عليه هذه الدار من نظم واقسام ومحتويات ، والظن الغالب إنها كانت تشـابه سميتها العباسية التي كانت وقتئذ في بغداد مع احترام النسبة بين الخلافة والامارة ، وغير خفي ان الموسسة الافريقية اقيمت على غرارها في وضعها وتقاليدها ، ولو ان معلوماتنا عن بيت الحكمة البغدادية هي في الواقـع ضئيلة ولا تفيدنا كثيرا عما تصبو اليه رغبتنا من المعرفة واليقين .

خزائن الكتب

وهنا نرخص لانفسنـا شيئا مـن التخمين والتصـور فيمـا يخص موسسة رقادة ، والمتوقع انها كانت تتركب من مجالس (قاعات) فسيحة ، وتقدر عددها بأربع أو خمس متصلة ببعضها ، وفي احداها توجد مكتبة منضدة في خزائن ودواليب من خشب ، كل خزانة منها تحتوي عددا من الكتب المختارة المنسوخة على الرق او الكاغذ ، وننبه هنا الى قلة استعمال

ورق الكاغد انذاك لحداثة ظهوره بافريقية في العصر الذى نتكلم عليه من جهة ، ومن اخرى الى ارتفاع ثمنه .

اما انواع موضوعات هذه المجلدات وما تشتمل من العلوم ، فانا لا نشك انها مما كانت تتعلق بسائر العلوم الدينية الاسلامية وغير الدينية ككتب الجدل والخلاف مما كان له رواج ملحوظ في ذلك الوقت شرقا وغربا ، كما تشتمل على المصنفات المترجمة من اللغات الاعجمية كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي (السنسكريتي) مما وقع تعريبه في الشام وفى العراق وفى الحيرة فى آخر العصر الاموى وأوائل العصر العباسي لاسيما أيام هارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل ، مما له مساس بالفلسفة والمنطق ، والجغرافية والفلك والتنجيم والطب والنبات والحساب والهندسة وما الى ذلك .

ولا يفوتنا أن ننبه القارى الى ان هذه العلوم الوضعية الحديثة الظهور فى العالم العربى كانت غير مرموقة بعين الرضا من الفقهاء ، والمحدثين عدا ما له اتصال مباشر بالموضوعات الشرعية كالحساب والهندسة ، فكان علماء السنة أصحاب المدرسة القيروانية ينظرون اليها بتأفف وشيء من الاشمئزاز ولذا لم نرها تدرس في مساجد القيروان وانما استأثرت « بيت الحكمة » فى رقادة بالعناية بها ودراستها ونشرها بين الراغبين فيها وهم كثيرون ، ومن هنا نشأ شيء من التنافر والتباعد بين مدينتى القيروان ورقادة .

وفى يقيننا ان تلك هى العلة التى حملت الكثير من أصحاب الطبقات ومؤلفي التراجم من القيروانيين على اهمال انباء « بيت الحكمة » والتعريف بمن كان يجلس بها ويتردد عليها من نبغاء معاصريهم .

تجهيز بيت الحكمة

في فصل تقدم ذكرنا ان الامير ابراهيم الثانى كان يرسل فى كل عام ــ وأحيانا مرتين فى السنة ــ سفارة الى بغداد لتجديد ولائه للخلافة العباسية ، فكان يكلف هذه البعثة بمهمة اخرى وهى اقتناء نفائس ما كان يوجد في بغداد مما لا نظير له فى انحاء المغرب ، ولهذا الغرض كان يزود رئيس سفارته بالمال الوافر لاستجلاب علماء اخصائيين فى سائر العلوم من العراق ومن مصر يتفق معهم بما يرضيهم ، وكذا لشراء نسخ الكتب العلمية ولاسيما مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الامير بها خاصة ، وليس من السهل ان نعرف الان اسماء أو عدد الكتب التى اشتملت عليها بيت الحكمة ، ولا يتيسر تقديرها ولو على سبيل التقريب ، وغاية ما نعلمه أن هذه المكتبة كانت من الاهمية بمكان ، وهى التى ورثها الفاطميون عند استيلائهم على افريقية الاغلبية (سنة ٢٩٦هـ ٩٠٩م) .

وقد أضافوا اليها فيما بعد الشيء الكثير مما استنسخوه او ما أهدى

اليهم ، وفي نهاية الامر نقلوها جملة الى القاهرة المعزية لما امتلكوا البلاد المصرية (سنة ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٢ م) .

ولنعد الى مقاعد « بيت الحكمة » فالظاهر ان قاعاتها كانت مفروشة بأنواع من الحصر واللبود الجميلة من الصنع المحلي ، وتتخللها طنافس (زرابي) مخصصة لجلوس وجوه المطالعين ، وكبار الباحثين كالمدرسين ورجال الدولة ، ولا يخفى ان افريقية التونسية كانت انذاك مشهورة بنسج الزرابي الوثيرة حتى انها كانت ترفع الى الخلفاء العباسيين من ضمن الخراج السنوي(٥) واذا ما حضر الامير مجلسا من مجالس الدروس والمناظرة نصب له سرير (كرسي) يتربع عليه لينصت الى المناقشات الدائرة حسبما يأتي ذكره بعد .

وبجانب خزائن الكتب كان يوجد ـ في اركان بعض القاعات ـ دولاب او دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالاسطرلابات والمقنطرات والجيوب وما يشبهها من أدوات البحث وتحقيق الاوفاق ، وضبط الاطوال والعروض ، مما يستعمل في علمي الفلك والتنجيم ، ولا خفاء ان التنجيم يعني الرغبة في استكشاف المغيبات كان مما استهوى قديما ميول الرؤساء والكبراء واستحوذ على شهوة ملوك المسلمين وغير المسلمين بالسواء .

وبالجملة فان بيت الحكمة « كانت في آن واحد مجلسا للدراسة والمطالعة ومحلا لنسخ الكتب ومقابلتها على الاصول المعتمدة ، وكان مرخصا للنساخ ان يحلوا في أماكن معدة لهم سواء أكانوا ينسخون لانفسهم او لغيرهم بالاجرة ، كما يسمح للمطالعين مراجعة المؤلفات النادرة في اوقات معينة وكذا استعمال الآلات الفلكية التي لا توجد الا هناك .

ونعلم يقينا أن هواة المخطوطات كانوا يأتون من القيروان ومن غيرها لمطالعة الاصول الصحيحة المحفوظة في رقادة ومراجعتها ويقيمون الايام الطويلة في سبيل نسخها وتحقيقها . حكى ابن الوكيل المؤرخ القيرواني قال(٦) : « أبطأ أبو القاسم الوزان عن شيخه عبدالله المكفوف النحوي أياما كثيرة ثم أتاه ، فلامه على تخلفه عنه تلك المدة وقال له : « ـ يا ابا القاسم نحن كنا سبب ما أنت فيه من العلم ، وقد علمت كيف كنت اخصك وأوثرك على غيرك ، فلما صرت الى هذه الحال قطعتنا ؟ فقال له : ـ أصلحك الله ! أعذر ، فقد كنت في شغل قال : ـ وما هو ؟ قال الوزان : لي اليوم أكثر من شهر اختلف الى (رقادة) الى قصر الامير (زيادة الله الاخير) أشكل له كتبا وأصلحها ، فقال (المكفوف) : سررتني والله ، قال بماذا سررتك ؟ قال : بما يكون من بره ومكافاته على اختلافك اليه وتصحيحك لكتبه .

اعوان بيت الحكمة

وكان يشرف على نظام الدار قيمون مرتبون مهمتهم السهر على حراسة

ما فيها ومناولة المطالعين ما يحتاجون اليـه من الكتب المطلوبـة ، ويراس هوءلاء القيمين ناظر أعلى يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » واول من تولى هذه الخطة ايام ابراهيم الثاني (ابو اليسر ابراهيم الشيباني) المشهور بالرياضى كما سنبينه فيما يلي ٠

سؤالات عارضة

حينما كنت أبحث عن (بيت الحكمة الافريقية) تواردت على الخاطر سوءالات ملحة شغلت البال وقتـا طويلا وقد حاولت الجواب عنها ، مـن ذلك :

ـ هل اعتنى امراء الاغالبة الاخرون ومن كان يعيش في كنفهم من العلماء الرياضيين بترجمة بعض الموءلفات الاجنبية الى العربية كما حصل فى بغداد فى عصر الرشيد وابنائه من بعده حينما اهتموا بنقل مصنفـات الاغريق وغيرهم في مختلف العلوم ، واذا وقع ذلك بافريقية في الزمان الذى تتكلم عليه فمن اى لغة نقلوا ؟

وما هى انواع الفنون التى نقلوها الى لغتهم ؟ ومن هم التراجمة الذين باشروا هذه المهمة ، وما كان جنسهم ؟

قد يكون من الصعب الجواب عن هـذه الاسئلة ، اذ ان المراجـع التاريخية التى لدينا لم تزودنا بشيء من المعلومات عن هذه الناحية ، أضف الى ذلك ضياع جل المصادر المحلية القديمة لاخبار افريقية التى يتوقع أن تكشف الغطاء عن بعض المشاكل العارضة لنا اليوم ومن جملتها معرفة مآثر المتقدمين ، فلنحاول حينئذ تعويض ذلك بالاستنتـاج والمقارنة بما كان موجودا فى الممالك الاسلامية المعاصرة ، واذا اعوزتنا هذه الطريقة فلنتخيل على الاقل ما كان يجب أن يكون ، فان أصبنا المرمى فذلك المبتغى والا فقد نكون اجتهدنـا ولم نصب ، الامر الذى يعرض لكل باحث ، وعلى من يأتى بعدنا ان يمحص ويحقق أن وجد الى حل تلك المشاكل سبيلا ٠

بيت الحكمة والترجمة

ـ تثبت المصادر التاريخية التى بين أيدينا ان الثلاثة الامراء من بنى الاغلب (ابراهيم الاصغر ـ وابنه عبدالله الثاني ـ وزيادة الله الاخير) كانوا يحسنون اللسان اللاطينى المتأخر(Le Roman)الدارج فى ذلك العصر فى الممالك الافرنجية الغربية والرائج استعماله ايضا بين جانب كبير من سكان افريقية التونسيـة الذين تمسكوا منـذ الفتح العـربى بمعتقدهـم المسيحى ، وقد حذق أولئك الامـراء الثلاثـة هـذا اللسان حينما كانـوا مباشرين ولاية صقلية ، وما منهم الا وقد أقام مدة طويلـة بتلك الجزيـرة ومارس فى خلالها لغة الشعب الذى تحت ذمته وراجع لحكمه ونظره ، فلا يستغرب ـ والحال تلك ـ من اهتمامهم بالمصنفات الموءلفة باللغةاللاطينية

ولا يستبعد — بل المتوقع — ان ابراهيم الاصغر ، وهو من هو ، امير عالم، ذكي ألمعي ، تعلقت همته بتعريب بعض المؤلفات اللاطينية المناسبة لذوقه وميوله ، لاسيما وانا نعلم انه كان يوجد في بلاطه جماعة وافرة من الموالى الصقليين — لا الصقالبة — المتازين بالدراية والحنكة ، مثل الفتى (سوادة النصراني) والفتى (بلاغ) ناظر دار ضرب المسكوكات ، (وشكر) وغيرهم، فانهم كانوا في صغرهم مسيحيين ، وجلبوا من جزيرة صقلية ، ثم أسلموا أو كلفوا ببعض شؤون الحكومة ما عدا الوظائف الحربية ، التي لا يتولاها الا من ينتسب الى البيت الاغلبي ، جريا على القاعدة التي سنتها دولة بني أمية العربية ، ودأبت على اتباعها مدة خلافتها •

والظن الغالب — البالغ درجة اليقين — أن الامير ابراهيم الثاني تخير بعض المصنفات اللاطينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية والحق بهم بعض علماء اللغة من الافريقيين وعهد اليهم مهمة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي صحيح ، رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس•

ومما يؤيد هذا الظن ما ذكره (حسن الوزاني (Léon l'Africain في رحلته المشهورة من أنه رأى في بلاد افريقية ترجمة كتاب (بلينوس (Plinus الروماني في علم النبات باللغة العربية ، ونعلم يقينا أن هذا الكتاب المفيد جدا الذي نقل عنه العشابون المغاربة كثيرا فيما بعد ، لم يقع تعريبه بالاندلس في مدة عبدالرحمن الثالث ولا في أيام ابنه الحكم الثاني كما يتبادر للذهن أول وهلة •

ولا يفوتنا أن نذكر القارىء الكريم ان ما وقع تعريبه من امهات الكتب الاعجمية في ممالك الشرق الاسلامي ، انما نقل عن اللغات التي كان لها رواج بالمشرق في زمن الفتوح العربية كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي ، ولم نقف البتة على اسم كتاب واحد ترجم من اللسان اللاطيني ، اذ لم يكن منتشرا وقتئذ هناك ، اما بلاد المغرب — من الاندلس الى آخر برقة — فان اللغة السائدة فيها سواء في الشؤون الرسمية أو في طقوس الديانة ، هي اللاطينية خاصة ، ولذا اضطر كثير من العرب الافارقة تعلمها واتقانها تكلما وكتابة لما يفرضه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحلية ومجاورتهم المستمرة لبقايا الرومان والمسيحيين المقيمين في بلاد سواء كانوا في الشمال الافريقي أم في الاندلس أو في صقلية •

ولهذا السبب نفسه نجد كل ما عرب من المؤلفات الاعجمية في الاصقاع المغربية انما نقل عن اللاطيني لا غير ، فلا غرابة — والحال تلك — أن يهتم مؤسس (بيت الحكمة) الافريقية وخلفاؤه بتعريب ما كان سهل التناول لديهم مع الاستعانة في التحقيق ببعض القساوسة الصقليين الخاضعين لسلطانهم ، ولا ننسى أن الثقافة عند الافرنج في تلك العهود كانت مقصورة على الرهبان دون سواهم •

وقد عثرنا نحن فى المكتبة العتيقة المحفوظة فى جامع عقبة بالقيروان، على نسخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الامم القديمة » نسب وضعه الى القديس المسيحي « برونيم الروماني » =(saint Gérome) المتوفى سنة ٤٢٠م، ولا ثاني لهذه النسخة فيما علمنا ، وقد رسم على هوامشها بعض كلمات بالحروف اللاطينية منها تسمية المؤلف يعني (برونيم) ، وجملة القول أن مساعى أمراء الاغالبة فى توثيق العلاقات بين الشرق والغرب ، وفى ميدان الثقافة ونشر العرفان فى مملكتهم كان مجهودا عظيم الشأن ، قوى الاساس والبنيان ، فلما تأتى مثله لغيرهم من الاسرات المغربية فى عصرهم، ومن دواعي الاسف الشديد أن يجتهد الفاطميون — خلفاؤهم فى الملك — فى طمس معالمهم ، واخفاء أخبارهم ومزاياهم ، آملين من جراء ذلك أن لا يبقى الا سيط الفاطميين ، وأن لا يكون الفضل الا لهم ، وقد بلغت بهم المبالغه أن أزالوا أسماء بنى الاغلب المنقوشة على المعالم والرسوم وعوضوها بألقابهم ونسبوها لانفسهم[٨] ، وتأبي الابحاث الاثريه الا أن تفضح عملهم ، وترجع الفضل الى ذويه (ويحق الحق ويزهق الباطل) على انا لا نريد من قولنا هذا استنقاص مزايا ملوك الفاطميين وما كان لهم من العناية الكبيرة بشأن العلوم وبثها فى الاصقاع الافريقية وتنشيطهم لحركة التاليف والادب والفنون .

لكن الحقيقة التي لا مراء فيها أنه لولا الجهود الجبارة والمساعى المتتابعة التي بذلتها الاسرة الاغلبية طوال مدتها بعزيمة صادقة واخلاص نادر لتكوين دولة عربية شامخة ذات شوكة قوية ، ونظم ادارية متينة فى اصولها وفروعها ، ولاسيما لتفردها بأسطول عتيد لم ير العالم الاسلامي مثيله فى البحر المتوسط ، قلت لولا ذلك كله لما تسنى لعبيد الله المهدى وابنائه الفاطميين بعده من انشاء امبرطورية ضخمة امتد سلطانها من الغرب الى الشرق فى مدة وجيزة جدا ، وما ظهر من السوءدد والازدهار لتلك الامبرطورية انما كان نتيجة لما ورثته من موءسسات سالفيها الاغالبة وفتوحاتهم ، والله يوءتي الملك من يشاء .

انقرضت دولة بني الاغلب التميميين وامتلك عبيد الله المهدى افريقية ، وحل هو ورجاله فى قصور (رقادة) ودورها ، وقد اتخذ داعيه الكبير (أبو عبدالله الصنعاني) بيت الحكمة محلا لمجالس الدعوة الاسماعيلية ومناضلة علماء السنة القيروانيين ، ومن حسن الحظ ان نقل الينا الاخباريون صورة واقعية لمجالس الجدل الدائر بين الطرفين ، وهى نحو الاربعين مجلسا تقع مرة فى كل أسبوع ، يستدعى لها مشاهير المتكلمين من أهل القيروان ويدور جدالها حول مفهوم بعض النصوص الدينية فى العقائد ، وخصوصا فى مسالة الامامة والتفضيل ويعارض كل فريق بما أوتى من بيان وحجة .

وكان لشيخ السنة المتكلم القيرواني المشهور (أبي عثمان سعيد الحداد)

الظهور المبين في الرد على فهوم الاسماعيلية في تفسير آيات معينة من القرآن وبعض الاحاديث النبوية وفي سيرة الرسول وعمل اصحابه ٠

ثم تعطلت هذه المناقشات وتوقفت المناظرات بعد قتل الداعي الصنعاني ، ولم تعد الى الاجتماع الى حين انتقل عبيدالله الى سكنى مدينة المهديه التي أنشاها سنة ٣٠٨ـ٩٢٠م ــ وهو آخر عهد الازدهار رقادة ومعالمها ومن ضمنها بيت الحكمة ٠

والذى يجب أن نشير اليه هو أن المناقشات الدائرة في بيت الحكمة التونسيه بين دعاة الاسماعيليه وعلماء السنة تحولت بعد فتح مصر الى القاهرة المعزية أيام المعز لدين الله الفاطمي وخلفائه ولاسيما في مدة ابنه (العزيز بالله) وحفيده الحاكم بامر الله ، حيث انشأوا « دار العلم » للغرض المتقدم يعني لبث الدعوة ونشر أصولها بين طبقات المصريين بواسطة دعاتهم المدربين ، ولم يكن تأسيس هذه الدار الجديدة الا لهذا الغرض ، وليس لتنشيط العلوم ونشر الثقافة كما هو المقصود الاول بيت بيت الحكمة البغدادية وسميتها الافريقيه ، ويؤيد ما ذهبنا اليه ، أن صلاح الدين الايوبي لما افتك مصر من الفاطميين وعزم على تعطيل المذهب الاسماعيلي أمر بهدم « دار العلم » الفاطميه وأنشأ مكانها مدرسة الشافعية أي لعلوم السنة خاصة وقد أطال المقريزي في بسط الكلام على ذلك فليراجع في محله ٠

ولزيادة الفائدة نقول ان دار العلم المصرية غير خزانة العزيز بالله للكتب ولا هي خزانة المخطوطات التي كانت داخل القصور كما توهمه بعض المؤرخين ، بل أن « دار العلم » كانت تحل مكانا خاصا يقع بجوار (القصر الغربي) من قصور الفاطميين بالقاهره المعزية ، نبهنا على ذلك لئلا يحصل التباس لمن يبحث عن هذه المؤسسات ٠

انتشار الكاغد :

« الكاغد » كلمة صينية تسربت الى اللغة العربية من حين ما أخذ العرب صناعة الورق عن سكان الصين في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وقلدوا عمله عنهم في خبر طويل ليس هذا محله ، وقد حافظ أهل المغرب عموما على التسمية الصينية بينما صار ينعت في الممالك الاسلامية الشرقية باسم الورق ٠

ولا ريب عندي أن ورق الكاغد كان يصنع في القيروان وفي رقاده ، نقلت اليهما طريقة عمله من بغداد ومن مدينة الفسطاط في خلال القرن الثالث ، ومن القيروان تحولت الى (بلسرم (Palermo) عاصمة صقلية الاغلبية ثم تسربت صناعته الى جنوبي بلاد ايطاليا مثل مدينة (ساليرنو (Salerno) ولاسيما (فابريانو (Fabriano) ومنها الى امارات جرمانيا ، الامر الذي ساعد على اختراع فن الطباعة في المانيا بعد حين ، ومن المسلم

انه لولا وجود ورق الكاغد لما تيسر السبيل لهذا الاختراع الذى كان سببا أصليا في نهضة الممالك الاوربية •

ويهمنا من هذا أن ظهور الكاغد العربى فى صقلية وفي جنوب ايطاليا تم قبل أن يجتاز جبال البرانس (البيربنات) ويدخل فرنسا عن طريق المغرب الاقصى (مدينة سبتة) ومن الاندلس (مدينة شاطبة (Xativa) بمائة عام على أقل تقدير •

وفى المكتبة العتيقة بجامع القيروان نماذج قيمة من هذا الكاغد القديم ، مما يسمح بالجزم بأنه صنع فى القرن الثالث للهجرة فيالقيروان أو فى رقاده ، أشرنا الى هذا من باب الاستطراد واتماما للفائدة وقد خصصنا لموضوع الكاغد فى حركة انتقاله وفى صنعه واستعماله بحثا مستقلا في غير هذا ، وقد اشتهر غير واحد من التونسيين في صناعة ورق الكاغد طوال ثلاثة قرون ــ الثالث والرابع والخامس هـ ــ وتنسب اليها جماعة كبيرة كانوا ينعتون بالوراقين ، ومن بينهم (ابراهيم بن سالم ويعرف بالوراق الافريقى) فانه ولد بمدينة تونس ودرس فى القيروان واتقن صناعة (الوراقة) حتى تلقب بها ، وباشر مهنته للامراء الاغالبة فى رقاده وبعد سقوط دولتهم تحول الى لاندلس واستقر بقرطبة واتصل بالخليفة الحكم الثانى المستنصر بالله ، فالحقه ببلاطه ورتب له جراية مناسبه ، وكان الوراق شيخا صالحا ذا همة عالية ، وفيه شمم معروف ، قيل أن الامير الحكم أراد امتحانه فهدده بقطع جرايته ، فكتب اليه ابراهيم برقعة تحمل بيتين •

تزيد على الاقلال نفسى نزاهة
وتأنس بالبلوى وتقوى مع الفقر

فمن كان يخشى صرفدهر فاننى
آمنت بفضل الله من نوب الدهر

فأسترضاه الحكم وزاد في جرايته ــ وتوفى الوراق عن سن عالية فى خلال القرن الرابع(٩)•

ومنهم محمد بن يوسف المشهور بالوراق الذى تحول بعد اتقانه للعلوم والفنون فى افريقية الى اندلس وانخرط فى سلك العلماء المؤلفين المقيمين ببلاط الحكم الثانى بقرطبة ، واليه الف جملة كتب فى جغرافية بلاد المغرب مع اشتغاله بالوراقة الرفيعة •

مما تقدم يتضح أن بيتالافريقية ، انما أنشأها أمراء بنى الاغلب بنية نشر الثقافة العاليه فى غير المادة الدينية التى كانت دراستها موقوفة على جامع عقبة وفى كثير من مساجد القيروان وغير القيروان وفى دور الفقهاء والمحدثين •

بيت الحكمة والنهضة الاوربيه :

والامانة العلمية تفرض علينا أن نعد من المزايا الكبرى لبيت الحكمة الاغلبية انها أوجدت النواة الاساسية للمدرسة الطبية المشهوره في تاريخ العلوم (بالمدرسة القيروانية) التى انتشر مفعولها وتاثيرها طوال ثلاثة قرون متوالية ، ومنها انبثقت حركة التعليم والتأليف فى المادة الطبية فى عموم بلاد المغرب ثم انتقلت كتبها ونتائج ابحاثها الى جنوب ايطاليا حيث أنشأ الملوك النرمنديسون (دير منتي كاسينو = (Monte Cassino) وكان أول مشرف على ادارته وسيره قسيس مسيحي يسمى (قسطنطين الافريقي (Constantino Africano) الذي ولد بقرطاجنة تونس (سنة ٤٠٦ ـ ١٠١٥) وقرأ بالقيروان في زمن المعز بن باديس الصنهاجي ، واتقن اللغة العربية وتتلمذ لمشاهير أطبائهـا واطلع على جانب وافر من موءلفـات الطب ، ثم سافر الى مصر على عهد الفاطميين وأكمل معرفته فى العلوم الرياضية ، ثم تحول الى صقلية حيث احتضنه ملكها النرمنـدى ، وأوكل اليـه رياسة رهبان الدير المذكور وتصدى قسطنطين لدراسة كتب الطـب الافريقيـة وترجمتها الى اللسان اللاطيني ، واعتمد عليها هو ورفقاوءه لنشر علم الطب ومناهجه فى جامعة (ساليرنو (Salerno) ومن هناك تسربت تلك التعاليم وترجمات كتب الافريقيين وغيرهم الى جامعات (نابولي (Napoli) و(بولونيا (Bologna) و (بادوفا (Padova) ، ثم اخذت طريقها الى غيرها من المعاهد العلمية ومدارسها فى شمال ايطاليا وامارات جرمانيـا ، فكان ذلك من أقوى الاسباب ، لانطلاق النهضة العلمية في ممالك اوربا وظهور نشاطها نشاطها فى خلال القرون الوسطى .

وقد ترجم القسيس (قسطنطين الافريقي) المتوفى سنة ـ ١٠٨٧ ـ جملة كتب الطب الافريقية نخص بالذكر منها .

ـ كتاب « المالنخوليا (Malancolia) للطبيب اسحاق بن عمران فى وصف أمراض الـوسواس ويعـرف أيضا بالمـرض السـوداوى وطريقة معالجته ، نقله قسطنطين الى اللاطينية في ترجمة ضعيفة ـ كتاب « الحميات » (Livre de Febribus) وك «الحدود والرسوم» (Libre de definitionbus) ومعها سبعة مقالات أخرى من وضع الطبيب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي القيرواني ، وطبعت الترجمة اللاطينيه فى مدينـة ليون سنـة ـ ١٥١٥م تحت عنوان (Opera Isaci) كتـاب « البـول (Libre de urinis) وكتـاب العناصر (Libre de elementis) .

كتاب « زاد المسـافر وقوت الحـاضر » للطبيـب أحمد بن الجـزار القيرواني ، وهو من أشهر تآليفه العديدة ، وأسمى قسطنطين ترجمتـه (Peregrinantis Viaticum)

المناظرات في بيت الحكمه :

يفيدنا موءلفو التراجم من الافريقيين أن الاغالبة كانوا يعقدون مجالس علمية للمناظرة بطريقة الجدل والكلام ، ويقع الاجتماع في قصور رقادة ـ ولا أخالها تقع الا في قاعات بيت الحكمة ـ وقد يستدعي الامير الى حضورها مشاهير العلماء من القيروان فمن فقهاء السنة المقلدين لآراء أهل المدينة ـ مذهب مالك ـ ومن المنسوبين الى آراء أهل العراق ـ مذهب أبي حنيفة ـ ومن المعتزلين المعدودين وغيرهم ٠

وقد نقل الينا صاحب رياض النفوس صورة مجلس مناظرة عقده الامير ابراهيم الثاني وقع الخوض فيه في مسألة (خلق القرآن) ولا يخفى ان هذه المسألة ـ أو المحنة كما يسمونها ـ كانت أثيرت باديء بدء في بغداد في خلافة المأمون بن الرشيد ، وصارت الشغل الشاغل لافكار علماء الاسلام مدة غير قصيرة حيث امتدت الى أيام المعتصم والواثق بالله كما هو مبسوط في التاريخ ٠

ومن بغداد انتقلت الى الآفاق الاسلامية فمن الشام الى مصر ، وأثارت من الخلاف والنزاع بين المتكلمين ما هو معروف مدون ، ثم هي تظهر في المغرب ، ويتلقفها الفقهاء والمتكلمون والمعتزلة كل حسب نزعته ، ويتدخل في لجاجها الامراء والكبراء ، ويتفشى النقاش فيها الى أن ينزل الى طبقة الشعب وتذهب فيها أفكار العامة كل مذهب ، ولم يتطف لهيبها الا في خلافة المتوكل على الله ٠

ونورد هنا كنموذج لتلك المناقشات ما رواه أبو بكر المالكي(١٠) قال عند التعريف بأبي عثمان سعيد الحداد ، كبير المناضلين عن السنة وان لم يكن مقلدا لمذهب ما منها ، قال المالكي « وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يعني الاحناف) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان ، وأنا أذكر منها مجلسا واحدا ليستبين الناظر في هذا الفصل موضع سعيد بن الحداد من العلم وقيامه بالحجة لاهل الحق (يعني أهل السنة) ، فمن ذلك مجلسه مع الامير ابراهيم (الثاني) ـ قال سعيد ـ رحمه الله « دخلت على ابراهيم وكان حاضرا للمجلس (عبدالله بن هارون بن الكوفي) وهو قاضيه يومئذ ، و (عبدالله بن الاشج) وجماعة كبيرة ، فلما دخلت عليه أومى الي ولم اقبل له يدا ولا لغيره قط ، وأدناني حتى لصقت الى سريره ، ثم أخذ بعض « النافية » وهم القائلون بخلق القرآن ، فقال ـ أيها الامير كثر التشبيه وفشى بالقيروان وقال قائلون كذا وقال آخرون كذا . قال أبو عثمان (سعيد الحداد) : صرح باسم النافي ، وكنيت انا ـ اجلالا لله عز وجل ـ عن تشنيع أهل التعطيل على أن أولى السنة ، وعلمت أنه انما أراد أن يحرك بذلك الامير الى أمر يصل به السبيل الى كيد السنة واماتتها ـ فقلت له ـ أيها الامير ، « ان ما استفاض من الخبر ، وانتشر دخل على البكر في خدرها ، والبدوى في بدوه ، فكيف بمن حضر ، فليشر

ـ أيها الامير ـ الى رجل ـ فقال ذلك من جميع البرايا فان لم يفعل فأعلم مقامه ـ فقال له الامير ـ اذكر واحدا قال ابن الاشج : سوف اطلب ذلك ـ قال أبو عثمان ، فقلت له طلبناك بذكر ما سلف الى أن ضرب بطلبه في التوقيف ـ قال الامير مناديا ينادى أن لا يتكلم أحد في الكلام ، قال سعيد فقلت أيها الامير ، الناس هادون ساكنون فمتى ناديت حركت ساكنا قال ثم جرى ذكر تكلم الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ فقلت ممن سمع موسى الكلام ؟ قال ابن الاشج من الشجرة ـ قلت من ورقها أو من لحائها ؟ قال أبو عثمان ووالله ما درى أحد من أهل المجلس مرادى فيما ظهر لى ، الا الامير فبدر فقال لابن الاشج : اسكت ويلك ـ خوفا أن يجيب فيجب عليه الكفر قيل لابى عثمان : ـ وما أردت ـ أصلحك الله ـ بهذا الكلام ؟ فقال : لانه كل من صرح فقال بانه من الشجرة على الحقيقة كفر ، وزعم أن الله لم يكلم موسى وانه لم يفضله بكلامه ـ قال أبو عثمان : ثم حول الى الامير وجهه وقال لى : أقول لك كما قلت لابن طالب ، لا أقول مخلوقا ولا غير مخلوق ، قال أبو عثمان فقلت له : لم ؟ قال لان الله تعالى قال كلامى ولم يقل مخلوقا ولا غير مخلوق ـ فقلت له : فان قال غيرك مثلما قلت في علم الله ؟ فقال : ان الله لم يقل مخلوقا ولا غير مخلوق ، وسلك في ذلك العلم مسلكك في الكلام ، قال (أبو عثمان) « ولم ؟ قال الامير ؟ لانه لو كان مخلوقا قبل أن يخلق العلم جاهلا ، لان ضد العلم الجهل ، فقلت له : فكذلك لا يقال في الكلام مخلوق لانه لو كان مخلوقا لكان موصوفا قبل خلقه بضده وهو الخرس ، وما لزم في العلم لزم مثله في الكلام ، ودليل آخر : ان العلم لا يعدو احدى منزلتين اما أن يكون صفة فعل كان من الله عز وجل فمن شك في خلق ذلك فهو كافر ، ومن شك فلم يدر ذلك مخلوق أو غير مخلوق فهو كافر ، والكلام لا يعدو هاتين المنزلتين فالواقف شاهد على نفسه بانه تارك للقول بالحق حتما ـ قال (ابو عثمان) فتبسم الامير وبين لى انه فهم ما كلمته به ، وابن الاشج يكرر القول ويبديه ، يريد القول بالوقوف ـ فأقبل علي الامير ابراهيم وقال لي : اقول لك ما كنت اقول لابن طالب ـ أنت لا تضطرني الى مذهبك وانا لا أضطرك الى مذهبي •

قال أبو عثمان ـ ثم أخذ ابن الاشج في مدح اهل العراق (اى الاحناف) ويفضلهم على أهل الحجاز (أى المالكية) فقال : لقد قال أسد بن الفرات : سألت مالكا فأجابني وسألته عن أخرى فأجابني ثم سألته عن مسألة أخرى فأجابني ، فقال لى رجل كان واقفا على رأس مالك رضى الله عنه : ان أردت التشقيق فعليك بالعراق •

فقلت أيها الامير ، هذا (يعني ابن الاشج) واصحابه يزعمون أن أبا بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ اذا انفرد بخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تقم به حجة ، وان عمر اذا انفرد بخبر لم تقم به حجة ، وان عثمانا وعليا كذلك اذا انفردا بخبر ، وها هو ذا يريد أن

يقيم الحجة في تفضيل أهل العراق على أهل المدينة بخبر رجل لا يعرف من هو من جميع البرايا .

قال أبو عثمان : فما نطق ابن الاشج ولا صحابه بكلمة غير قوله ، ويحك ، كأنه يريد دون هذا على تعظيم الامير .

وحدة الثقافة الاسلامية :

ومما تقدم يتبين ما كان يظهره الامراء من بني الاغلب من الحسرية الكاملة في المناظرات والمناقشات مثلما اتصف به الخلفاء العباسيون في مجالسهم العلمية ، وقد حرصت على ايراد النص المتقدم بكماله لكي ادلل على سرعة انتقال المجادلات الكلامية والخلافات المذهبية في دار الخلافة بغداد الى النوادي التونسيه على بعد ما بينهما من المسافة ، ويؤيد ذلك بالتأكيد ما أثبته الخشني في طبقاته عندما ترجم لاحد متكلمي القيروان المعاصرين وقد مر أسمه في الخبر السالف ، قال الخشني(١١) :

« وعبدالله بن الاشج كانت له رحلة ودخل العراق ، وكان من أهل المناظره والجدل ، سمعت من يذكر عنه أنه لما قدم من بغداد دخل عليه أحداث القيروان للسلام فقال لهم ـ ما الذي يتكلم فيه أهل القيروان اليوم ؟ فقيل له ـ في الاسماء والصفات » فقال ـ انما تركت الناس بالعراق يتواقفون في مسألتين مسألة القدر ، ومسألة الوعد والوعيد » .

وفي ترجمة ابي اسحاق ابراهيم المعروف بالعمشاء ـ وهو من المتكلمين المعدودين أيضا ممن قرأ في العراق كصاحبه المتقدم ـ يقول الخشني(١٢) :

« ومن أعلام رجال الكلام في القيروان ـ أبو اسحاق ويعرف بالعمشاء ، يذهب الى خلق القرآن ويناظر فيه المناظرة الشديدة ، وله في ذلك داعية ، وله لة وأصحاب وأحزاب في ذلك ، يجالسونه ويختلفون اليه ، صحب ابن عبدون القاضي وغيره من رجال العراقيين ، وهو اليوم على هذه الحال ـ (٣١٠ ـ ٩٢٢) » .

وانما سقت هذه الخبرين الاخيرين على سبيل الاستطراد للدلالة على انتشار طريقة المجادلات الكلامية في الوسط الافريقي ـ رقادة والقيروان ـ مثلما كان جاريا وقتئذ في العراق وفي سواه من الاقطار الشرقية ، اذ ان الثقافة الشائعة فيها جميعا انما كانت ثقافة واحدة مستمدة من أصل واحد في تعاليمها ومظاهرها وتقاليدها .

وكنت أحصيت العلماء الافارقة من أهل الكلام والجدل في خلال القرن الثالث وأوائل الرابع فبلغ بي الاحصاء الى نحو الثلاثين متكلما ، كما عددت من المعتزلة في العصر نفسه ما يقارب العشرين رجلا أتيت على اخبارهم ومواقفهم وأسماء مصنفاتهم ان كانت لهم في غير هذا المقال(١٣).

بيت الحكمة والفاطميون :

بمجرد سقوط دولة الاغالبه سكنت حركة (بيت الحكمة) في رقادة ، وخفي صوتها ، وتعطلت رسالتها الثقافية ، وذلك بسبب محاولة ملوك بني عبيد الفاطميين حمل السكان على اتباع نحلتهم الاسماعيلية ، فبعد أن عقدت المجالس الجدلية التي دارت في أرجائها عقب حلول عبيدالله المهدي وقد سبقت الاشارة اليه ، نفر سكان القيروان المتمسكين أشد التمسك بمذاهب السنة ، ولا سيما بآراء أهل المدينة يعني مذهب مالك بن أنس وأصحابه ، نفروا من الاختلاط برجال الدولة الجديدة ، وهجروا رقادة ، وقاطعوا كل من يقصدها ويلجأ اليها اعلانا منهم على تعلقهم المتين بأذيال السنة ورفض ما سواها من النحل والنزعات ٠

ومن ذلك الحين تعطلت المهمة التي أنشأت من أجلها (بيت الحكمة) أعني تثقيف نخبة صالحة من الباحثين في علوم الفلسفة والرياضيات ، ومن المؤسف ان لم تعوض فيما بعد بغيرها ، وقد عفى عبيد الله حينما حول مقر دولته الى مدينة المهدية التي بناها على ساحل البحر ، عفى عن معالم رقادة ومعاهدها ومن جملتها (بيت الحكمة) فصارت أثرا بعد عين ، ولم يبق سواي رنين صداها ، والبقاء لله وحده ٠

وهكذا تنتهي رسالة « بيت الحكمة » التونسيه بعد أربعين عاما من تأسيسها ، غير ان مآثرها الثقافية لم تنضو بعد ، بل أن الكثير من روادها وخريجيها تفرقوا في انحاء البلاد وحملوا شعلتها الى الآفاق المغربية البعيدة ، مثل مدينة فاس ولاسيما مدينة قرطبة بأندلس حيث زها شعاعها في بلاط الامويين فأشرق ايما اشراق في دولة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم ، مصداقا لقول الله تعالى : « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »٠

(*) ان ما اشار اليه الاستاذ الكاتب باعتباره من حسنات الاقليمية لا يكاد يذكر اذا ما قيس الامر بمنافع الوحدة العربية ولم شعث الشعب العربي ٠

« الاقلام »

(١) السينوغة هي كنيسة اليهود في عرف الاندلسيين والمغاربة وهي عند الافرنج : (Sinagoga)

(٢) نذكر من بين هؤلاء الاخباريين المقصودة تصانيفهم التاريخية : (عيسى بن ابي المهاجر صاحب كتاب « مغازي افريقية » مات أواخر القرن الثاني — و (عبدالله بن ابي حسان اليحصبي) توفي سنة ٢٢٧هـ والامير الاغلبي (محمد بن زيادة الله بن الاغلب) مدون اخبار اسرته وتوفي سنة ٢٨٣ — و (فرات بن محمد العبدي) مات سنة ٢٩٢هـ — وأخيرا (الحسين ابن عبدالرحمن المعروف بالوكيل مات سنة ٣١٠هـ وهو اكبر مؤرخ لذلك العصر — وراجع ترجمة حياة هؤلاء الاخباريين وغيرهم في مصنفنا الكبير (كتاب العمر)٠

(٣) معالم الايمان ٢ : ف٧ والبيان المغرب ١ : ١٠٥ ٠

(٤) التكملة لابن الابا ، ط الجزائر سنة ـ ١٣٣٨ ص ٢١٠ ـ و ٢١١ ـ نفح الطيب للمقري ٠

(٥) راجع مقدمة ابن خلدون : ص ١٧١ طبع مصر سنة ١٣٢٠ ٠

(٦) طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ، ط مصر ١٩٥٤ ص ٢٥٨ ٠

(٧) « طبقات علماء افريقية للخشني » طبع الجزائر ١٣٣٢ ص ١٦٢ ٠

(٨) يراجع ما كتبه صديقي الاستاذ الكبير ـ جورجو ليفي دي لافيدا ـ في مجلة الاندلس الاسبانية سنة ١٩٥٤ ص ٢٥٩ ، ثم الفصل الممتع الذي خصصته لهذه الترجمة في الكتاب التذكاري للمستعرب ليفي بروفنسال المنشور في باريس سنة ١٩٦٢ ـ ص ١٧٥ وما بعدها ٠

(٩) التكملة لابن الابا ، ط الجزائر ص ٢١٢ ٠

(١٠) رياض النفوس ج ٢ ورقة ٣٧ وما بعدها ـ مخطوط ٠

(١١) طبقات علماء افريقية ط الجزائر ص ٢٢٠ ٠

(١٢) المصدر المذكور ص ٢٢١ ٠

(١٣) ضمن فصول تاليفنا « كتاب العمر » المعد للنشر ان شاء الله ٠

طوبى للانسان الذي يجد الحكمة ٠ وللرجل الذي ينال الفهم ، لان تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص ٠ هي اثمن من اللآلىء وكل جواهرك لا تساويها ٠ في يمينها طول أيام ، وفي يسارها الغنى والمجد ٠

سليمان الحكيم

مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين

بشار عواد معروف

يعد علم الحديث بحق أعظم ما أنتج الفكر الاسلامي في اصـالته وتشعب علومه وفنونه • واذا صح ورقى الشك الى اصـالة بعض العلوم العربية الاسلامية ، فان من الصعوبة بمكان أن يشك في اصالة الحديث ، كما ان من غير الممكن القول بوجود تأثيرات خارجية ساهمت في تطوره ؛ ذلك لانه من العلوم العربية الاسلامية الصرفة التي جاء بها الاسلام وتطورت بتطور الحياة الاسلامية ومتطلباتها •

وقد اهتم العلماء المسلمون بعلم الحديث اهتماماً بالغاً ، فالفوا فيه كثـيراً من الكتب التي تبحث في مصطلحه وعلومه[1] تناولت ، بالبحث والتمحيص والتحقيق والتدقيق ، رواية الحديث وأحوال رواته ، ومختلف الحديث ، وعلله ، وغريبه ، وناسخه ومنسوخه وما الى ذلك من العلوم الاخرى •

وكان للحديث أثر بعيد في تطور كثير من العلوم الاسلامية ، فقد أثر في علم العربية في كثير من مجالاتها وأدى الى تطور في دراستها • كما أثر بصورة واضحة جلية في علم التاريخ عند المسلمين وهو ما سنتناوله في بحثنا هذا •

وليس الغرض من هـذه المقالة تبيان أثر علـم الحديث في كتابة التاريخ عند المسلمين بقدر ما هو استعراض لمظاهر هذا التأثير • ولذلك فاني سأقتصر على توضيح هذه المظاهر بشكلها العام وتبيان اسسها العامة فقط ، وهو ما يسمح به مثل هذا المجال الضيق ، فنتناول بالبحث مظاهر هـذا التأثير في الاسناد ، وكتب التراجم ، والتواريخ العالميـة والعامة ، والانساب ، والتواريخ المحلية •

أولا ــ الاسناد :

ليس لدينا تاريخ محدد لاستعمال الاسـناد في الحديث • ويروي

مسلم : « حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح : حدثنا اسماعيل بن زكريا ، عن عاصم الاحوال ، عن ابن سيرين ؛ قال : لم يكونوا يسألون عن الاسناد. فلما وقعت الفتنة ، قالوا : سموا لنا رجالكم • فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم • وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[٢] » • والواقع اننا لا نعرف ما هي الفتنة المقصودة بقول ابن سيرين هذا ؛ فقد توفي ابن سيرين سنة ١١٠هـ[٣] وهذا يحتمل افتراضات كثيرة فهناك أولا فتنة عثمان ، وهناك فتنة صفين وما تبعها ، ثم لدينا الفتنة التي قامت اثر تنازل معاوية الثاني بن يزيد الأول عن الخلافة وما أعقبها من اضطرابات ومعركة مرج راهط وثورة ابن الزبير ، وليس لدينا بعد هذا (فتنة) بالمعنى الصحيح حتى وفاة ابن سيرين •

يؤكد الامير كايتاني في كتابه « حوليات الاسلام » ، وقد بحث فيه فترة كبيرة من القرن الاول الهجري بحثاً واسعاً اعتمد بالدرجة الاولى على النصوص ، ان الاسناد لايمكن أن يكون قد وجد قبل سنة ٧٥هـ[٤] ، كما ان يوسف هورفتس الذي بحث عن كتاب المغازي وكتبهم بحثاً وافياً يؤكد ان الاسناد قام في جيل الزهري « ت ١٢٣ فما بعد[٥] » ومن ثم فان سعيد ابن جبير « ت ٩٥هـ » كان لايسند حديثه وانه سئل عن الاسناد • روى الدارمي عن عبدالله بن عمران عن يحيى بن ضريس عن أبي سنان عن ابن حبيب بن أبي ثابت قال : كنا عند سعيد بن جبير فحدث بحديث فقال له رجل : من حدثك هذا أو ممن سمعت هذا • فغضب ومنعنا حديثه حتى قام »[٦] •

ويبدو من احدى الروايات التي يوردها ابن سعد[٧] عن قتادة بن دعامة السدوسي « ت ١١٨ »[٨] انه كان لا يسند الحديث أول الأمر ، وانما كان يقول « بلغنا » عن النبي أو عن علي ، ولكنه أخذ يسند حديثه بعد ذلك •

ان هذه النصوص تثبت استحالة كون المقصود بالفتنة هي فتنة عثمان بن عفان كما يقول البعض[٩] ولا حتى أي من الفتن التي ذكرناها آنفاً - ويرى شاخت[١٠] ان المقصود بهذه الفتنة هي الحرب الأهلية التي بدأت بمقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ[١١] • قال الطبري في حوادث سنة ١٢٦هـ : « اضطرب أمر بني مروان وهاجت الفتنة »[١٢] ولما كان ابن سيرين قد توفي سنة ١١٠هـ لذلك فهو يرى ان هذا القول موضوع عليه • والملاحظ ان رأي شاخت هذا قائم على الافتراض والتخمين لا أكثر • ثم لماذا يصر على اعتبار « الفتنة » هي فتنة الوليد بن يزيد ؟ ولماذا يأخذ الكلمة بهذا المعنى اللغوي الضيق ؟ ألا يمكن أن يراد بها ظهور الأحزاب وانتشار الكذب ووجود الأهواء والمصالح التي تدفع الى الوضع والانتحال ؟ يمكننا بكل سهولة أن نفترض ان ما أراده ابن سيرين بقوله هذا هو وجود عوامل تساعد على الوضع • ولعل مما يؤيد ما ذهبنا اليه ان

النص الذي يورده الدارمي خال من كلمة « الفتنة »[١٣] ٠

ومن جهة اخرى يلاحظ ان هشام بن عروة بن الزبير « ت ١٤٦ »[١٤] قال : « اذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا »[١٥] بل ويبدو من احدى الروايات التي تروى عن عامر بن شراحيل الشعبي « ت ١٠٣ »[١٦] انه سأل عن الاسناد[١٧] في الوقت الذي نجد فيه المحدث المشهور عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ[١٨] يعتبر الاسناد جزء من الدين[١٩] وهو أمر يبين لنا الدرجة التي وصل اليها الاسناد في أيام ابن المبارك حتى اعتبر جزء من الدين ، وهذا يدل على ان الاسناد وصل الى صورته الكاملة التي بقي عليها ٠ وكذلك فان أحمد بن حنبل « ت ٢٤١هـ »[٢٠] يعتبر « طلب الاسناد العالي سنة عمن سلف »[٢١] ٠

أما في الكتب المتقدمة التي وصلتنا فيلاحظ ان مالك بن انس « ٩٣-١٧٩هـ »[٢٢] يستعمل الأسانيد في كتابه الموطأ ، الذي هو كتاب حديث وفقه في آن واحد ، وان كان استعماله لها ليس بالدقة التي عرفت فيها فيما بعد ٠ ومعلوم اننا لا نعرف تاريخاً محدداً لتاليف الموطأ ، ومع ذلك فانه من المؤكد أن يكون قبل سنة ١٥٨هـ وهي السنة التي تولى فيها المهدي الخلافة ، اذ كان المهدي قد روى الموطأ عن مالك وهو لما يزل أميراً لم يتول الخلافة بعد[٢٣] ٠ ويستعمل أبو يوسف صاحب الامام أبي حنيفة الاسناد بشكل واضح في كتابه المشهور « الخراج »[٢٤] الذي وضعه لهارون الرشيد في أثناء خلافته «١٧٠-١٩٣»[٢٥] ٠ أما الشافعي «ت٢٠٤هـ» فانه لايستعمل الاسناد حسب بل ان فكرة المصطلح واضحة عنده ، فهو مثلا يعتذر عن الأحاديث المقطوعة[٢٦] ويتكلم عن الأحاديث المرسلة[٢٧] ويبحث في التدليس[٢٨] ٠

واستناداً الى كل ما قدمنا يمكننا القول بسهولة ان بداية الاسناد في الحديث والتاريخ خضع لعملية تطور ملحوظة حتمتها الظروف التي مرت بالمجتمع الاسلامي ٠ كما وجب ملاحظة الوقت الذي أصبح فيه الاسناد بشكله المتقن الذي بلغ أوج عظمته كما يقول شاخت[٢٩] في الوقت الذي وضعت فيه الصحاح الستة ابان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ٠

وعلى هذا لايمكننا أن نفترض وجود الاسناد بصورته الواضحة قبل بداية القرن الثاني الهجري ٠ ولعل الفكرة التي كانت تخامر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز في جمع الحديث وتدوينه[٣٠] كانت تمثل البداية الواضحة للاهتمام العظيم بالحديث ككل ومن ضمنه الاسناد ولذلك فان النصف الاول من القرن الثاني الهجري من الممكن اعتباره الوقت الذي تمركز فيه الاسناد وظهر بصورته الأخيرة ٠

وكان من العوامل التي أدت الى ظهور الاسناد ، بالاضافة لما تقدم ، هو حرص راوية الحديث على دقته وضبطه وتحقيقه ، وخوفاً من التحرج الديني ؛ ذلك ان المحدث الذي يسند الحديث مرفوعاً الى النبي (ص) يشعر

بالطمأنينة لعلمه ان الآخرين يشتركون معه في مسؤولية تحمل درجة صحة الحديث(٣١) • ومن ثم فان الحديث يكون ، في هذه الحالة ، أكثر قبولا عند النـــاس نظرا لأهمية الحديث النبوي للمسلم وذلك لتعلق الأحكام الشرعية به(٣٢) • لذا فقد لاحظنا أن كثـــيراً من الصحابة قد تحرجوا في رواية الحديث • فأدى الأمر الى وضع شروط شديدة تستطيع الالمام بها اذا ما تصفحت كتب علم الرجال ومصطلح الحديث وبخاصة كتاب الكفاية للخطيب البغدادي •

ولما كان معظم المؤرخـــين الأوائل محدثين ، ولما كانت العناية بعلم الحديث هي التي أدت الى الدراسات التاريخية(٣٣) ، لذلك انتقل الاسناد الى أهل التأريخ بشكل واضح • ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحاً في كتب الطبقات والتراجم وتواريخ المدن وغيرها مما سنوضحه فيما بعد • كما يبدو ذلك جلياً عند نصر بن مزاحم المنقري في كتاب صفين(٣٤) وكتاب « تاريخ الرسل والملوك » للمؤرخ المحدث الفقيه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري « ت ٣١٠هـ » الذي اهتم بالاسناد اهتماماً كبيراً وجعل نقده منصباً على هذا الأساس ؛ فقوة الرواية وضعفها تعتمد في أغلب الأحيان على أسانيدها، فصرح في مقدمة كتابه قائلا : « وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره مما شرطت اني راسمه فيه انما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، وأستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه •••• فما يكن في كتابي هـــذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتي من قبل بعض ناقليه الينـــا ؛ وانا انما أدينـــا ذلك على نحو ما أدى الينا »(٣٥) فبين الطبري ان العهدة في صحة الخبر على من روى الحادثة ، وهو بذلك متأثر ، ولا شك ، بطريقـــة المحدثين الذين أقاموا النقـــد على الاسناد ولم يناقشوا المتن الا في القليل النادر(٣٦)• قال الشافعي : « ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه الا بصدق المخبر وكذبه ، الا في الخاص القليل من الحديث ، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيـــه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله ، أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه • »(٣٧)

ومن أجل ضبط الرواية والاسناد استعمل المحدثون صيغاً للتحمل والاداء بلغت الذروة في دقتها فكان كل تعبير يدل على نوع معين من أنواع الاداء نحو : حدثني ، وحدثنا ، وأخبرني ، وأخبرنا ، وسمعت ، وسمعت وهو يحدث ، وقرئ عليـــه وأنا أسمع ، وأنبأني ، وأنبأنا ، وناولني ، وشافهني ، وكتب الي يخبرني ، وأخبرنا فيما كتبه الي ، وقال وذكر ••• الخ(٣٨) •

وحينما يطالع الباحث كثيراً من كتب التاريخ بكافة صوره يلاحظ اهتمام المؤرخين بالاسناد ومن ثم انتقال هذه الصيغ والمراتب اليهم ، كما يلاحظ الباحث من جهة اخرى تشابهاً في طريقة النقد المنصبة على الاسناد والمستعملة فيها الاصطلاحات نفسها التي استعملها المحدثون كأن يقولون عن حادثة معينة ان راويتها «كذاب» أو «غير ثقة» أو «ثقة» أو يقولون ان سند هذا الخبر «منقطع»(٣٩) أو «مرسل»(٤٠) وما الى ذلك . وفيما يأتي أمثلة على ذلك في تاريخ الطبري [ط. أبو الفضل ابراهيم] .

١ ـ حدثني محمد بن عمارة الاسدي ومحمد بن منصور ـ واللفظ لابن عمارة ـ قالا : حدثنا عبيدالله بن موسى ، قال : أخبرنا موسى بن عبيدة عن أياس بن سلمة بن الاكوع ، عن أبيه قال :
[ح٢ ص٦٢٩]

٢ ـ حدثنا هارون بن اسحاق ، قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، وحدثنا سفيان بن وكيع ، قال : حدثنا أبي ، قالا جميعاً : حدثنا اسرائيل ، قال : حدثنا أبو اسحاق ، عن البراء ، قال : [ح٢ ص ٦٣٦]

٣ ـ حدثنا السري ، قال : أخبرنا شعيب ، قال : حدثنا سيف ـ وحدثني عبيدالله ، قال : أخبرنا عمي ، قال : أخبرنا سيف ـ قال : أخبرنا المستنير بن زيد ، عن عروة بن غزية الدثيني ، عن الضحاك بن فيروز ـ قال السري : عن جشيش بن الديلمي ، وقال عبيدالله : عن جشنس بن الديلمي ـ قال : ... [ح٣ ص ٢٣١]

٤ ـ وأما سيف ، فانه قال ـ فيما كتب الي السري يذكر ان شعيبا حدثه عنه ؛ وعن محمد والمهلب وطلحة وعمر وسعيد ـ ان
[ح٤ ص ١٢٠]

٥ ـ قال [سيف بن عمر] : فكان سبب فتح همذان ـ فيما زعم ـ أن محمداً والمهلب وطلحة وعمراً وسعيداً أخبروه أن ..
[ح٤ ص١٤٦]

٦ ـ حدثني زياد بن أيوب ، قال : حدثنا هشيم ، قال : زعم أبو المقدام ، عن الحسن بن أبي الحسن ، قال .... [ح٤ ص٤١٨]

٧ ـ حدثنا ابن بشار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا عوف، عن ميمون أبي عبدالله ، أن عبدالله بن بريدة حدث عن بريدة الاسلمي قال ... [ح٣ ص١١]

٨ ـ حدثني ابراهيم بن سعيد الجوهري وسعيد بن يحيى بن سعيد ـ قال ابراهيم : حدثني يحيى بن سعيد ، وقال سعيد بن يحيى : حدثني أبي ـ وحدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ؛ جميعاً عن ابن اسحاق ، قال : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة ، عن مسلم بن عبدالله بن خبيب الجهني ، عن جندب بن مكيث الجهني ، قال ...
[٣ح ص٢٧]

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ليس في تاريخ الطبري وحده لكن في كثير من الكتب التي اتبعت طريقة المحدثين واستعملت الاسناد ·

على ان الاسناد في التاريخ لم يبلغ ما بلغه في الحديث اذ نرى في بعض الأحيان تساهلا في الاسانيد ورواتها ؛ فالطبري مثلا يقبل رواية الضعفاء – عند المحدثين – مثل محمد بن السائب الكلبي[41] وابنه هشام ابن الكلبي[42] ، واسماعيل بن عبدالرحمن السدي[43] · كما انه يستعمل كلمة «ذكروا»[44] ، و «قيل»[45] ، و «قال بعضهم»[46] ، و «قالوا»[47] ، و «قال آخرون»[48] ، و «فيما يذكرون»[49] ··· الخ · ثم اننا نجد المجاهيل في ثنايا اسناده[50] ، كما ان كثيراً من الروايات مرسلة يقف أغلبها عند طبقة ابن عباس وابن اسحاق والسدي وغيرهم وخاصة الاخبار المتعلقة بالمبتدأ والجاهلية ·

وقد قبل الأئمة من المسلمين تاريخ أبي معشر المدني[51] لكنهم ضعفوه في الحديث اذ « كان ينفرد بأحاديث أمسك الشافعي عن الرواية عنه»[52] والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ·

وثابت ان السبب في ذلك عدم اهتمام المسلمين بالتاريخ قدر اهتمامهم بالحديث ؛ فليس للتاريخ تلك الاهمية التي صارت للحديث من جراء دخوله كعامل من عوامل التشريع · وقد أدى ذلك الى بعض التساهل في اسانيد الروايات التاريخية · ومع كل هذا وذاك فقد ظل مؤلفو كتب الطبقات والتراجم يحكمون على الأشخاص باعتبارهم «محدثين» حتى وان غلبت عليهم صفة الاهتمام بالتاريخ أو الأدب أو ما الى ذلك من العلوم الاخرى · وهو أمر يوضح الى حد بعيد صلة اسناد التاريخ باسناد الحديث ·

ومن ثم وجب لهذا عدم اعتبار الاسناد هو الحكم الاول والاخير في صحة المرويات في كتب التاريخ والادب وغيرها · كما وجب ملاحظة نوعية الاخبار التي يوردها كل راوية من الرواة ومقارنتها مع مزاجه واسلوب حياته ·

ثانيا – كتب الطبقات[53] والتراجم :

لقد نشأت كتب الطبقات بتأثير علم الحديث ليستطيع المحدث بواسطتها أن يعرف صحة الأسانيد وذلك بتحقيق أسماء الرجال، وأحوالهم، ودرجة صدقهم والوثوق بهم ، والوقت الذي عاشوا فيه ، ومقدار تحريهم للدقة والأمانة في الرواية · ويبدو ذلك واضحاً في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ[54] والذي يعتبر سجلا لرواة الحديث من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقته ، مضافاً اليهم في القسم الاول منه سيرة الرسول (ص) ومغازيه ·

ويؤكد روزنتال[55] ان تقسيم الطبقات هو أقدم تقسيم زمني وجد في التفكير التاريخي الاسلامي « وليست له أي علاقة في الأصل بطريقة الترتيب

تبعاً للسنين التي كانت مألوفة في تقاليد التراجم الاغريقية » ٠

ويلاحظ من فحوى معظم التراجم في كتب الطبقات الاولى صلتهــا بالحديث ذلك ان كل ترجمة كانت تتميز عادة بالميزات التالية :

أ ـ نسب صاحب الترجمة مرفوعاً الى أحد البطون أو الاشخاص المعروفين ، وذكر بعض أقربائه حسب الأهمية والشهرة ، وقد تكون هذه الأهمية للمترجم نفسه أو لشهرة أقربائه المذكورين أو أهميتهم ٠

ب ـ من روى عنهم ، ومن رووا عنه٠ أو بتعبير آخرأساتيذهوتلاميذه٠

ج ـ تاريخ وفاته ، وتاريخ ولادته في القليل النادر ٠

ثم تطور علم الطبقات وتوسع فوصل الى أوج عظمته في نهاية القرن الرابع الهجري ؛ فحينما نطالع مثلا كتاب طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ نلاحظ مدى تأثير علم الحديث ؛ فالتراجم قد بلغت درجة من الدقة تساوي دقة المحدثين ، كما يلاحظ أيضاً ان الاسناد فيها قد وصل الى درجة من الرقي ٠ ويوضح السلمي ـ في مقدمة كتابه ـ منهجه في تأليف كتابيه « كتاب الزهد » و « طبقات الصوفية » بقوله(٥٦) :

« وقد ذكرت في « كتاب الزهد » من الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، قرناً فقرناً ، وطبقــة فطبقة ؛ الى أن بلغت النوبــة الى أرباب الأحوال ، المتكلمين على لسان التفريد ، وحقائق التوحيد ، واستعمال طرق التجريد٠ فأحببت أن أجمع في سير متأخري الأولياء كتاباً ، اسميه «طبقات الصوفية»٠ أجعله على خمس طبقات ، من أئمة القوم ، ومشايخهم ، وعلمائهم ٠ فأذكر في كل طبقة عشرين شيخاً من أئمتهم الذين كانوا في زمان واحد ، أو قريب بعضهم من بعض ٠ وأذكر لكل واحد ، من كلامه وشمائله ، وســيرته ، ما يدل على طريقته ، وحاله ، وعلمه ، بقدر وسعي وطاقتي » ٠

وكان السلمي الى جانب ماذكر يورد عبارة « وأسند الحديث » بعـد نسب صاحب الترجمة وقبل ذكر أقواله ، ثم يذكر بعد هذه العبارة ماروى المترجم من أحاديث نبوية باسناده ٠ ولعل المثال التالي الذي نورده من طبقات الصوفية للسلمي ـ لا على التعيين ـ يمثل لنا مضمون أمثال هذه الكتب وطريقة عرضها للمادة ٠ قال السلمي في ترجمة معروف الكرخي(٥٧) :

« ومنهم(٥٨) معروف الكرخي ، وهو أبو محفوظ ، معروف بن فيروز٠

سمعت محمد بن يعقوب الاصم ، يقول : سمعت زكريا بن يحيى بن أسد ، يقول : «معروف بن فيروز ، أبو محفوظ الكرخي» ٠

ويقال : معروف بن الفيروزان ٠

سمعت جدي ، اسماعيل بن نجيـد ، يقول : سمعت أبا العباس السراج ،يقول : سمعت ابراهيم بن الجنيد ، يقول « معروف الكرخي ، هو معروف بن الفيروزان » ٠

ويقال : معروف بن علي ٠

أخبرنا يوسف بن عمر الزاهد ، ببغداد ؛ حدثنا عبيدالله بن جعفر الصغاني ؛ حدثنا عمر بن واصل ، قال : قال سهل بن عبدالله : « أخبرني محمد بن سوار ، عن معروف بن علي الكرخي الزاهد • » .

وهو من جلة المشايخ وقدمائهم ، والمذكورين بالورع والفتوة • كان استاذ سري السقطي • صحب داود الطائي • وقبره ببغداد ظاهر يستشفى به ، ويتبرك بزيارته • سمعت أبا الحسن بن مقسم المقري ، ببغداد ، يقول: سمعت أبا علي الصفار ، يقول : سمعت ابراهيم بن الجزري ، يقول : « قبر معروف الترياق المجرب » •

وكان معروف أسلم على يد علي بن موسى الرضا ، وكان بعد اسلامه، يحجبه ؛ فازدحم الشيعة يوماً على باب علي بن موسى ، فكسروا أضلع معروف ، فمات • ودفن ببغداد •

«واسند الحديث» • ثم يورد بعد ذلك الأحاديث النبوية مسندة ويذكر بعدها جملة من أقواله مسندة أيضاً •

ولا ريب ان الباحث يشعر بسهولة وهو يقرأ مثل هذه الترجمة وكأنه يقرأ في كتاب حديث لا في كتاب طبقات ، فالاعتناء الزائد بالاسناد ، والاهتمام بالأقوال ، وذكر ما روي من الأحاديث النبوية ؛ امور تجعل الباحث يجزم بكون كتب الطبقات نشأت بسبب علم الحديث وتأثرت به من حيث الفحوى وعرض المادة •

هذه الدقة في ضبط طريقة العرض والتقسيم أدت بالكثيرين من كتاب العلوم الاخرى الى أن يسيروا على نهج المحدثين في هذا المضمار ، فوضعوا الكتب الكثيرة على غرار كتب طبقات المحدثين فمن ذلك :

١ ــ الفقهاء • وقد وضعوا كتبهم اما عموماً دون التخصص بمذهب معين من المذاهب مثل « طبقات الفقهاء » لأبي اسحاق الشيرازي «ت٤٧٦هـ» أو اقتصروا على مذهب معين مثل « طبقات الشافعية » لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي «ت٧٨١هـ» و «طبقات الشافعية» لأبي بكر ابن هداية الله المعروف بالمصنف «ت ١٠١٤هـ» ، و « طبقات الفقهاء » لعصام الدين أبو الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى بن خليل المشهور بطاش كبري زادة المتوفي سنة ٩٦٧هـ وهو في طبقات الحنفية • و « طبقات الحنابلة » لأبي يعلي الحنبلي « ت ٥٢٦هـ » و « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب « ت ٧٩٥هـ » ، وكتاب « المدارك » للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي «ت ٥٤٤هـ» وهو كتاب في طبقات المالكية ، و « الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة » لصدرالدين السيد علي خان المدني الشيرازي « ت ١١٢٠هـ » •

٢ ــ والقراء ، مثل : « طبقات القراء » للمحدث النسابة خليفة بن خياط « ت ٢٤٠هـ » ، و « طبقات القراء » لأحمد بن فضل الله الباطرقاني الأصبهاني « ت ٤٢١هـ » • و « طبقات القراء » لابي عمرو عثمان بن سعيد

ابن عثمان الاموي بالولاء القرطبي الاصل المتوفي سنة ٤٤٤هـ ٠

٣ ـ والصوفية والزهاد والنساك ، مثل : «طبقات النساك» لأبي سعيد بن الاعرابي « ت ٣٤١هـ » ، و «الزهاد» و «طبقات الصوفية» لابي عبدالرحمن السلمي « ت ٤١٢هـ » ، و «حلية الاولياء وطبقات الاصفياء» لابي نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني «ت ٤٣٠هـ» ، و «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» لعبدالرؤوف المناوي «ت ١٠٣١هـ» ٠

٤ ـ واللغويين والنحاة ، مثل : «طبقات النحويين البصريين وأخبارهم» لابي العباس محمد بن يزيد المبرد «ت ٢٨٥» ، و «طبقات النحويين» لابي بكر الزبيدي «ت ٣٧٩» ، و «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين السيوطي «٩١١هـ» ٠

٥ ـ والادباء ، مثل : «نزهة الالباء في طبقات الادباء» لابي البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد ابن الانباري «ت ٥٧٧هـ» ٠

٦ ـ والشعراء ، مثل : «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي «ت ٢٣٢هـ» ، و «طبقات الشعراء» لعبدالله بن المعتز الخليفة العباسي «ت ٢٩٦هـ» ٠

٧ ـ والفرق ، مثل : «طبقات المعتزلة» لاحمد بن يحيى بن المرتضى «ت ٨٤٠هـ» ٠

٨ ـ والمتكلمين ، مثل : «طبقات المتكلمين» لأبي عبدالله محمد بن عمران المرزباني البغدادي «ت ٣٨٤هـ» ٠

٩ ـ والاطباء ، مثل : كتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن أبي اصيبعة «ت ٦٦٨» ، و «طبقات الاطباء والحكماء» لأبي داود سليمان بن حسان الاندلسي «ت ٣٧٧هـ» ٠

وأما التراجم عموماً فالمقصود بها سرد حياة شخص معين ، وقد تكون الترجمة بضعة أسطر وقد تبلغ المائة صفحة (مطبوعة)[٥٩] وقد يشمل الكتاب على ترجمة واحدة وهو مايعرف ب « السيرة » ، أو انه يشمل على آلاف التراجم ٠

ويقول روزنثال ان كتابة التاريخ على شكل تراجم وجد منذ زمن بعيد سبق صور الكتابات التاريخية الاخرى[٦٠] ولكن من حقنا أن نتسائل : هل تاثرت كتب التراجم عند المسلمين بما كان عند غيرهم من الامم ؟ ثم ما المانع من نشوء شيئين أو علمين في منطقتين مختلفتين في الزمان والمكان ؟

ان ما يعرف «بعلم الرجال» هو فرع من فروع علم الحديث نشأ دونما شك لمعرفة أحوال رواة الحديث ولذلك فهي تتميز باصالتها لاصالة علم الحديث نفسه ٠

وليس هناك فروق بين كتب الطبقات وكتب التراجم عموماً سوى الترتيب ، فبينما الاولى رتبت ترتيبا زمنيا ، طبقة فطبقة ، نجد ان كتب الرجال رتبت حسب الالفباء في الاغلب الاعم ٠

ومن أوائل كتب الرجال «كتاب التاريخ الكبير» لابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ ٠ ومن الواضح ان البخاري وضع تاريخه هذا بغية تحقيق أحوال رواة صحيحه المشهور ، ويبدأ الكتاب بترجمة الرسول (ص) ثم من اسمه محمد اجلالا للرسول (ص) واكراماً له وتبركاً باسمه ، وهي عادة انتقلت الى الكثيرين من مؤلفي كتب التراجم سواء أكانوا مؤرخين أم ادباء ٠ ثم تأتي التراجم بعد ذلك مرتبة حسب الالقباء ٠ وتتضمن الترجمة عادة : اسم المترجم ، وشيوخه ، والحديث الذي رواه باسناده ؛ أو حديثا أو أمرا يتعلق بأحد الصحابة ، ثم تلامذته ، وفي بعض الاحيان القليلة تاريخ وفاته ٠ وفيما يأتي مثال من تاريخ البخاري(٦١) :

« محمد أبو عبدالله الاسدي ٠ قال لنا عبدالله بن صالح : حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي عبدالله محمد ٠ سمع وابصة الاسدي ، قال : جئت لأسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « البر ما انشرح في صدرك والاثم ما حاك في صدرك » ٠ وقال عبدالله بن محمد الجعفي ؛ حدثنا يزيد ابن هارون ، قال : أخبرنا حماد بن سلمة ، عن الزبير أبي عبدالسلام ، عن أيوب بن عبدالله بن مكرز ، عن وابصة بن معبد ، قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « استفت نفسك ، نحوه ، ولم يذكر سماع بعضهم من بعض » ٠

وقبل التطرق الى انتقال طريقة المحدثين في كتابة التراجم الى الفروع الاخرى نرى من الواجب أن نلقي نظرة سريعة الى كتب المحدثين في هذا المضمار ؛ فقد ألف المهتمون بالحديث كتباً كثيرة يدل تخصصها على اتساع حركتها ٠ وان لهذه الكتب نفسها اهميتها التاريخية ، فهي ولا شك تدخل ضمن صور الكتابة التاريخية ، وتتضمن معلومات لا بأس بها مبثوثة في ثناياها ، وان كان الباحث يتجشم بعض الصعاب للحصول على المعلومات منها ، فأكثر ما ترد المعلومات فيها عرضا ودونما قصد من المؤلف ، ومن أمثال ذلك ذكر المدارس والمدرسين ، والربط ، والزوايا ، والمساجد والجوامع ، والخانقاهات ٠ كما انها تلقي بعض الاضواء على الحياة الاجتماعية وما الى ذلك من مجالات التاريخ المختلفة ٠

وقد بلغت الدقة والضبط والتحقيق عند المحدثين أن كتبوا في جميع أنواع الرجال فألفوا في :

١ ــ المحدثين عموما مثل : «كتاب التاريخ الكبير» للبخاري الآنف الذكر ، و « الجرح والتعديل » لاحمد بن عبدالله بن صالح العلجي ، الكوفي «ت ٢٦١هـ » ، وكتاب «الجرح والتعديل» لابي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي «ت ٣٢٧هـ» ، و «التاريخ الكبير» لابن حزم الاندلسي « ت ٣٥٠هـ » ، وكتاب « التكملة في أسماء الثقات والضعفاء » لابن كثير الدمشقي «ت ٧٧٤هـ» ، و «التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد» للحافظ

محمد بن عبدالغني الحنبلي البغدادي المعروف بابن نقطة «ت ٦٢٩هـ» .

٢ـ والصحابة مثل : كتاب «معجم الصحابة» لعبدالله بن محمد بن عبدالعزيز المعروف بابن البغوي «ت ٣١٧هـ» وكتاب « الاستيعاب في معرفة الاصحاب» لابي يوسف عمر بن عبدالبر «ت ٤٦٣هـ» ، و «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعزالدين علي بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الاثير المؤرخ المشهور «ت ٦٣٠هـ» ، وجـرده الامـام الحافظ أبو عبـدالله شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨» في كتـابه التجريد ، كما كتب ابن حجر العسقلاني «الاصابة في تمييز الصحابة» ... الخ .

٣ ـ والثقات ، مثل : «الثقات» لابي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي الشافعي المتوفى سنة ٣٥٤هـ ، وكتاب « الثقات الذين لم تذكر أسمائهم في الـكتب الستة » لسيف الدين محمد بن محمد بن عمر بن قطلبوغا الحنفي المتوفى سنة ٨٨١هـ .

٤ ـ والضعفاء ، مثل : كتاب « الضعفاء » لمحمد بن اسماعيل النجدي و « الضعفاء » لمحمد بن عبدالله الزهري «ت ٢٤٩» ، و « الضعفاء والمتروكين » للنسائي ، و «الضعفاء» لعلي بن عمر البغدادي الشافعي المعروف بالدارقطني «ت ٣٨٥هـ» ، و «ميزان الاعتدال» للحافظ أبي عبدالله شمس الدين الذهبي «ت ٧٤٨هـ» وقد ذيل عليه الحافظ زين الدين عبدالرحيم بن الحسين المصري الشافعي المعروف بزين الدين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ في مجلدين .

٥ ـ والمدلسين[٦٢] مثل كتاب « أسماء المدلسين » للحسين بن علي ابن يزيد الـكرابيسي البغدادي « ت ٢٤٥ » وهو أول من صنف في أسماء المدلسين ، وكتاب « التبين في أسماء المدلسين » لابراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة ٨٤١هـ . كما ألف الحافظ برهان الدين سبط ابن العجمي المتوفى سنة ٨٤١هـ رسالة في التدليس والمدلسين . وكتب الحافظ ابن حجر العسـقلاني رسـالة في هذا البـاب . ولجلال الدين السيوطي «ت ٩١١هـ» رسالة في أسماء المدلسين أيضا .

٦ ـ وفي رجال كتب حديث مخصوصة تتناول رجال ذلك الكتاب فقط مثل : كتاب « الارشاد في معرفة رجال البخاري » لاحمد بن محمد بن الحسين البخاري الكلاباذي[٦٣] المتوفى ٣٩٨هـ ، و «رجال مسلم لابي بكر أحمد بن علي بن منجويه ، الاصبهاني المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، و « اتحاف السالك برواة موطأ مالك » لابي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن ناصرالدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ ، و «اسعاف المبطأ برجـال الموطأ» لجلال الـدين السيوطي . أو كتابين : مثل كتاب « الجمع بين كتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الاصبهاني رحمهما الله تعالى في رجال البخاري ومسلم » للحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧هـ . أو تضمن رجال أربعة كتب مثل ما فعل ابن حجر العسقلاني عندما جمع رجال موطأ مالك ومسند الشافعي ومسند أحمد ومسند أبي

حنيفة . كما جمع شهاب الدين أحمد بن أحمد الكردي ، الهكاري المتوفى سنة ٧٦٣هـ رجال السنن الاربعة (سنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة) . أو في ستة كتب كما فعل أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠هـ في كتاب «الكمال في معرفة الرجال» . أو عشرة كتب مثل : كتاب «التذكرة برجال العشرة [الصحاح الستة والموطأ ومسند أحمد ومسند الشافعي ومسند أبي حنيفة] لمحمد بن علي بن حمزة الحسيني الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٥هـ .

هذا التأليف الواسع الشامل في شتى المجالات قد أثر تأثيرا بالغا على كتب التراجم التي لم تقتصر على المحدثين ، فاتخذت طابعها نفسه من حيث عرض الترجمة ، ومضمونها . وقد أكد مؤلفو كتب التراجم انهم ساروا على نهج أهل الحديث في كتاباتهم . قال ابن تغري بردي الاتابكي «ت ٨٧٤» في مقدمة كتابه «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» : « وضعته على الحروف وتواليها ، لتقرب ثمرات جناه من يد جانيها كما سبقني الى ذلك جماعة من المتقدمين والى الآن من ارباب الحديث وطبقات الفقهاء والاعيان »(٦٤) . ومعلوم ان المنهل الصافي يحوي على تراجم مختلفة شملت الملوك ، والوزراء ، والاعيان ، والوجهاء ، والفقهاء ، والمحدثين ، والصوفية وما الى ذلك . وقد ظل مضمون التراجم وطريقة العرض يسير على منوال المحدثين في الكتب الاخرى . يقول ابن بشكوال «ت ٥٧٨هـ» في مقدمة كتابه « الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وادبائهم» موضحاً طريقته في عرض الترجمة : « وكنت قد قيدت كثيرا من أخبارهم وآثارهم ، وسيرهم ، وبلدانهم ، وأنسابهم ، ومواليدهم ، ووفياتهم ، وعمن أخذوا : من العلماء ، ومن روى عنهم : من أعلام الرواة ، وكبار الفقهاء »(٦٥) . ولا ريب ان هذه هي طريقة المحدثين بعينها .

ثالثا ـ كتب التواريخ العالمية(٦٦) والعامة :

لم يقتصر تأثير كتب رجال الحديث على كتب التراجم والطبقات عموماً حسب بل انها أثرت في طريقة كتابة تواريخ العالم والتواريخ العامة الاخرى . صحيح ان تأثير علم الحديث كان قليلا في الكتب الاولى التي تناولت تاريخ العالم ، كتاريخ اليعقوبي و « مروج الذهب » للمسعودي و «تاريخ الدول» لابن العبري ، و «تجارب الامم وتعاقب الهمم» لمسكويه التي تكاد أن تكون خلوا من التراجم المنظمة وان وجدت فهي بشكل مقتضب يدل على عدم الاهتمام بها ، لكن الذي يلفت النظر في كتب تواريخ العالم منذ القرن السادس الهجري هو تطور كتابة التراجم بها ، فقد زاد الاهتمام بالاشخاص حتى غلب على الحوادث . ويعتبر ابن الجوزي «ت ٥٩٧هـ» في كتابه «المنتظم في تاريخ الامم والملوك» أول من بدت عنده الظاهرة بشكل واضح . فقد وضع تقسيماً فاصلا بين الحوادث والوفيات ، ووضع الوفيات

بعد حوادث كل سنة ورتبها حسب الالقباء • والملاحظ ان المعلومات التي يقدمها ابن الجوزي في حوادث السنة أقل أهمية من الكتب الاخرى كالكامل في التاريخ مثلا لابن الاثير «ت ٦٣٠هـ» ، في حين نجد اهتمامه بالتراجم أكثر • وقد اهتم ابن الجوزي بتراجم رواة الحديث بصورة أخص • ويبدو هـذا الامر أكثر وضوحا عند المؤلفين الذين جاءوا بعد ابن الجوزي كابن كثير «ت ٧٧٤هـ» في كتابه «البداية والنهاية» والذهبي «ت ٧٤٨هـ» في « تاريخ الاسلام» و «تاريخ دول الاسلام» • وما كان القرن السابع الهجري يوشك بالانتهاء حتى نلاحظ ان معظم الكتب التاريخية العالمية والعامة أصبحت كتب تراجم •

ولقد كان لعلم الحديث وطريقتــه أثرا عظيما في هــذا التطور ، فالسيوطي «ت ٩١١هـ» يؤكد ان كتابة التاريخ يراد بها « معرفة الآجـال وحلولها ، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق ، ووفيات الشيوخ ومواليدهم ، والرواة عنهم ؛ فتعرف بذلك كذب الـكاذبين وصدق الصادقين »(٦٧) وهو منأت دون ريب عن انتشار وتوسع نظرة المسلمين الدينية الى التاريخ ، كما ان المؤرخين في هذا الوقت كان جلهم من المحدثين الذين اعتبروا التاريخ من العلوم المساعدة لعلمي الحديث والفقه • وفيما يأتي نموذج لترجمة من تاريخ المنتظم لابن الجوزي لواحد من اهل العربية :(٦٨) « عبدالله بن ثابت ابن يعقوب ، أبو عبدالله المعري ، النحوي ، القوزي • سكن بغداد • وحدث عن عمر بن شبة • روى عنه أبو عمرو بن السماك ، وغيره •

اخبرنا ابو منصور القزاز ؛ اخبرنا ابن ثابت ؛ اخبرنا ابو القاسم عبيدالله بن محمد النجار ، اخبرنا محمد بن عبيدالله الكيالي ، قال : قال لنا محمد بن الهيثم : انشدنا عبدالله بن ثابت لنفسه :

اذا لم تكن حافظاً واعيــاً　　فعلمك في البيت لا ينفــع
وتحضر بالجهل في مجلس(*)　　وعلمك في الـكتب مستودع
ومن يك في دهره هكــذا　　يكن دهره القهقرى يرجــع

توفي عبدالله في هذه السنة [　] ودفن بالرملية » •

رابعا ـ كتب الاسماء والكنى والالقاب والانساب :

لقد ادى علم الحديث ، ووجوب ضبط الرواة الى ظهور علم المؤتلف والمختلف والمفتــرق والمتفق والمتشبه من الاســماء والـكنى والالقاب والانساب • وهو نوع من التراجم على نمط آخر في الترتيب كان المقصود من التأليف فيها ضبط الاسماء والكنى والالقاب والانساب خوف الاختلاط والتصحيف • والمؤتلف قد يكون في الخط نحو « المعرى » و « المعدني » أو المؤتلف في الصورة المختلف في الاعجام نحو « باغر » و « باعز » ، أو في الشكل نحو « بشري » و « بشرى » ، أو المؤتلف المختلف في تقديم الحروف

على بعض مثل « الارزي » و « الازري » وما الى ذلك(٦٩) .

ومما تقدم يلاحظ المرء ان السبب في نشوء هذا العلم هو الحديث وما كان يعاني اهل الحديث من المشقة في ضبط الاسماء والرواة . وقد الف المحدثون كتبا كثيرة جدا في هذا المضمار تدل على صبرهم وجلدهم ، فكتبوا في هذا المجال عموماً او في موضوع خاص منه(٧٠) فكان عملا ضخما جليلا . وكان ان سرى الامر الى المهتمين بالعلوم الاخرى فألف ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي « ت ٣٧٠هـ » مثلا كتاب « المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء » .

ولا نريد التوسع هنا نظراً لضيق المجال ، لكن ارى من الواجب ان يلاحظ المرء اهمية هذه الكتب في دراسة التاريخ الاسلامي حتى اصبح الكثير من معلوماتنا في العصور المتأخرة يعتمد كثيراً على هذه المؤلفات . كما وجب ايضاً ملاحظة ان هذه المؤلفات لم تقتصر على المحدثين حسب بل تناولت مختلف طبقات الناس مثل : المحدثين ، والفقهاء ، والمدرسين ، والامراء ، والوزراء ، والخلفاء ، والمفسرين ، والمتكلمين ، والشعراء ، والنحويين ، والادباء ، واللغويين ، والكتاب ، والحكماء ، والاطباء ، والمؤرخين ، والزهاد ، والوعاظ ، والصوفية .. الخ .

ولعل أهم ما يلفت النظر هو تطور علم الانساب عند المسلمين بتأثير علم الحديث ، فقد كانت الانساب قائمة عندما بدأ علم التاريخ الاسلامي يظهر الى الوجود ، بل ربما كان النسب اسبق من التاريخ في التدوين . وكان القصد منها افتخار الناس باجدادهم ، سواء اكانوا قرشيين ام من القبائل العربية ام من الاشراف والحكام(٧١) . وكانت هذه الكتب تهتم بالدرجة الاولى بالقبيلة والجنس .

ثم انتشر الاسلام في مساحات شاسعة من المعمورة . وسكن العرب في المدن . واشتغلوا بالعلوم والآداب والفنون ومارسوا كافة النشاطات الثقافية . كما انصرف الكثير منهم ومنذ القرن الثاني الى الاشتغال بالمهن والحرف والصنائع والزراعة بعد ان كانوا يحتقرونها . ثم ان عدداً ضخماً من الاعاجم اعتنق الاسلام . كل هذه الامور ادت الى اختلاط الانساب ، وظهور انساب جديدة الى جانب النسبة الى القبيلة أو العشيرة أو الجنس والتي كانت سائدة قبل الاسلام وصدره . فنسب الناس الى الاقاليم مثل : العراقي ، والمصري ، والاندلسي . او الى المدن مثل : البغدادي ، والبصري ، والاصفهاني . او الى محلة في مدينة ، نحو : الدارقطني نسبة الى محلة ببغداد ، والكرخي ، والجماجمي نسبة الى محلة بجرجان . او الى قرية مثل : الدلاصي نسبة الى قرية من صعيد مصر ، والبكردي نسبة الى قرية من قرى مرو ، والرامني نسبة الى رامن وهي قرية من قرى بخارى . أو الى المذاهب مثل : الشافعي ، والحنفي ، والحنبلي . أو الى الفرق مثل : المعتزلي ، والخارجي ، والجهمي . أو الى الحرفة والصنعة مثل : الفوطي

نسبة الى عمل الفوط ، والحفار نسبة الى حفر القبور • والدباس نسبة الى من يعمـــل الدبس او يبيعه • او علـــم من العلوم نحو : النحوي ، والتاريخي ، والاثري نسبة الى الاثر وهـــو الحديث الشريف وطلبـــه واتباعه • أو الى وظيفة من الوظائف مثل : الخازن نسبة الى من يتولى خزن الـكتب أو الاموال ، والقاضي ، والمحتسب •

يضاف الى كل ذلك ان الشخص الواحد صار ينسب الى نسب متعددة مثل :

أبو محمـــد عبدالمحسن[٧٢] بن ابي العـــلاء ••• الخثعمي المصري الشافعي الاثري السراج[٧٣] •

وأبو الخير دلف[٧٤] بن عبدالله بن محمد بن عبدالله الازجي[٧٥] الفقيه الحنبلي المعروف بابن التيان[٧٦] •

والاديب ابي الحسن علي[٧٧] بن بكمش بن عبدالله التركي العزي النحوي الملقب بالفخر •

لذلك تبدل مفهوم الانساب وظهر اتجاه آخر في كتبها امسك بعنانه المحدثون فوضعوا كثيراً من الـكتب في هذا المضمار •• لقد كان القصد من هذه الـكتب التفريق بين النسبة والاخرى من جهة وكتابه انساب الرواة حسب المشهور ، ومن ثم تبيان المشهورين بها • ولعل كتاب الانساب لابي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ مثال حي لمـــا ذهبنا اليه[٧٨] فهو يذكر النسبة ، واصلها ، ثم يذكر المشهورين بها من الرواة وغيرهم • ويورد شيوخ كل واحد منهم ، ومن روى عنه ، واقوال العلماء فيه من حيث توثيقه ، وتاريخ وفاته ومحلها •

وتمتاز هذه الكتب باهميتها التاريخية فهي غنية الى حد بعيـــد بالمعلومات التي قد لا تجدها في غيرها من الـكتب ، لـكن من أهم مساوئها تبعثر معلوماتها وتشتتها لذلك وجبت قرائتها من اولها الى آخرها بغية الحصول على المعلومات المختلفة • كما اننا نجد فيها نقولا عن كتب ضاع اكثرها ، فالسمعاني مثلا ينقل بشكل واسع عن كثير من الكتب الضائعة وبخاصة التواريخ المحلية • وقد رحل من اجل كتابه هذا الى الآفاق سائحا وسكن لمـــدة في ما وراء النهر وخوارزم ٥٥٠ — ٥٥١هـ[٧٩] ، وســـمع ببخاري[٨٠] ، وسمرقند[٨١] ونسف[٨٢] وترمذ[٨٣] وغيرها من البلدان •

وفيما يأتي مثال من كتاب الانساب للسمعاني يكاد ان يكون انموذجا تاما لباقي الكتاب •

« العارض • بفتح العين المهملة والراء المكسورة بعـــد الالف وفي آخرها الضاد المعجمة • هذا الاسم لمن يعرف العسكر ، ويحفظ ارزاقهـم ويوصلها اليهم • ويعرض العسكر على الملك اذا احتيج الى ذلك • واشتهر [بذلك][٨٤] ابو صالح محمد بن محمد بن عيســـى بن عبدالرحمن بن سليمـــان العارض • وكان اديبا فاضلا عالما • تقلد الاعمال الجليلـــة

للسلطان[٨٥] ، وحمدت سيرته فيها . وكان سمع الحديث الكثير بخراسان والعراق . سمع بنيسابور اباه ، وبمرو يحى بن ساسويه المروزي ، وببخارى ابا علي صالح بن محمد الحافظ الجزري[٨٦] ، وبالري محمد بن ايوب الرازي ، وببغداد عبدالله بن احمد بن حنبل ، وابا مسلم ابراهيم بن عبدالله الكجي[٨٧] ، واقرانهم . سمع منسه الحاكم ابو عبدالله الحافظ وذكره[٨٨] فقال : أبو صالح بن عيسى العارض ، احد مشايخ خراسان ، ومعتمد اولياء السلطان . وكان من العقلاء الادباء المحبين للعلماء والصالحين المفضلين عليهم بماله وجاهه . وكان يرشح للوزارة فيأبى عليهم . قال الحاكم : وكان ابو صالح ابن اخي امي[٩٠] ، ولنا به اختصاص القرابة والصحبة . كتبت عنه بنيسابور غير مرة . ثم كتبنا عنه بمرو ، ونظرت في كتبه بها سنة ٤٣ . وتوفي بمرو ليلة الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٤٤ »[٩١] .

إما المظهر الخامس من مظاهر هذا التأثير فيتمثل في التواريخ المحلية أو ما يسمى (بتواريخ المدن) . وسنفرد له بحثا خاصا نظرا لاتساع مطلبه وتشعبه .

---

(١) انظر عن هذه الكتب واهميتها : مقدمة الدكتور معظم حسين لكتاب « معرفة علوم الحديث » لابي عبدالله الحاكم النيسابوري « ت ٤٠٥ » (القاهرة ١٩٣٧) ، و « علوم الحديث ومصطلحه » للدكتور صبحي الصالح (دمشق ١٩٥٩) ص أ ـ هـ/١٠٥ ـ ٣٢١/١١٢ ـ ٣٢٧ . ويعد كتاب « الكفاية في علم الرواية » للخطيب البغدادي من الكتب الممتازة الجامعة الشاملة لهذا الموضوع . وكثير من الكتب التي وضعت بعده انما هي عيال عليه .

(٢) مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم . طبعة محمد فؤاد عبدالباقي . القاهرة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥ « باب بيان ان الاسناد من الدين » ، الدارمي : « باب في الحديث عن الثقات » ج ١ ص ١١٢ ، الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية . (حيدر آباد ١٣٥٧هـ) ص ١٢٢ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣ ـ ٤ (ط . القاهرة ١٣٢٥هـ) .

(٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ١٩٨ (ط . القاهرة ١٣٦٩هـ) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٤٦ (ط . ريتر) .

(٤) عن : J. Schacht: Origins of Muhammadan Jurisprudence pp. 36-37.

(٥) المغازي الاولى ومؤلفوها . ترجمة الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٤٨) ص .

(٦) الدارمي : باب في توقير العلماء ج ١ ص ١١١ .

(٧) الرازي : الجرح والتعديل ج ٣ قسم ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٥ ، ياقوت : ارشاد (ط . مرغليوث) ج ٦٦ ص ٢٠٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٢٧ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبير (ط . سخاو) ج ٣ قسم ٢ ص ٧ .

(٩) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ص ٢٢٠ (القاهرة ١٩٦٣) [وهي رسالة ماجستير من كلية العلوم نالت درجة ممتاز] ولا اعلم ما الذي دفعه الى هذا القول مع ان ابن سيرين لم يصرح بماهية الفتنة . ومن ثم فان هذا ضرب من التخمين الذي لا يستند الى دليل .

(١٠) انظر : Schacht: op. Cit. pp. 36-37

(١١) انظر عن هذه الفتنة : فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها . ترجمة يوسف العش . دمشق ١٩٥٦ ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠ .

(١٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٦٤ (الاستقامة ١٩٣٩) وانظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٧٠ (ط · المنيرية ١٣٥٧هـ) ·

(١٣) الدارمي : باب في الحديث عن الثقات ج ١ ص ١١٢ ·

(١٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٩٤ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٥٥ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٧ فما بعد ·

(١٥) ابو حاتم الرازي : الجرح والتعديل · حيدر آباد ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ج ١ ص ٣٤ ·

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ١٧٢ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ · حيدر آباد ١٣٣٣هـ ج ١ ص ٧٥ · ابن حجر : تهذيب التهذيب · حيدر آباد ١٣٢٥هـ ج ٥ ص ٦٦٥ ·

(١٧) الخطيب : السنة قبل التدوين ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ نقلا عن كتاب مقدمة التمهيد لابن عبدالبر (مخطوط بدار الكتب المصرية) ص ١٤ ب ·

(١٨) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٥٣ ، أبو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء (القاهرة ١٩٣٨) ج ٨ ص ١٦٢ فما بعد ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٢ ، ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٥ ·

(١٩) صحيح مسلم ج ١ ص ١٥ ، السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي · القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٥٩ ·

(٢٠) انظر : الخطيب : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤١٢ ـ ٤٢٣ ، أبو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء ج ٩ ص ١٦١ فما بعد ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٥ ـ ٣٤٣ (ط · القاهرة ١٩٣٢) ·

(٢١) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ·

(٢٢) انظر : أبو نعيم : حلية الاولياء ج ٦ ص ٣١٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٥ ·

(٢٣) راجع مقدمة الدكتور محمد كامل حسين للموطأ · (ط · محمد فؤاد عبدالباقي · القاهرة ١٩٥١) ·

(٢٥) بولاق ١٢٠٢هـ ·

(٢٥) الطبري : تاريخ ج ١٠ ص ٤٧ فما بعد ، الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥ فما بعد ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٦٩ ··· الخ ·

(٢٦) الرسالة تحقيق حمد محمد شاكر · القاهرة ١٩٤٠ ص ٤٠٥/٤٣١ ·

(٢٧) نفس المصدر ص ٤٦١ ـ ٤٧١ ·

(٢٨) نفس المصدر ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ ·

(٢٩) Schacht, op. cit p. 163

(٣٠) لقد امر عمر بن عبدالعزيز بتدوين الحديث [الدارمي ج ١ ص ١٢٦] حينما كتب بذلك الى ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عامله على المدينة · ولكن ليس لدينا ما يثبت ان الاخير قد قام بهذا العمل · لمعلومات اوسع انظر : أحمد امين : ضحى الاسلام الطبعة الثانية · القاهرة ١٩٣٨ ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، جب : بدء التأليف النثري · مقالة منشورة في كتاب المنتقى من آثار المستشرقين لصلاح‌الدين المنجد ص ١٣٧ ·

(٣١) رويت عن الرسول أحاديث كثيرة في هذا المجال اشهرها ما روى عنه (ص) : « من قال علي ما لم اقل فليتبوأ مقعده من النار » · انظر الشافعي : الرسالة ص ٣٩٦ والحاشية رقم (٥) في تخريج الحديث · كما تشدد الخليفة عمر بن الخطاب في رواية الحديث · انظر : الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣ ، كذلك الدارمي : « باب اتقاء الحديث عن النبي (ص) والتثبت فيه · » ·

(٣٢) انظر مثلا القرآن الكريم الحشر/٧ ، النساء/٥٩/٦٥ ، الرسالة للشافعي ص

٢٢/٣٢/٤١/ ٧٣ ـ ٩٣/١٠٣ ـ ١٠٥/١٠٩/١٤٦/١٦١ ـ ١٦٦/١٩٧ ـ ١٩٩/١٢٥/٢١٧/ ٢١٩/٢٢١ ـ ٢٢٦/٢٣٢ ـ ٢٣٥/٤٠١ ـ ٤٠٢/٥٤٤ .

(٣٣) الدوري : بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب ص ٣٢ فما بعد .

(٣٤) توفي نصر بن مزاحم سنة ٢١٢هـ وطبع كتابه عبدالسلام هارون انظر ط ٢٠ ١٣٨٢هـ . (الاقلام : طبع هذا الكتاب أولا في بلاد العجم على عهد ناصرالدين شاه القاجاري سنة ١٣٠٠هـ = ١٨٩٦م) .

(٣٥) الطبري : تاريخ ج ١ ص ٧ ـ ٨ .

(٣٦) انظر مثلا : الرسالة ص ٢١٧/٣٢٢/٣٤١/٣٩٥/٥٤٤ .

(٣٧) الرسالة ص ٣٩٩ . وانظر ايضا : Schacht : op. Cit. p. 3, 36.

(٣٨) يقول ابن حجر [شرح نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر - القاهرة ١٩٣٤ ص ٣٤] ان مراتب صيغ الاداء ثمانية هي : سمعت وحدثني ، اخبرني وقرأت عليه ، قرئ عليه وانا اسمع ، انبأني ، ناولني ، شافهني ، كتب الي ، عن وقال وذكر وروى ونحوها وهي الصيغ التي تحتمل السماع والاجازة ، ولعدم السماع أيضا . قلت : ومع ذلك يبدو من الصعب اجراء هذا التقسيم فقد بلغت هذه المراتب ، كما تدل عليه كتب الرجال ، اكثر من هذه الكمية بكثير .

(٣٩) المنقطع هو السند الذي يسقط من رواته واحد .

(٤٠) المرسل هو المنقطع السند .

(٤١) انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٦١ ـ ٦٣ « ... ليس بثقة .. كذاب .. متروك .. وقال ابن حبان [البستي] مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه اظهر من ان يحتاج الى الاغراق . » ويتقل عنه الطبري انظر مثـــلا التاريخ ج ١ ص ٣١٠ ج ٢ ص ٢٧٢/٣١٢ .

(٤٢) انظر الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٥٦ « .. الاخباري النسابة العلامة ... قال احمد بن حنبل كان صاحب سمر ونسب ما ظننت ان احدا يحدث عنه . وقال الدارقطني وغيره : متروك » ينقل عنه الطبري كثيرا انظر مثلا التاريخ ج ١ ص ٢١٢/٢٣٤/٣١٠ ، ج ٤ ص ٢٤٦/٥٤٧/٥٥٥/ج ٥ ص ١٨٥/٢٥٧/٤٠١/٤٤٩/٥٦٩ .

(٤٣) انظر ابو حاتم الرازي : الجرح والتعديل ج ١ قسم ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ وهو على اي حال غير ثقة فقال بعضهم لا باس به وقال آخرون ضعيف . ينقل عنه الطبري كثيرا انظر مثلا ج ١ ص ٢٢٥/٢٣٦/٢٥٣/٣٠٣/٣١٩/٣٣٤/٣٣٧/٣٣٨/٣٤٥/٣٥٣/٣٥٥/٣٥٩/ ٣٦١ .

(٤٤) مثلا التاريخ ج ١ ص ٣٣٠/٣٨٠ .

(٤٥) مثلا التاريخ ج ١ ص ٣٣٥/٣٤٢/٣٤٣/٤٥٦ .

(٤٦) مثلا التاريخ ج ١ ص ٣٣٨/٤٣٥/٤٥٥ .

(٤٧) مثلا ج ١ ص ٣٨٠ .

(٤٨) مثلا ج ١ ص ٤٣٦ ، ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٤٩) مثلا ج ١ ص ٤٦٢ .

(٥٠) مثلا ج ١ ص ٣٥٣/٤٧٨ ، ج ٤ ص ٩٢/١٣٥/٢٠٣/٢٤٢/٢٥٠/٥٥٧ .

(٥١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ج ١ ص ٢٧٨ ، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ .

(٥٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢٢ .

(٥٣) يقصد بالطبقة الجماعة التي تشترك في السن ولقاء المشايخ . كما قد يقصد بها الجيل . انظر لسان العرب ج ١٢ ص ٧٩ فما بعد ، روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ص ١٣٣ (بغداد ١٩٦٣) .

(٥٤) كان الواقدي قد كتب كتابا في الطبقات ، وقد استعان به ابن سعد بشكل كبير ونهج نهجه قال ابن النديم [الفهرست ص ٩٩ ط ، فلوجل] : « ان ابن سعد « الف كتبه من تصنيفات الواقدي ، » انظر ايضا : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٢١ ، هورفتس : المغازي الاولى ومؤلفوها ترجمة الدكتور حسين نصار ص ١٢٦ – ١٣٢ ؛ ومقدمة الدكتور احسان عباس لطبعة بيروت لكتاب الطبقات ص ٥ – ١٧ .

(٥٥) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٣٣ .

(٥٦) السلمي : طبقات الصوفية تحقيق نورالدين شريبة (القاهرة ١٩٥٣) ص ٣ .

(٥٧) نفس المصدر ص ٨٣ – ٩٠ .

(٥٨) أي من الطبقة الاولى حسب ترتيب المؤلف .

(٥٩) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٤٥ .

(٦٠) نفس المصدر ص ١٤١ .

(٦١) البخاري : التاريخ الكبير ، حيدر آباد ١٣٦١هـ ج ١ ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٦٢) جمع مدلس ، والتدليس قسمان اولهما ان يروي الراوي عمن لقيه ما لم يسمعه منه أو عمن عاصره ولم يلقه موهما انه سمعه منه كان يقول « عن فلان » أو « قال فلان » . وثانيهما هو الاتيان باسم الشيخ أو كنيته على خلاف المشهور به تعمية لامره . انظر ابن كثير : اختصار علوم الحديث ط . الثالثة باعتناء وشرح أحمد محمد شاكر ص ٥٣ – ٥٦ .

(٦٣) نسبة الى كلاباذ وهي محلة ببخارى .

(٦٤) ج ١ ص ٣ (ط . دار الكتب المصرية ١٩٥٦) .

(٦٥) ج ١ ص ٧ (ط . عزت العطار الحسيني ١٩٥٥) .

(٦٦) انظر عن تواريخ العالم وتطور مفهومها والمؤلفات فيها بحث الاستاذ روزنثال القيم « علم التاريخ عند المسلمين » ص ١٨٣ – ٢٠٦ .

(٦٧) السيوطي : الشماريخ في علم التاريخ ، باعتناء سيبولد ، ليدن ١٨٩٤ ص ٧ .

(٦٨) ج ٦ ص ١٥٨ (حيدر آباد ١٣٥٧هـ) .

(*) الاقلام » في تاريخ بغداد للخطيب : وتحضر بالعلم في موضع » ج ٩ ص ٤٢٦ ولعل الاصل : تحصر ، من الحصر » .

(٦٩) لمعلومات اكثر انظر : ابن ماكولا : الاكمال في دفع الارتياب عن المؤلف والمختلف من الاسماء والكنى والانساب » حيدر آباد ١٩٦٢ – ١٩٦٣ ، ومقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب « تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب » لابن الصابوني (ط . المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٧) .

(٧٠) انظر عن هذه الكتب : مقدمة الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني لكتاب الاكمال لابن ماكولا ص ٤ – ١٧ ، ومقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني .

(٧١) علم التاريخ عند المسلمين ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٧٢) ابن الصابوني : المصدر السابق ص ١٦ .

(٧٣) نسبة الى عمل السروج .

(٧٤) ابن الصابوني ، المصدر السابق ص ٥٣ .

(٧٥) نسبة الى باب الازج وهي محلة ببغداد .

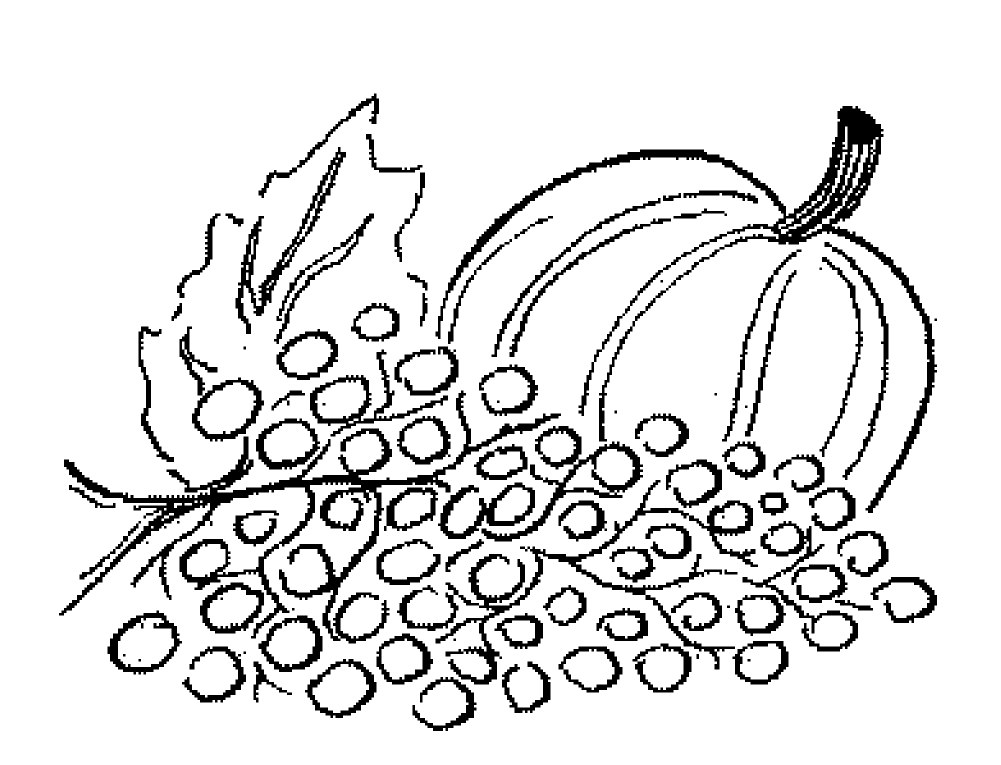
(٧٦) نسبة الى التين وبيعه كما في السمعاني واللباب لابن الاثير .

(٧٧) ابن الصابوني : المصدر السابق ص ٥٧ .

(٧٨) انظر :

W. Barthold: Turkestan down to the Mongol Invasion, 2nd ed. (G.M.S.) London, 1928 pp. 34-35.

(٧٩) السمعاني : الانساب الورقة ٤٨٩ أ [نشرة سلسلة اوقاف جب] ليدن ١٩١٢ .
(٨٠) نفس المصدر الورقة ١٣٣٥/٤٧١ب .
(٨١) نفس المصدر الورقة ١٩١أ .
(٨٢) نفس المصدر الورقة ٥٥٩ب .
(٨٣) نفس المصدر الورقة ١٠٥ب . « وكنت اقمت بها اثني عشر يوماً . »
(٨٤) الزيادة من كتاب اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير ج ٢ ص ١٠٤ (ط . القاهرة ١٣٥٦هـ) .
(٨٥) يريد به الامير السامانى .
(٨٦) في اللباب « جزرة » ذكره السمعاني في الورقة ١٢٩أ وانظر ايضا اللباب ج ١ ص ٢٢٥ والنسبة هنا الى الجزيرة وهي جزيرة ابن عمر .
(٨٧) نسبة الى السكج وهو الجص . ذكره السمعاني في الورقة ٤٧٥ب وانظر اللباب ج ٢ ص ٢٩ .
(٨٨) في الاصل [وذكر] .
(٨٩) أي تاريخ نيسابور . ويسمى احيانا « تاريخ علماء نيسابور » أو « تاريخ النيسابوريين » والكتاب مفقود والموجود منه المختصر .
(٩٠) في اللباب لابن الاثير « وكان ابن خال ام الحاكم » .
(٩١) السمعاني : الانساب . الورقة ١٣٧٨ .



أمل الانسانية والفن المعماري

بقلم البروفسور لويس ممفورد(*)

ترجمة – محمود حمدي

يروق لي ، في معالجتي وضع الانسان الحديث ، ان اتجاوز الأحوال التي ظهرت خلال النصف قرن الأخير ، لأن الحروب والاوبئة والشراسات والابادات التي هوت الى ما دون المستوى الانساني هي أعراض أكثر مما هي بواعث • ان الحقيقة الكبرى التي تكمن وراء حياتنا كلها هي ان البشرية اليوم تواجه وضعاً فريداً في التاريخ : فلقد تحقق البعض من أقدم احلام الانسان – كالتحليق في الهواء والمواصلات الآنية ، والعمل من بعيد – وهو ما ندعوه اليوم بالسيطرة النائية – ، وأخيراً القوة اللامتناهية والغنى الذي لا حد له •

كل هذه المنجزات التي عبر عنها بالاحلام في الاساطير الدينية ترجع بالاصل الى بداية المدنية في أواخر العصر الحجري والعصر البرونزي ، قبل خمسة الى سبعة آلاف سنة • فعند ظهور اولى منجزات القوة والنظام والمعرفة العلمية في حضارتي بابل ومصر العظيمتين على ضفاف الانهر انبثقت هناك رغبة لتوسيع هذه الوظائف الفيزيائية من غير تحديد مهما كلف ذلك الحياة من ثمن وقد أسبغت هذه الحضارات على آلهتها وقتياً قوى لم يكن ملوكها قد بسطوا عليها سلطانهم بعد • ولما لم تكن الوسائط التكنيكية متوفرة فان زيادة القوة البدنية وفيض المواد لم يخصا الا الاقلية الصغيرة : أما باقي السكان فقد ظلوا ضعفاء وفقراء وجهلاء ، لم يساهموا في الحياة الارستقراطية الا بالاسم والانابة فقط • تلك هي الجماهير البشرية المفتقرة الى أبسط متطلبات الغذاء والمأوى ، ولم تكن تفكر الا بوفرة المواد • لذا فاننا ، حتى الآن ، نعجز عن فهم اللامنطقية البيولوجية لأحلام العصر البرونزي الساحرة في المتعة بالخمول والغنى باللامجهود والقوة غير المكبوحة كما لو تحققت بالسحر •

ان القوى التي كانت يومها مقصورة على السلطنة المطلقة أو الآلهة

* الكلمة التي القاها الناقد المعماري الاميركي البروفسور لويس ممفورد على طلبة الهندسة المعمارية في روما وقد ترجمت عن مجلة « السجل المعماري » الاميركية لشهر نيسان ١٩٥٩ •

الأولى اصبحت اليوم عالمية : انها ملك جماعي لا يمكن ، بطبيعتها ، احتكارها من قبل جماعة او طبقة او بلد • زيادة على ذلك : ان الوظائف والقوى التي استحوذت عليها الآلهة يوماً بمجرد نزوات بشرية ، أمست اليوم تمارس من قبل عامة الناس — كالكتبة والجنود والموظفين المدنيين والمهندسين — أناس لم يتمتعوا ، بصورة بادية للعيان ، بأي قدر مساو من الحب والمواهب •

هذا هو في الحقيقة عصر الانسان الاعتيادي • ان الانسان الاعتيادي ، رغم خلوه من التبصر التأريخي وافتقاره الى السلوك الخلقي الخاص أو القوى الفكرية الشاملة الموحدة بصورة كافية ، أصبح بعملية تكاد أن تكون تلقائية متمتعاً بوظائف وصفات الآلهة البدائية • قد لايدرك تماماً الاحتمالات الفظيعة التي ينطوي عليها هذا الوضع الا اولئك الذين درسوا الديانة البابليـة أو المصرية • ولكن النقطة التي اريد التوكيد عليها هي أن الكثير من معاصرينا ، وربما أغلبهم ، لا زالوا يعيشون خيالياً وعقلياً في العالم البدائي الفظ الذي رافق بداية العصر البرونزي مع انهم فخورون حقساً بقواهم التنظيميـة وتنظيمات قواهم • عقليتهم ، ويا للغرابة ، فعقليتهم تشابه عقلية الفراعنة الأولين ، أما مفهومهم للمدنية الحديثة فليس محدوداً فحسب ، بل بـال آيديولوجياً — وانه في الحقيقة سحيق في القدم كقدم الايمان بالوهية الملوك •

ولا ينكر تحول الانسان الحديث الى كائن متمتع بسجايا ربانية مـن أجل انجازات مفضلة شاملة الا الجاهل أو الشخص الساذج تماماً ، لأن تاريخ الاعوام الاربعين الماضية والسجلات القدامى للعنف والهمجية المنظمة تدل على اننا قد منحنا بصورة عمياء قوة وسلطة لعناصر الشر والخير في الانسان على السواء • فلقد أمست نتائج كل منجزاتنا البـارعة في العلوم والتكنيك والادارة الاقتصادية والتنظيم ، في الواقع ، متناقضة ومتباينة • ففي كثير من المجالات هناك مكاسب مدهشة لا في مجالات الطاقة والحيوية فحسب، بل في مفاهيم اسمى للعدالة والشرف الانساني أيضاً • وتدبيرات الفائض تؤمل كـل فرد بعضاً من اللهـو والرفاه اللذين لم يعرفهمـا من قبـل الا الارستقراطيون • هذه قيم ايجابية عظيمة ، هل هناك من ينكرها ؟

لقد تخلص الانسان الحديث من عاديات الفقر والفاقة التلقائية ، بيد أن المعروف في كل عملية بيولوجية « ان الكثرة الفائضة قد تكون خطراً على رخاء الحياة بمثل ما تكون الفاقة المعدمة » ، وعلى ذلك ليست الازمـات الاقتصادية وحدها هي التي نواجه فيها « المجاعة في خضم الوفرة الزائدة » • اننا بالفعل نملك قوة أكثر مما يمكن استخدامها بتعقل ، وفي حوزتنا معرفة علمية وتكنيكية أوفر مما يمكن استيعابها وتوجيهها للاعمال النافعة •

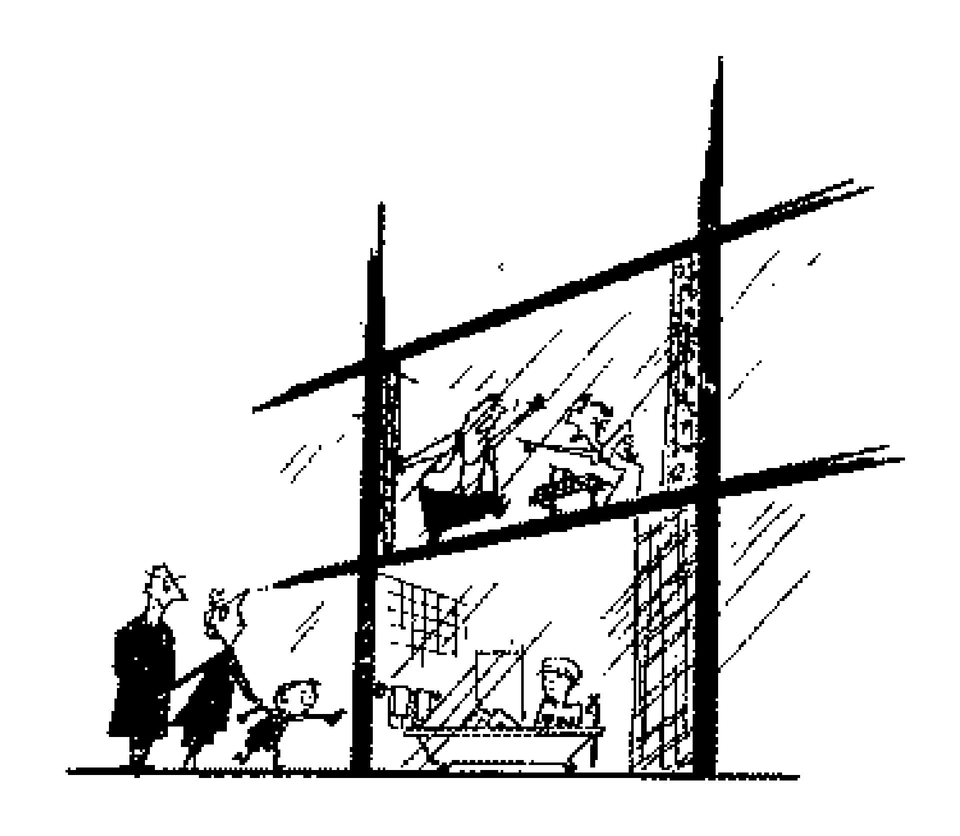
ما نتيجة ذلك ؟ لدينا الآن قوة خارجية تتعدى في مقياسها افظـع احلامنا • ولكن هذه القوة الخارقة يقابلها شعور داخلي بالوهن والغثيان والخيبة واليأس • ولم يحدث قبلا ، وفي أتعس أوجه تطور البشر شؤماً ،

أن كان هناك مثل هذا الشعور العالمي بالقلق ، ومثل هـذا الاحساس بالفراغ وعقم الحياة وبالافتقار العام للمعنى والغرض • ان ما يعرب عنه الفنانون اليوم في رموزهم اللامتناهية عن التفكك ، سيدركه غدا الانسان الاعتيادي الذي ما زال سليماً بدرجة تكفي لأن تؤهله للتمتع بحريتـه الجسمانية

لا غرو في أن يقوم فنان اليوم بعرض ابداعاته في مجال التخريب والعنف وبأشكال طفولية ، عديمة الفحوى التربوي او القيم الأخلاقيـة بدلا من اعتزازه بكل المظاهر الممكنة لقوانا الخيرة • انه ، في الحقيقة ، غالباً ما يظهر حباً عميقاً للرذيلة والشر ، كما اعترف أحد مواطني بلدي — تنسي وليمز — بأمانة في ندوة معه مؤخراً • ليس هناك القليل من فننا الحديث ما يبدي نوعاً من الشدة التمردية ، كما لو كان مستمداً مباشرة من منابع أساسية في أصل التكوين • ولـكن هـذه الظاهرة يجب أن لا تطمس حقيقة ان معناه يكمن في انعدام معانيه ، ومضمونه في افتقـاره الى المضامين — لا ليلتبس بالتجريدية — وان قيمته الوحيدة هي في نكران امكانية القيم • فاذا كانت العلوم الحديثة والتكنولوجيا الجديدة مستمدة من أفكار العصر البرونزي ، فان قسطاً كبيراً من الفن الموضوعي الحديث يبدو وكأنه يرجع الى أبعد من ذلك ، الى فترة لم تكن الأفكار أو الكلمات قد تكونت فيها بعد ، وحينما كانت المشاعر الانسانية بدائية لا يمكن الافصاح عنها •

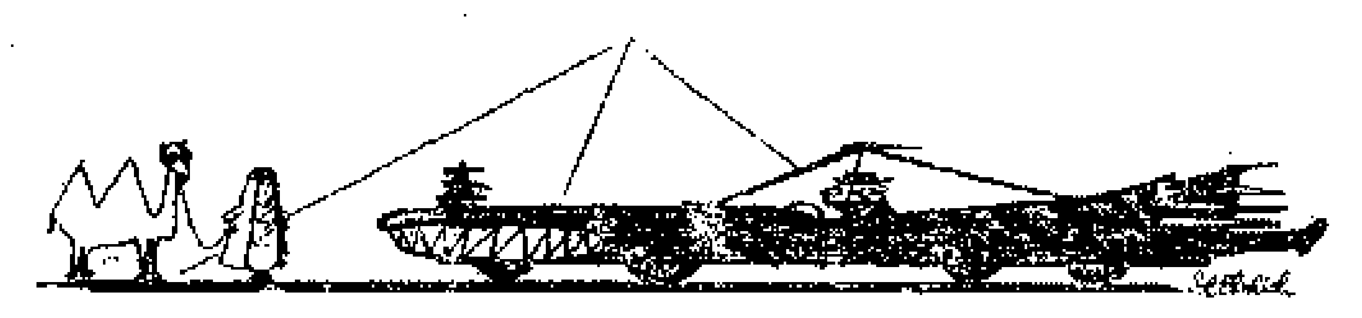
لقد زادت صحتنا وقابليتنا السطحيتان في قوة جهلنـا فترة طويلة من الزمن ، وطمستا الدلائل التي أحاول تسليط النور عليها هنا • ففي فنون الانشاء والصنع يجب على المرء أن ينظر من وراء الشكل الخـارجي ليستشف الضعف الداخلي : فاذا عبرت البناية عن تفككها فانها لاتصمد ، واذا السيارة أنمت عن تحللها توقفت عن المسير • حتى في الفن المعماري الحديث تكون الدلائل مربكة • فعندما يتفحص المرء بناية حديثة أو مركزاً حضرياً جديداً بعين نقادة ، غير متـأثر بالألواح والاعلانات الزاهيـة السائدة ، بالوقت الحاضر ، يجد ، ويا للأسف ، نفس التفاوت بين الشكل الخارجي والارتباك الداخلي • فاذا أخذنا الفن المعماري السائد اليوم على سبيل المثال يمكننا تصنيفه الى ثلاثة أقسام هي : العلبة والهرم والمضجع المطواع •

يمكن تعريف العلبة بأنها غلاف خارجي ، غشاء من زجاج أو صلب أو خرسانة ، لا يتم شـكله عن علاقـة بوظائفيـة أو غرضـية الشيء أو الفعاليات التي يضمها • غرض العلبة الوحيد هو ابهار عيـون المتطلعين والاعلان عن البضاعة وبيعها • مثل هذا الغلاف يكون ، حسب التعريف ،



العلبسة

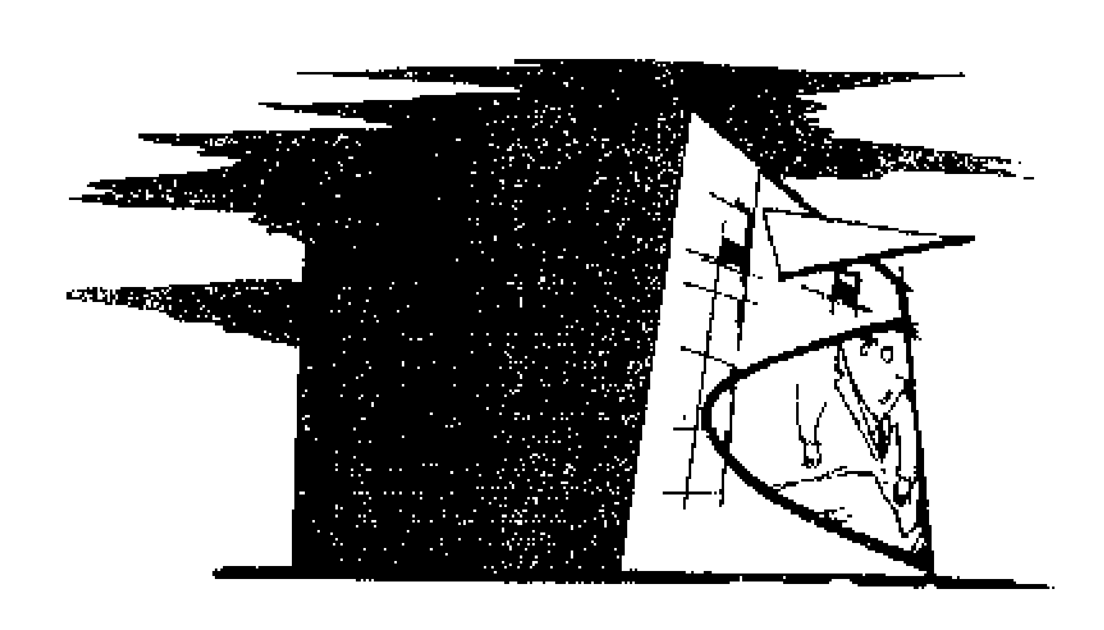
ذا تأثير أكبر عندما يزداد خلواً . أما مايتعلق بمهمات حيـــاة العائلة في قيض الصيف وزمهرير الشتاء ، فان المسكن المزجج تماماً ، وهو العلبـة المثالية ، لا يمسي الا مكاناً للتعذيب . وهكذا يكون اغفـــال المضامين الانسانية غلطة النموذجية لعصرنا الحاضر .



الهـــرم

أما الهرم ، وهو من أقدم الانحـــرافات المعمـــارية ، فقد لا يكون انتعاشه في عصرنا هذا أمراً عرضياً ، رغم أن الأشكال الجديدة تمســـخ طبيعته . ان الأبنية الهرمية سواء أخذت شكل ناطحة سحاب ارتفـاعهـا ميل أو أساس ناتيء تكاد كلفة انشائه تبلغ كلفة البنـــاية التي تحمله ، تتطلب التضحية بمتطلبات انسانية مهمة لقاء فخفخة فارغة وخيلاء خاوية . بموجب هذا التعريف تكون سياراتنا الاميركية الجديدة أمثلة صميميـــة للانشاء الهرمي ، وهكذا ، بمقياس أوســـع ، تكون قنـــابلنا الـــذرية والهيدروجينية ، لأنها جزء من المذهب الجديد في القتل ، وربما ستصبـــح مقابر الجنس البشري كله ، لا مقابر بضعة فراعنة .

النقطة الثالثة والأخيرة في التركيز الفيزيائي المفرط وبالتـــالي من التفكك العضوي هي المضجع المطواع • فهذه وسائلنا الآلية المفيدة المدهشة تصبح مجرد مطواع عندما تهيمن احدى العمليات الميكانيكية أو طريقة ما في التنظيم الآلي على ما عداها من الفعاليات وتكبح جمـــاح العمليـــات الأساسية الخاصة بالانسان • هناك وسائل أفضل بكثير من طريقة حارس الفندق الاغريقي الذي كان يبتر سيقان ضحاياه أو يمد في أجسامهم لتلائم



المضجع المطواع

سريراً من حديد يختاره اعتباطاً • لا يتأتى الخطر من استعمال المـاكنة ، بل ازاحة الانسان كعامل مسؤول ، يجب عليه السيطرة على نتاج الماكنـة وتوجيهها لخدمة الأغراض الانسانية • اننا اذ نبدأ بتطوير الناس تطويراً يتفق ومتطلبات الماكنة فسوف لن يكون هنـــاك حد للمســـخ الجسماني والعقلي المحتمل حدوثه • ففي عالم يفتقر الى الغرض لابد للـــمكننة أن تسود •

لا زال الكثير من معاصرينا يعتقدون بامكانية حل مشاكل زمانـــنـــا بالاكثار من تطبيقات العلم والتكنيك ، ولكن هذه النظرة تنم عن فشل في فهم حدود هذه المجالات ، حتى تصبح جزءاً من مفهوم للحياة والتطـــور البشري أكبر سعة واكثر عمقاً • اننا نخادع انفسنا اذا ما تصورنا اننـا سنوفي متطلبات الحياة العصرية حقها أو نعبر عن أفكار الحضارة الحديثة اذا ما انتجنا الكثير الأكثر من العلب الانيقة ومن الاهرام الزاهية والمكائن الآلية ذات الأدمغة لالكترونية المتصلة بها •

ان أغلب فعالياتنا الحديثة المفضلة ، في الواقع ، ترجـــع بالوراثة المباشرة الى العصر البرونزي ، كما انها تعبر عن التحديدات الصبيانيـــة لفكر ذلك العصر • اننا في الحقيقة نستخدم أفضل الوسائل التكنيكيـــة واتقنها في العلوم الرياضية والفيزيائية بغية اشباع نزعة قديمة في الوجود •

هذه النزعة تسقط من حسابها تماماً المعطيات التأريخيـة للآلاف الخمسة الماضية من السنين والنظرات الخلقية المتراكمة للأديان السماوية ومفاهيمنا المتعمقة لطبيعة الحياة نفسها ، والتي تتجاوز كل شروداتنا الآيديولوجية . لقد جعل انسان العصر البرونزي نفسه ، بتأكيده الزائد على دور التنظيم والسيطرة الخارجية ، غريباً عن عالم الحياة . هذا هو سبب علتـه وعلة اتباعه الذين لا زالوا يدأبون على رعاية المفهوم الصبياني المتنـــاقض في اسباغ القوة اللا متناهية والغنى الذي لا ينفد والسعة غير المحدودة عـلى الماكنة في جميع الاتجاهات من غير أن يكون هناك أي مذهب صـميمي في السيطرة ، بل من غير ان يكون هناك أي غرض أو هدف غير القوة من أجل القوة والحركة من أجل الحركة والسرعة من أجل السرعة ، وأخيراً في زماننا هذا الخراب الكامل والابادة التامة من غير غرض منطقي مهما كان نوعه .

ان الفعاليات الحياتية ، بعكس عالم الذرة والنجوم ، عمليات ذاتيـة في توجيهها هدفية في نشدانها . انها تندفع عند الانسان الى الوعي عـلى شكل أفكار ومشاريع وخطط . هذه النزعات المتعلقة بمستقبل محتمل ، فاذا أهملت مرة أو كبحت ، فقدت الحياة معنـــاها عنـد الانسان . وان الانسان كلما ارتقى في تطوره توسعت حاجته للتفكير مرة أخرى في ماضيه واعادة بناء حاضره والتدبر لمستقبله . كما أن الحب والابداع ضـروريتان من ضرورات نمو البشرية وتقدمها .

على هذا تصبح متطلبات الحياة أكثر مراوغة وأشـد تعقيـداً من متطلبات الآلة ، ولهذا السبب يمسي الحل الميكانيكي الجيد للقضـــايا البشرية مجرد جزء من حل عضوي مناسب يفي بمتطلبـــات الحياة بكل ابعادها . في حالة الطفل الرضيع ، هناك دلائل تجريبية تبين أن الطفل ، مهما أعطي من غذاء ، لا يترعرع بصورة سليمة ما لم يكن مغمـوراً بالحب والدلال . بنفس الدليل يصبح السماع والابصار بالنسبة للصحة بمنزلة علم الصحة والنظافة في الاهمية منها . ان الفنون المعمارية أو الهندسية أو السياسية أو الطبية ، اذا لم تعترف بسيادة الحياة ، انتسبت الى العصـر البرونزي الهمجي ، لا الى عصرنا ، فكيف بها الى المستقبل !! ان عالم الماكنة يقابل جهاز الانفعالات والعمليات التلقائية في الجسم . فعنـــدما نكيف للحياة والواقع بصورة صائبة فان الافعال السامية في الانسان ، تلك التي تخص المعاني والقيم والشكل سوف تسود وتغير كل أعمـــالنا الأداتيـه والعملية بحيث لا يبقى جزء من حياتنا اليومية فارغاً أو تافهـاً . والى أن نعترف بدور هذه الفعاليات السامية فان القوى الجبارة التي يسيطر عليها الانسان سوف لا تفسح المجال الا الى الانفعالات والأعمـال المـدمرة التي تسعى قوى الحياة عن طريقها الى التماس الاستقلال الـذاتي والحرية التي حرمت عليها .

الانسان اليوم يهيمن على قوى الطبيعة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، وقد توصل الى مقدرة آلهية في ادراكها وتوجيهها • بيد أن كل هذا الذكاء العلمي والامكانيات التكنيكية ستذهب سدى ما لم ندرك باننا يجب أن نخلق رعيلا جديدا من أمثـــال غاليلو وابن سـينا يعيننا على تحقيق قدراتنا الانسانية بالتمام وتوسيع كل طاقاتنا الانسانيـــة في الاحساس والتصور والحب والابداع بصورة خاصة • وما لم تكن كل أفعالنا أعمال حب ـ واعني بالحب كل معانيه ، من الغزلي الى الحب الآلهي ـ فانهـــا ليست بعد مشمولة بالمضمار الانساني •

ليس في نيتي ، ضمن نطاق هذه المحاضرة ، أن أتعمق أكثر من هذا • لقد سبق لي ان قدمت شرحاً أوفى لهذه الأفكار في كتاب صـــغير يدعى « تطورات الانسان » • في ذلك الكتاب حاولت تصوير مرحلة أكثر تقـدماً في تطور الانسان تعمل على الرقي بكل مناحي التجارب التاريخية وتوحيدها ومن ثم تجاوز التحديدات التي أدت بالمدنيات السابقة الى الزوال • ولحسن الحظ ، فاني بمجرد تقديم هذه الكلمة ، تمكنت من ايضاح النقطة الرئيسية في الموضوع ، لاني لم أتحدث اليكم بصفتي كاتباً أو فيلسوفاً أو استاذاً ، ولا بصفتي ناقداً معمارياً أو بروفسوراً في تخطيـــط المـــدن أو خبيراً اخصائياً • على العكس من ذلك تحدثت اليكم بصفتي انساناً ، فرداً مـن حقه أن يزاول كل الفعاليات الحياتية والروحية للانسان ، وعلى ذلك يعتبر كل ما يعدو ذلك من المناصب ثانوياً وزائداً • باختصار تجرأت أن أكون انساناً ، وأن أتوجه اليكم بصفتكم رجالا ونساء بسطاء • وبكل تواضـع أدعوكم لاتباع هذا المثل ، في تفكيرهم وفي عملكم وفي علاقاتكم الاجتماعية والعائلية • نعم اجرأوا على أن تكونوا انسانيين • تجرءوا على وضع الحكمة فوق المعرفة والحب فوق القوة والكل الناقص الذي ينبض بالحياة فـــوق الجزء الكامل معدومها • ليس من السهل أن نكون انسانيين ، ولكن الذين لهم الشجاعة على عدم التخلي عن انسانيتهم سيقوون غداً ، وفي جو أقـل عتمة ، على التطلع مرة أخرى الى قدسية الله •



البلاغة العربية ــ ٢

في الطريق الى تحديد المفهوم

الدكتور بدوي طبانه

وكذلك نقل الجاحظ في بيانه (٩٢/١) من صحيفة الهند في البلاغة أن اول اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ ، ولا يصفيها كل التصفية !

أما العرب فان أصل معنى « البلاغة » عندهم هو الوصول والانتهاء ، وهم يقولون : سرت حتى بلغت الغاية ، أي وصلت اليها وانتهيت ، وبلغ المكان بلوغا وصل اليه أو شارف عليه ..

ثم توسعوا في هذا المعنى ، فوصفوا بعض الناس بأنهم أبلغ من غيرهم في القول والبيان ، وقالوا ان الرجل البليغ هو الفصيح الذي يبلغ بعبارته كنه ضميره ..

ومن أقدم استعمالات « البلاغة » ما قيل ان معاوية بن أبي سفيان سأل صحار بن عياش العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ! فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء بالبسر والرطب أبصر منهم بالخطب ! فقال له صحار : أجل والله ! انا لنعلم أن الريح لتلقحه ، وان البرد ليعقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه !

وفي اعتراض ذلك الرجل على كلام صحار ما يدل على أن « البلاغة » عندهم هي « الخطابة » كما كان الأمر في أمة اليونان ، لأن سؤال معاوية كان عن مفهوم كلمة البلاغة ، وكان اعتراض المعترض على ادراكهم لمعنى « الخطابة » .. ومطابقة الجواب للسؤال تقتضي أن يكون مفهوم الخطابة داخلا في مفهوم البلاغة أو العكس .

وقال معاوية لصحار أيضا : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجز ، قال له معاوية : وما الايجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطىء ، وتقول فلا تخطىء ..

وقال المفضل بن محمد الضبي : قلت لأعرابي منا : م البلاغة ؟ قال لي : الايجاز في غير عجز ، والاطناب في غير خطل !.. قال ابن الأعرابي : فقلت للمفضل : ما الايجاز عندكم ؟ قال : تـرك الفضـول ، وتقريب البعيد .. وكذلك قال عبد الله بن المقفع : الايجاز هو البلاغة .

وأكثر هذه الأوصاف يتصل كما ترى بالتعبير ، ويختص بالصياغة والاسلوب ، ولكن بعض المفكرين في الفن الأدبي كانوا يتجهون بالبلاغة نحو الأفكار والمعاني ، ويتخيرون من تلك المعاني ما يلائم مذاهبهم أو عقائدهم أو تصورهم للحقائق ، كالذي رواه الجاحظ انه قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة ؟

قال : ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك !

قال السائل : ليس هذا أريد .

قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول !

قال : ليس هذا أريد !

قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انا معشر لأنبياء بكاء » أي : قليلو الكلام ، ومنه قيل « رجل بكيء » وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

قال السائل : ليس هذا أريد !

قال : كانوا يخافون من فتنة القول ، ومن سقطات الكلام ، ما لايخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت .

قال السائل : ليس هذا أريد !

قال عمرو : فكأنك انما تريد تخير اللفظ في حسن الافهام ؟!

قال : نعم !

قال : انك ان أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب !

★ ★ ★

هكذا كان كلام عمرو بن عبيد عن البلاغة ، أو هكذا كان تصوره لمعنى البلاغة . وكان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة ، كما كان أحد

الزهاد المذكورين ٠٠ البلاغة عنده في هذه الكلمات هي بلاغة التزهيد والاعتزال فيها ايثار الصمت على الكلام ، وفيها تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وفيها الموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ٠٠

وهذا حديث من يوجه الكلام نحو مذهبه ونزعته ، ويؤوله لخدمة اسلوبه في الحياة !

ولكن هذا التردد الطويل بين السائل والمجيب ، يقفنا على مفهوم البلاغة عند السائل والمسؤول ، بل في البيئة التي كان فيها ذلك الحوار العجيب ؛ فلقد كان السائل يعقب على كل جواب بقوله « ليس هذا أريد » حتى أحس المسؤول من نفسه حقيقة ما يرمي اليه السائل بسؤاله ، وهو المعنى الذي يفهمه الناس عن البلاغة ، وهو «تخير اللفظ في حسن الافهام» ٠

وسئل العتابي : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فان أردت اللسان الذي يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل في صورة الحق ! فقال السائل : قد عرفت الاعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هنساه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع مني ، واستمع الي ، وافهم عني ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟٠٠ فهذا كله وما أشبهه غي وفساد ٠

ويلتقي كلام العتابي هذا وكلام عمرو بن عبيد السابق في أن الافهام هو غاية البلغاء ، أي أن البليغ هو الذي يستطيع أن يفهم غيره ما يريد ، وان كان في كلام عمرو بن عبيد زيادة لها شأنها ولها اعتبارها في النظر الى الأدب ، وهي قوله « تخير اللفظ في حسن الافهام » فان الاشارة هنا الى اللفظ ووجوب تخيره انتباه الى قيمة التعبير في الأدب ، وان ذلك التخير مظهر من مظاهر الفنية فيه ٠

فليست غاية البلاغة أو غاية الأدب الافهام ، وليس كل من أفهمك حاجته بليغا ٠ ولذلك كان من الصواب ما عقب به الجاحظ في قوله ان العتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه ٠٠ فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون ، والمعرب ، كله سواء ، وكله بيانا ٠٠ ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ، ونحن لم نفهم عنه الا للنقص الذي فينا ، وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي ، وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم ، فنحن قد نفهم

بحمحمة الفرس كثيرا من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيرا من ارادته وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع .

ثم يقول الجاحظ بعد ذلك صحيح القول « وانما عنى العتابي افهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء (البيان ١/١٦٢) .

ومثل ذلك ما علق به أبو هلال العسكري على عبارة العتابي بأننا لو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا لأنه يفهمنا حاجته ، بل ويلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال ، لأن كل أحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته أو لكنته أو ايمائه أو اشارته . (الصناعتين ١١) .

على أن في كلام العتابي نفسه ما يدل على أنه كان يتكلم عن فن الخطابة ، وأن كلامه في البلاغة والبليغ ليس على اطلاقه ، فان فيه اشارة واضحة الى ذلك الفن في قوله « ويفوق كل خطيب .. » . وفيه دلالة أخرى على تأثره بمذهب السفسطائيين في الخطابة والجدل الذين كانوا يرمون فيها الى الغلبة والانتصار في المناظرة ، قبل أن يعنيهم كشف الحق وتوضيحه ، وذلك في قوله « تصوير الباطل في صورة الحق » !

* * *

وقد نلحظ التعميم في بعض استعمالاتهم للبلاغة ، وعدم قصرها على العبارة الصحيحة الجيدة الموضحة عن الأغراض والمقاصد .. فقد رأيناهم يطلقونها على كل اصابة تتاح للانسان ، سواء أكانت في القول ، أم كانت في الاستماع ، أم كانت في الصمت .

فكل توفيق يدل على الحكمة والحزم والعقل معدود عندهم من البلاغة ، وعلى هذا تكون البلاغة عندهم احدى الفضائل ، أو أحد المظاهر للفضائل النفسية ، ويبدو ذلك في وضع كل شيء موضعه وقد ذكر محمد بن علي ابن عبدالله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : « اني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله » . وقال اسحاق بن حسان : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل : ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ...

وفي « بلاغة السكوت » يقول أبو هلال ان السكوت يسمى بلاغة مجازا ، ويكون ذلك في حالة لا ينجع فيها القول ، ولا تنفع فيها اقامة الحجج ، اما عند جاهل لا يفهم الخطاب ، أو عند وضيع لا يرهب الجواب ،

أو ظالم سليط يحكم بالهوى ، ولا يرتدع بكلمة التقوى .. واذا كان الكلام يعرى من الخير أو يجلب الشر فالسكوت أولى ، كما قال أبو العتاهية :

ما كل نطق له جواب
جواب ما يكره السكوت

وقال معاوية لابن أوس : ابغ لي محدثا ، قال : أو تحتاج معي الى محدث ؟ قال : أستريح منه اليك ، ومنك اليه ، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك !

واطلاق « البلاغة » على مثل هذا الذي ذكر يجعلها قليلة الاتصال بالأدب أو بالفن الكلامي ، أو غير محصورة فيه ، لأنه في حقيقة أمره تعبير باللفظ أو بالخط . وانما يدخل هذا الكلام في باب الاصابة والسداد وحكمة القول والفعل ، ان كان في ذلك نفع أو خير لصاحبه أو لغيره من الناس ، فلا يتكلم الا اذا رأى مستمعا يصغي اليه ويقدر كلامه وينزله منزلته ، ثم رأى أنه من الضروري أن يعبر ويقول .

ويكون في هذا المعنى ما يوافق المعنى اللغوي للبلاغة الذي هو بلوغ الغاية ، والوصول الى ما يتطلع اليه الانسان في كل شيء ، أي يبلغ مايريد لنفسه ، وما تريد له الفضائل والمثل والآداب والعقول .

وادراك الغاية من الكلام أو الأدب لاشك أنه يدخل في ذلك المعنى العام ، لأن فيه بلوغا لغايات الكلام وأهدافه التي يرمي اليها المتكلم بكلامه ، والأديب بعبارته .

* * *

والذين عرضوا للبلاغة أو لوصف الكلام بها لم يفتهم التنبيه الى عنصري الأدب : اللفظ والمعنى ، والاشادة بجودة كل منهما ، وضرورة توافر هذه الجودة فيهما في الكلام المنظوم والكلام المنثور ، ففي صحيفة الهند أن من علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له لفقا ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا مضمنا (البيان ١/٩٣) وقال الجاحظ : اذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة (١/٨٥) ..

وفي صحيفة بشر بن المعتمر « من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما » .

وكذلك قسم ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) الشعر فجعله أربعة أضرب أولها وأجودها الضرب الذي حسن لفظه وجاد معناه ..

والمراد من فن الشعر عند ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) انما هو ابداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل اللطيف ٠

وهكذا رأينا أن الشكل في الفن الأدبي لا يقل أهمية عن المادة ، فان الشكل — كما يقول أحد كبار النقاد الغربيين — هو الذي يمكننا من الاجابة على السؤال الآتي : ما الوظيفة التي يؤديها الأدب ؟ لقد رأينا أن أصل كل تاليف أدبي هو تجربة مارسها المؤلف في حياته ، وقد تكون قصة سمعها ، أو خيالا أو وهما خطر في فكره ٠ ولكنها على كل حال يجب أن تكون تجربة قد ملكت عليه حسه ، وحملته على الكلام ٠ نعم ، قد لا يكون هنالك أمر غير مألوف في تجربة تضطر صاحبها الى الكلام ، ولكن يجب أن يكون في التجربة أمر غير مألوف اذا اضطر صاحبها لان يتكلم باتقان وبراعة ، وان ينقل تجربته الى فكر الآخرين ، أو بعبارة أخر يوصل هذه التجربة الى النفوس ، فلا بد لهذه التجربة أن تكون من الشدة بحيث تبعث في المؤلف القوة والنظام اللازمين لمجهود أدبي يستطيع أن يخرج بواسطة الألفاظ رمزا عن تجربته ، وهذه الرمز ينبغي أن يكون صادقا دقيقا بحيث يرضى به ضميره الفني تمام الرضا ٠ وما هو هذا الشعور الفني الذي لا بد من ارضائه ؟ هو بكل بساطة تلك التجربة نفسها ، تطلب من المؤلف عديلها اللفظي ، عديلها الذي لا يختلف عنها قيد شعرة ٠٠ والقاعدة في نظر ذلك الناقد أنه كلما عظم الالهام تطلب قوة فنية أعظم لكي تعبر عنه ٠ ويستطرد الى القول بان أكابر الأدباء من أمثال هوميروس ودانتي وشكسبير وملتن لم يستطيعوا أن ينقلوا الينا أعظم التجارب وأسماها الا لأنهم رزقوا أكبر مقدرة على التعبير اللغوي ، بالطبع كان لهم الهام عظيم ، غير أننا ما كنا لندرك هذا لو لم يكن كلامهم يضارع الهامهم عظمة ، وكلما كانت مادة تجاربهم أغنى وأغزر كانت مادة شعرهم أوفى وأبهر ، وذلك لما رزقوه من السلطان على اللغة ٠٠

ذلك ما تنبه له الخبراء بالفن الأدبي من العرب ، وذلك ما قرره غيرهم ، وخلاصة هذا الكلام أن البحث في الفن الأدبي انما ينشد القوة والجمال في هذين الركنين : اللفظ والمعنى ، أو المادة والشكل أو ، الاطار والمضمون ، أو الفكرة والصورة ، مع الاختلاف في التسميات ، والاتفاق على حقيقة المسمى ٠٠

(للبحث صلة)

الدكتور زكي مبارك في العراق

عبد الرزاق الهلالي

تحل في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني الذكرى الثانية عشرة لوفاة فقيد الادب والثقافة المغفور له الدكتور زكي مبارك طيب الله ثراه ، ووفاء منا لما قدمه هذا الاستاذ الجليل لابناء الضاد من خدمات مشكورة في دنيا الثقافة والادب ، واعترافا منا بالجميل الذي اسداه لوطنه الثاني (العراق) ابان عمله فيه استاذا للادب العربي في دار المعلمين العالية عام (١٩٣٧ـ١٩٣٨) يجدر بنا ان نحيي هذه الذكرى بالتحدث عن بعض الجوانب المشرقة من حياته في هذه الربوع ·

فقد شاء حسن حظ الادب في العراق ان يكون الدكتور زكي عبد السلام مبارك على رأس الاساتذة المصريين الذين انتدبوا للتدريس في معاهده العالية في تلك السنة اذ وصل بغداد في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٣٧ وما ان وطئت قدماه ثرى دار السلام حتى استقبلته اوساطها العلمية والادبية ببالغ الحفاوة والاكرام ، فقد عرفته عن طريق (مدامع العشاق) و (الاخلاق عند الغزالي) و (ابن ابي ربيعة وشعره) و(الموازنة بين الشعراء) و(البدائع) و(ذكريات باريس) و (النثر الفني) عرفته كاتبا يكاد يكون نسيج وحده بين كتاب عصره ، يمتاز كما يقول الاستاذ انور الجندي بمعالم اربعة هي الوضوح والصراحة والجرأة والعاطفية(١)·

وعرفته ناقدا عنيف النقد ، قوي العارضة ، عن طريق خصوماته ومعاركه الادبية التي شنها (في الصحف والمجلات العربية) على معظم قادة الفكر والادب في مصر · وقد كان مفروضا وهو يصل بغداد في بداية العام الدراسي ان ينصرف الى عمله كاستاذ للادب العربي في دار المعلمين العالية ، الا انه لم يشأ أن يقبع داخل نطاق التدريس لان مهمته (وهو الاديب الكبير) اكبر من ذلك بكثير وها هو ذا يحدثنا عن ذلك فيقول ··

« لقد ادركت ان لي مهمة تفوق العمل الذي انتدبت له وهو التدريس ، ادركت انه يجب أن اجاهد في السر والعلانية ، ونظرت فرأيت بغداد توحي

الى قلمي باشياء لم يلتفت اليها من قبل ، ورأيتني في حال أي أحوال تضيفني الى أرباب القلوب من أهل الاشراق » وتحقيقا لهذه الغاية أعد عدة الجهاد متخذا لتحقيق رسالته ميادين اربعة هي :ـ

اولا ـ ميدان التدريس في دار المعلمين العالية :ـ حيث اخذ على نفسه عهدا بشأن واجبه في هذا الميـدان يقول فيـه (ولن اترك هذه المدينة حتى اضع في صدور تلاميذي واصدقائي بذور الشوق الى الحياة العالية ، حياة المدنية الصحيحة التي تعشق الانوار وتبغض الظلمات[٢] .

ثانيا ـ ميدان المحاضرات العامة والندوات الخاصة :ـ حيث اتخذ من قاعة كليـة الحقوق ونادي المثنى ونادي المعـارف واجتمـاعات نـادي القلم العراقي ، المكان الذي يلقي فيه على عشاق الادب والثقافة محاضراته الادبية القيمة ويسمعهم احاديثه الثقافية الماتعة .

ثالثا ـ ميدان الصحف والمجلات العربيـة :ـ ففي فترة اقـامته في العراق راح يغذيها بثمرات شهية مما يبدع قلمه البارع فيخلق بما يكتب او ينشر على صفحاتها جوا ادبيا زاخرا بالحيوية والنشاط والابداع .

وآخر الميادين التي صال بها وجال هو الاذاعة العراقية ، اذ راح يحدث مستمعيه من أبناء العروبة في (الاسمار والاحاديث) عن شتى مناحي الحياة الادبية والاجتماعية في المجتمع العربي والاسلامي ، وليس غريبا بعد هذا ان نسمعه يصرح بأنه لم يعرف طعم الحياة في بغداد لانه قضى جميع لحظـاته والقلم في يده ، وأنفق من الحبر اضعاف ما انفق من الماء القراح ، واحصى ما كتب في هذه الفترة فاذا هو يزيد على خمسة آلاف صفحة !!

وفي خلال مدة بقائه في العراق (التي لم تزد عن تسعة اشهر) قـام بزيارة بعض المدن والحواضر العراقية الهامة . ويحدثنا عن اسباب زياراته لها فيقول (كنت اعرف ان ايامي قصيرة في العراق فتجشمت ما تجشمت لازور اشهر الحواضر العراقية فكانت فرصة عرفت فيها كيف يلتـاع من يفارق حواضر العراق ؟

يـا ليت ماء الفرات يخبرنا   اين استقلت بأهلهـا السفن

ولا يعلم الا الله كيف رحلت عن البصرة والحلة والنجف والموصل وكركوك وكربلاء .)[٣]

فما الذي انتجه هذا النشاط الجم والحيوية الخـارقة خـلال هـذه الاشهر القليلة ؟؟

لقد كانت حصيلة هذا الجهاد كما هو معروف (وحي بغداد) (ليلى المريضة في العراق) بأجزائه الثـلاثة و(عبقرية الشريف الرضي) بجزئين كبيرين .

ولقد سأله بعض السـائلين عن مدى ما صرفه من وقت وما تحمله من جهد وعناء في هذا السبيل فقال (لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأعددت

هذه المحاضرات وانشأت معها مقالات كثيرة جدا نشرتها في صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الادبية في بغداد رجا عنيفا ، فذلك كان أقل ما يجب ان اصنع في مقابل الثقة التي شرفتني بها حكومة العراق)٠

هذا هو الدكتور زكي مبارك رسول مصر الىالعراق وتلك هي ثمرات نشاطه الادبي خلال الاشهر التسعة التي قضاها فيه ٠

وحري بنا ، ونحن نحيي ذكراه ، ان نستخرج من بين تلك الآلاف الخمسة من الصفحات التي خطها يراعه السيال ، الصورة الحقيقية لهذا الكاتب العربي الكبير وان نتبين الملامح الواضحة التي تجلي لنا ما انطوت عليه نفسه العالية من اخلاص ووفاء للعراق واهله ، ومشاعره الصادقة من تفان واندفاع في سبيل العروبة والقومية العربية ٠

وسنحاول تلخيص الجانب الهام من هذه الملامح فيما يأتي :ـ

أولا ـ تنفس الادب في العراق :

وليس من باب المغالاة اذا ما اعتبرنا الفترة التي قضاها الدكتور زكي مبارك من اروع الفترات الادبية التي عاشها الادب في العراق ، وان العراقيين الذين عاصروا تلك الايام ليذكرون بكثير من الاعجاب والتقدير تلك الشخصية الفذة التي كانت بمثابة (الدايناموا) للحركة الادبية ليس في العراق فحسب بل في كثير من الاقطار العربية الشقيقة الاخرى ٠

ويحدثنا الدكتور نفسه عن هذه الفترة فيقول ٠٠

« انا ما قضيت عاما في بغداد ، وانما قضيت في بغداد لحظات ستكون ذخيرتي من الانس فيما بقي من حياتي ، وما عرفت معنى الحياة الا في بغداد ، فقد قضيت جميع تلك اللحظات بالقلم في يدي واستطعت ان اشغل طوائف من الجرائد والمجلات في مصر والعراق ولبنان !! » ٠

ولقد كان قدومه الى العراق كما قلنا مثارا لحركة ادبية طيبة اذ استقبلته الصحافة بأحسن القبول واحتفل الادباء والعلماء بتكريمه في بغداد والنجف واكرموه في البصرة والموصل وكتب عشرات بل مئات من المقالات في الحديث عن مذهبه في الادب والبيان ٠ ومن بين تلك المقالات مقالات اشتملت على هجوم عنيف عليه ولكنه لم يكن يرد عليها وفي ذلك يقول(٤) :

« واين الوقت الذي يسعفني بتصحيح ما يستحق التصحيح من مناوشات الادباء ٠ وانا مع ذلك واثق بنبوءة الشاعر الذي قال ٠٠

سيمسي خصومي بعد حين احبة ... يذيعون مشكورين اطيب انبائي

فالذين ينقدون مؤلفاتي في سائر الاقطار العربية سيصبحون من اصدقائها بعد زمن قليل لان فيها خصائص اصيلة من الصدق والصدق ينتصر ولو بعد حين»٠

حقا لقد انتصر الصدق وامسى خصومه احبة واخرجت المطابع عنه بعض الدراسات التحليلية الشاملة في السنوات الاخيرة وفاء لخدماته وتقديرا لجهوده في خدمة امته ولغته ٠

ثانيا ـ حبه لبغداد :

ويعتبر الدكتور زكي مبارك في مقدمة الكتاب العرب المعاصرين الذين احبوا بغداد واخلصوا لها الود والوفاء ، فقد ترك لنا في مؤلفاته التي اشرنا اليها صفحات تفيض بشتى احاسيس الحب ومشاعر الاخلاص لهذه المدينة العربية الخالدة ، ويكفي أن يكون كتابه (وحي بغداد) وهو كتاب كبير خير دليل على صدق هذه العواطف وأصالة تلك الاحاسيس ٠ وفي فاتحة هذا الكتاب يقول ٠٠

« اما بعد فقد كتب الله تباركت اسماؤه ان يجعلني من الموفين بالعهد فاخرجت كتاب (ذكريات باريس) تحية لمدينة النور التي اتصلت بها نحو خمس سنين واليوم اخرج كتاب (وحي بغداد) تحية لمدينة الرشيد التي اتصلت بها نحو تسعة اشهر قضيتها في يقظة عقلية اوحت الى قلمي الوف الصفحات » ثم يختتم كلمته هذه اذ يقول « هذا كتاب أوحته بغداد وفيه ما في بغداد من طغيان الرفق والعنف وصولة العقل والفتون ، هو كتاب سيرقم على وجه الدهر وجبين الزمان ، هو كتاب سيسعد به قوم ويشقى به آخرون ٠ ولكنه سيظل أثيرا لدي لانه من وحي بغداد ! » وقد سأله احد الادباء ذات يوم قائلا ٠٠ ان كثيرا من اهل بغداد يقولون ان في شخصيتك شيئا يوجب الحب فهل لك ان تدلنا على ذلك الشيء ؟ فأجاب قائلا ٠٠٠

اسألوا شاعركم العباس بن الاحنف الذي يقول ٠٠٠

« لو ان القلوب تجازى القلوب   لما كان يجفو حبيب حبيبا

فأنا احبكم يا أهل بغداد وليس من المستغرب ان تحبوني من حيث لا تعلمون سبب الحب !! وما ازعم اني احببت بغداد والعراق حب المدلهين ، وانما أذكر ان قلبي خفق خفقة كاد يطفر لها الدمع حين وقع بصري على دجلة أول مرة ٠ واذكر اني شربت ماء الفرات صرفا ، شربته ممزوجا بالطين فبدا لي اشهى من الرضاب المعسول !! ٠ » ثم يقول ٠٠

« وقد تفضلت الطبيعة العراقية فأتحفتني بأنفس ما تملكون وهو ليل بغداد ولن اترك لكم هذا الليل !! ولهذا الليل ايها السادة احاديث فقد عرفت كيف استطاع علماء العراق ان يملأوا الدنيا علما وادبا !! ليل بغداد هو الذي سيخلق زكي مبارك من جديد !

وما انكر ايها السادة اني عرفت فيما سلف ليلا اطول من ليل بغداد ، هو ليل باريس ! ولكن ليل باريس على طوله ٠ كان طيع الصباح بفضل

ما هنالك من ملاه وفتون ، امـا ليل بغداد فلا يعرف شيئا من ذلك هـو ليل العلم وسيبـويه والكسائي وا أسفاه من كبار العلماء !! »(٥) .

ولقد حفلت مؤلفاته التي انتجها خلال مدة اقامته في بغداد بكثير من امثال هذه الصور الادبية الزاخرة بالحب والوفـاء ، فقد كوته بغـداد وشفته في نفس الوقت وهو عن هاتين الحالتين يقول ..

« كوتنى هذه المدينة لانى عشت فيها محبوسا لا أدرى اين اذهب !! وكذلك عشت فيها أسير الهواجس والوساوس فلم انعم بغير الطيـف ، طيف الحب العذرى بين ليلى وظمياء !

وشفتنى بغداد لانى أنست بسواد الليل حين فاتنى الانس بسـواد العيون . »(٦) .

ومما تجدر الاشارة اليه بهذا الصدد ان الدكتور زكي مبارك (وهو الشاعر المعروف) لم يعط للشعر بهذا النشاط الجم نصيبا ملحوظـا لانه يقول ..

(قدمت بغداد وقد حقت علي لعنة المازنى فهجرت الشعر الى الابد وفى صدرى قصيدة هي اعظم ما نظمت في حياتى » فما هي هذه القصيدة ؟ وهل القاها في مكان ما بعد وصوله الى بغداد !!

انها قصيدة (من جحيم الظلم في القاهرة الى سعير الوجد في بغداد) القصيدة التى تعتبر بحق وحقيق من عيون الشعر العربى الرصين . وكان قد القى هذه القصيدة العامرة في الاجتماع الادبي الذى عقده (نادى القلم العراقى) في (الرستمية) احدى ضـواحى بغداد قبيل رحيلـه عن العراق والتى مطلعها .

وفدت على بغداد والقلب موجع ... فهل فرجت كربى وهل أبرأت دائى

ويقول فيها ...

أحبـاى فى مصر تعالوا فاتنى ... أودع فى بغداد أنسى وسرائى
تعالوا أعينونى على السهد والضنى ... فلم يبق منى غير أطياف أشلاء

ويختم هذه القصيدة قائلا ..

أبغـداد هـذا آخر العهد فاذكري ... مدامـع مفطـور على الحب بكـاء
خلعت على الدنيـا جمالك فانثنت ... تخـايل فـى طيب وحسـن ولألاء
سيذكـرنى قوم لديـك عهدتهـم ... يحبون ظلاميـن ضـرى وايـذائى
سـتذكر أرجاء الغـرانين شـاعرا ... تفجـر عن مكنونة الدر عصمـاء
سيسأل قـوم عـن زكـى مبـارك ... وجسمى مدفـون بصحراء صمـاء
فان سألوا عني ففي مصر مرقدي ... وفوق ثرى بغـداد تمرح اهوائى

وأخيرا فقد قال وهو يودع أهل بغداد :

« عشت بينكم محروما يا اهل بغداد وسأفـارقكم وانـا محـروم ،

فاذكروني بالشعر يوم أموت وما أريد شعر القوافي ، وانما أريد شعر الارواح ، وانا اليوم اتوجع كلما تذكرت اني ساُفارق بغداد بعد اسابيع .. انا اشرق بدموعي كلما خطر بالبال اني سأرحل عن بغداد !! » .

وبعد فها نحن اولاء نحيي ذكراه بعد مرور ربع قرن على نظمه تلك القصيدة العصماء ، ونشره تلك الصور التي اعرب فيها عن حبه لهذه المدينة العريقة الخالدة ، لقد ذكرناه كما تنبأ شاعرا تفجر عن مكنونة الدر ، وقد وافته المنية بعد اربع عشرة سنة من رحيله عن بغداد ويصح لنا أن نردد قوله ..

فان سألوا عني ففي مصر مرقدي وفوق ثرى بغداد تمرح اهوائي

حقا ان اهوائه ومشاعره واحاسيسه الصادقة لا تزال تمرح فوق ثرى بغداد !!

ثالثا ــ خلة الوفاء للعراق :

ولا يعرف اديب مصري او غير مصري ظهرت فيه خلة الوفاء للعراق على الصورة التي بدا فيها (فتى سنتريس) على الرغم من قصر المدة التي قضاها في هذه الربوع والمتاعب التي احاطت به من كل جانب آنذاك ، وقد اثار هذا الوفاء الصادق عجب كثير من الناس واستغرابهم فاذا هو نفسه يوضح لنا ولهم سبب ذلك فيقول ..

« وقد عجب ناس من وفائي لاهل العراق واهتمامي بتسجيل ما لهم من محامد ومناقب ، وكنت استطيع ان اقول اني عشت في العراق معلما ، ومن واجب المعلم ان يبرز المحاسن ليقوى الروح المعنوي في تلاميذه ويسوقهم الى ميادين الجهاد . كنت استطيع ان اقول ذلك ولكنني في الواقع لم أر من اهل العراق غير الشهامة والنبل والوفاء ، ويسرني ويشرح صدري ان اقول كلمة الحق في تحية من يعيشون في أنس بزهرات بغداد ، ونخلات البصرة ، وسمكات الفرات ! وسيأتي يوم يعذرني فيه من أتهموني بالاسراف في حب البلاد التي عرفت بكاء الحمائم في ظلام الليل ! سيعرف أخواني في مصر اني بنيت لهم صرحا من الوداد في وطن نبيل هو العراق !! » .

وليس عجيبا على مثل الدكتور زكي مبارك ان يقف هذا الموقف النبيل من العراق العربي ويغرق في الاعراب عن حبه ووفائه له ولابنائه الى هذا الحد ، فالعربي من اي بلد جاء لا يشعر فيه بالغربة ولا يحس بالفراق ، فقد أقام فيه نحوا من تسعة اشهر وخرج بعد ذلك يقول .. « وحييت بينهم حياة لا تكلف فيها ولا تصنع كما كنت احيا في بلادي واشتركت في كثير من المجادلات والمشاغبات فكان لي من ذلك كله فرص ثمينة اعرف بها حقائق العواطف عند اولئك الرجال . وقد صح عندي بالخبرة واليقين انهم اصدقاء اوفياء يرعون العهد ويحفظون الجميل » .

رحم الله زكي مبارك واكرم مثواه فقد احب العراق وغالى في هـذا الحب واخلص له الوفاء فلا عجب اذا ما سمعناه يدعو للعراق دعاء لا تكلف فيه ولا رياء اذ يقول ..

« رباه انا احب العراق فاجعلني طول حياتي من المجاهدين في سبيل العراق واحشرني يوم الحساب مع اهل العراق !! » .

« رباه ان العراقيين رعوني واكرموني فأجعلهـم في الدنيا والآخـرة سعداء » .

رابعا ـ ايمان صادق بالعرب والعروبة :

وان من يقرأ ما جاء في صفحات كتبـه التي انتجتهـا فترة عمله في العراق يلمس صدق مشاعر الدكتور زكي مبارك نحو امته العربية ويحس بايمانه الصادق بالعروبة ويقف على دعواته الخالصة بقيام الوحدة العربية . ان من يقرأ كل هذا يستطيع ان يقول بأن الدكتور زكي مبارك رحمه الله في الرعيل الاول من الكتاب الذين آمنوا برسالة الامة العربية ودعوا الى وحدتها وجندوا اقلامهم في سبيل الدفاع عنها ورد كيد اعدائهم ومفرقـي صفوف ابنائها الى نحورهم ! ويرى بعض الكتاب ان رحلة الدكتور زكي مبارك الى العراق تعتبر رأس مرحلة جديدة في حيـاته لانهـا اتـاحت له الفرصة ليزداد ايمانا بالعروبة[7] وهذا الرأي يعطينا صورة واضحة عن اثر العراق العربي في صقل المواهب وتوجيههـا الى مـا فيه خير العرب والعروبة اجمعين . وكان رحمه الله يرى بثاقب فكره وبصيرته ان التقارب بين القاهرة وبغداد هو الاساس الذي ترتكز اليه الوحـدة بين الاقطـار العربية ففي حديث له عن الحياة الادبية في العراق[8] ، قال مخاطبا ادباء العراق « .. الى اللقاء يا أدباء العراق في ميادين النضـال بين القـاهرة وبغداد ! الى اللقاء القريب يوم تصبح الاقطار العربية أمة واحدة متجانسة تجانسا تاما في العواطف والمقاصد والاغراض ! الى اللقاء القريب يوم ترفع الحواجز التي خلقتها الاوضاع السياسية فلا يحتاج الرجل الى جواز سفر حين ينتقل من العراق الى مصر أو من مصر الى العراق !

الى اللقاء القريب يوم تصبح الاخوة العربية اقوى وامنع من ان تكدرها وشايات الواشين ونمائم النمامين ! ، الى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربي جسما واحدا اذا تألم منه عضو توجع له سائر الاعضاء .

الى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليميـة والاجتمـاعية والاقتصادية ، يوم لا تكون الفوارق الجغرافيـة الا نعمة ندرك بهـا كيف شاء الله ان ينوع الخيرات والبركات !! وهذا حلـم قد لا يتحقق ونحـن احياء ولكن يشرفنا ان نكون من اوائل الهاتفين بهذا الحلم الجميل !! » .

حقا لقد كانت هذه الاقوال حلما جميلا ، وكان رحمه الله من اوائل الهاتفين بها في ذلك الوقت وليت الله مد في عمره الى يومنا هذا ليرى هذا

الحلم الجميل يسير في طريق التحقيق بخطوات واسعة الى الامام !!.

وحين تحدث عن (عروبة مصر) في نادى المثنى في بغداد قال في معرض الرد على المشككين بعروبتها ..

« ايها السادة انا عربي اولا ، ومصرى ثانيا . ولو شئت لقلت ان أبى من أصل عربى صريح ، واهل سنتريس يعرفون ذلك ، فالمصريون عرب فى اقوالهم وافعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم وادعو الله عز شأنه ان يجعل مصر ابد الدهر من املاك اللغة العربية لغة القرآن» ثم يقول ..

« ايها السادة اسمحوا لى ان أقول بصراحة ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا ناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين ، والعراق لحسن الحظ منزه عن هذه الاهواء !» .

« ايها السادة ان العروبة فى مصر بخير وعافية لا يعوزها الا شيء واحد هو ان يثق بها ابناء الامم العربية ولاسيما اهل العراق ، رعى الله مصرا ورعى العروبة وحفظ العراق ...

آمين آمين لا ارضى بواحدة   حتى اضيف اليها ألف آمينا !!

وبعد هذا نجد ان الدكتور مبارك تفتق ذهنه المبدع عن كثير من الآراء والنظرات التى يهدف بها الى زيادة التقارب بين ابناء الامة العربية وتقوية اواصر التفاهم فيما بينهم فمن تلك الآراء قوله ..

« ولو كان بيدى شيء من الامر لفرضت ان لا يعين فى مصر وزير للخارجية الا بعد ان يثبت انه رجل زار الاقطار العربية وعرف ما يجب ان يقوم بيننا وبين تلك الاقطار من صروح المحبة والوداد . ومستقبل مصر بين الامم العربية مرهون بفهم هذه الحقائق ، وظفر مصر بمحبة الامم العربية هو فى ذاته مغنم عظيم لا يزهد فيه الا غافل جهول !!» .

وهكذا ظل الدكتور زكي مبارك فى مقدمة العاملين لنشر الوعي القومي وقد قدر (نادى المثنى) فيه هذه العواطف القومية الصادقة فبعث اليه بتاريخ ٢١ شباط ١٩٣٩ وهو فى القاهرة بهذا الكتاب .

سعادة الاستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك المحترم

« حى العرب

ان العواطف الصادقة التى ابديتموها فى مناسبات عديدة للقومية العربية والعمل المتواصل لخدمة هذه الامة النبيلة والخدمات المبرورة للغتها قد أسرت كل عربى من اى قطر كان !

ولما كان نادى المثنى فى بغداد يرحب ويفتخر بالعاملين فى حقل القضية العربية فقد سرته جهودكم المشكورة بنوع خاص ، ولذا فقد قررت الهيئة قبول سعادتكم عضو شرف فى النادى تقديرا لروحكم العربي الفياض وخدماتكم القومية الجليلة . ويسرها ان تهدي اليكم شارتها الخاصة المرسلة

اليكم في بريد اليوم • وهي على ثقة ان جهودكم سوف تكون اعم واوسع في المستقبل ولتحي العروبة »•

« كاتم السر »

خامسا ـ الدعوة لانشاء الجامعة العرقية :

واعترافا بالحقيقة والواقع يمكن اعتبار الدكتور زكي مبارك اول الكتاب الذين بذلوا كل ما عندهم من قوة وجهد في سبيل الدعوة لانشاء الجامعة العراقية ، فقد راح يبشر بفكرته هذه منذ وصوله الى بغداد ، ففي الحفلة التكريمية التي اقيمت على شرفه قال ••

« ايها السادة ، هل لكم ان تسمحوا لي بالترويح عن نفسي ؟ لابد للمصدور ان ينفث ولي امل عزيز اخشى ان يخيب • لقد رحلت عن مصر وانا مصمم على الاستبسال في الدعوة الى انشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم اجد من يشجعني على تحقيق ذلك الامل النبيل ، وصارحني بعض الرجال بما يعترض انشاء الجامعة من عراقيل ، فأنا انتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية واصافح بيمناي أنصارها الاوفياء ، وادعوكم الى الكتابة عن هذه الامنية في كل يوم ، والكلام عنها في كل مجتمع ، والالحاح بها على جميع الوزراء ، واعلموا ان من العار ان تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الافواه في جامعات الشرق والغرب •» ثم يخاطب الصحفيين الذين يكرمونه قائلا •••

« ايها السادة الزملاء كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى ارد لكم هذا الدين النبيل ؟ سأرده يوم يتقرر بفضل مسعاكم انشاء الجامعة العراقية ، ويومئذ لا اكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى واكواب الشاي ، وانما اعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل !» ولم يكتف بهذه المحاولة بل راح يضاعف من نشاطه من اجل تحقيق هذه الغاية النبيلة فها هو ذا يقول في خطاب آخر •••

« لقد آن للمفكرين ان يسألوا انفسهم عما صنعوا في سبيل الجامعة العراقية فاني اخشى ان يطول امد ـ التريث والتسويف فتمر اعوام واعوام قبل ان يتحقق هذا المشروع الجليل ! » وبعد ان يرد على اقوال معارضي فكرته ، يدعو الى فتح اكتتاب شعبي لاقامة الجامعة وخاطب الصحفيين قائلا ••

« ايها الزملاء ادعوكم الى المبادرة لمناصرة هذا المشروع الجليل واتشرف بتقديم خمسة دنانير تكون فاتحة مباركة انشاء الله لقوائم الاكتتاب »
« ايها الزملاء ان العراق يفيض بالشعر ولكن هناك قصيدة نحب ان نسمعها في العراق قصيدة كالتي سمعها اهل مصر منذ اكثر من ثلاثين عاما ، حين تقدمت الاميرة فاطمة هانم اسماعيل فخلعت جميع حليها وقدمتها هدية لبناء

الجامعة المصرية ، ومن المؤكد انكم ستجدون في العراق قصائد من هذا النوع ستجدون نبيلات يقدمن حليهن لبناء الجامعة العراقية وستجدون من اعيان الالوية رجالا كراما يزينون صدر بغداد بدار عظيمة تكون ملاذ العقول في عاصمة الرشيد » .

وعند اجابته على الاسئلة الادبية التى وجهتها اليه جريدة الهدف جعل (انشاء الجامعة العراقية) من الوسائل التى تعين على تقوية النهضة الادبية في العراق(٩) . اذ قال ..

« اما الوسيلة الثالثة فهى انشاء الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية

الجامعة العراقية

الجامعة العراقية

ولو شئت لرددت اسمها ألف مرة وستعرفون ما اصنع بعد ان ارحل عن العراق : فسأكتب في جرائد مصر ان العراقيين لا يرعون حقوق بغداد. سأغتابكم باذن الله اعنف اغتياب ، وسأقول ان العراقيين يؤجلون انشاء الجامعة الى ان يقضوا على الامية !!»

ثم يقول « وهذه اول مرة القى فيها سهمى واطوى لوائى فالى شبان العراق وكهوله والى ادبائه ونوابه واعيانه اليهم جميعا كل هذه الامانة الغالية وهي فكرة الجامعة العراقية ويجب ان تحترسوا فسيقول قوم ان اهل العراق ينسون حقوق بغداد وسأنظر وينظر العالم ما تصنعون ! » ولما رحل الى مصر بعد انتهاء مدته في العراق لم ينس ما اخذ على نفسه من عهد فقد كتب عن ذلك قائلا ...

« وسنسمع قريبا ان حكومة العراق قررت انشاء (الجامعة العراقية) وهو حلم جميل دعوت اليه مرات ومرات وسيحقق باذن الله فما يمكن ان تعيش بغداد بلا جامعة وهي التى اذاعت علوم المعقول والمنقول في المشرقين واليها يرجع اكثر الفضل في نشر علوم اللغة والدين ».

وهكذا ظل صوته رحمه الله مرتفعا في الدعوة للاسراع بانشاء الجامعة العراقية ولكن ما من مجيب حتى اذا مرت ثماني سنوات على تلك الدعوة اصدر مجلس الوزراء العراقى اول قرار بتأسيس الجامعة ولكنها لم تقم فعلا الا في عام ١٩٥٦ عندما تم تشريع قانون (جامعة بغداد) فتحقق بذلك الحلم الجميل الذى طالما دعا الى تحقيقه هذا الكاتب العربى الفذ !

هذه هى اجلى الملامح التى اتسمت بها شخصية المغفور له الدكتور زكي مبارك ابان عمله في العراق وهي على كل حال غيض من فيض فلا عجب ان يقول فيه (البناء) .

يا بن العروبة فذها ونصيرها ارضيست فى انتاجك الاجدادا
ووجدت منا في وجودك بيننا حبا زكيا خالصا ووداد
شرفت بغداد العلا وكأنما مصر العلا قد شرفت بغدادا
سيان مصر والعراق على الذي يرجو لعنصر قومه الاسعادا
يا نيل صافحت الفرات ودجلة وجريت فى ارض العراق تهادى
اليوم نبتك فى العراق محبب هيهات يشكو وحشة وبعادا
انزل على اسم الله يا ابن (مبارك) الاهل اهلك مبدأ ومعادا

زكي مبارك وادباء العراق :

وقد لقي الدكتور زكي مبارك اثناء اقامته في العراق كل تقدير واحترام ليس من الادباء والمثقفين وحدهم فحسب بل من جميع طبقات الشعب الذين قرأوا ما كتب من مقالات او استمعوا الى ما اذاع من احاديث وقد لمس بنفسه هذا الشعور خلال مدة بقائه في بغداد او اثناء زياراته التي قام بها لبعض الحواضر العراقية ، ويعتبر الدكتور زكي مبارك من الكتاب المحظوظين القلائل الذين كرمهم ادباء العراق واجمعوا على تقدير ما لهم من فضل وادب قبل ان يفارقوا هذه الدنيا الفانية ، فقد شهد رحمه الله حفلات التكريم يقيمها له الادباء فى بغداد والنجف الاشرف والبصرة والموصل ، ذاكرين بكل اعجاب وتقدير آثاره الادبية القيمة ومواقفه القومية الرائعة مشيدين بما أحدث من نشاط في دنيا الثقافة والادب ، لقد ذكرته ارجاء الفراتين ليس شاعرا كما قال فحسب بل ذكرته كاتبا عبقريا واديبا بارعا ملأ الدنيا وشغل الناس !

وقد جمع رحمه الله بعض ما قيل في تكريمه من شعر ونثر ونشره في آخر الجزء الثالث من كتابه (ليلى المريضة في العراق) تحت عنوان (عواطف عراقية) قال عنها « فما انشره اليوم هو الذى وجدته بعد البحث في زوايا بيتي وهو اوراق من فوقها اوراق والوصول الى ما اطلب من تلك الاوراق يكلفني من العناء ما لا اطيق ، فان رأى من كرموني في العراق انني سجلت اشياء وتركت اشياء فليعرفوا هذا العذر المقبول » .

وقد ساهم في هذه الحفلات عدد كبير من الادباء والصحفيين والمثقفين في العراق آنذاك في مقدمتهم الشيخ محمد رضا الشبيبي والاستاذ طه الراوى وابراهيم حلمي العمر ورفائيل بطي ومحمود فهمي درويش وعبدالرحمن البناء وابراهيم ادهم الزهاوي وانور شاوءل وغيرهم فقالوا فيه وفي ادبه وبيانه احسن القول واصدق الاحاسيس .

وقد رغب الشاعر الكبير الاستاذ معروف الرصافي فى تكريم صديقه عن بعد (لانه كان مقيما آنذاك في الفلوجة) فارسل اليه القصيدة التالية اعرابا عن تقديره ومحبته حيث قال .

اذا أطرى الانام فتى اديبــا ... فــلابن مبــارك ادب غــزيــر
وعلــم لا اشبهــه ببحــر ... فقد نضبــت بجــانبه البحــور
لقيــت بــه اخــا ادب وعلــم ... لــه شبــه وليس لــه نظيــر
زكــا نفســا فقيــل لــه زكى ... وبــورك فالمبــارك فيــه خيــر
يعــج يراعــه في الطرس ليــلا ... يشق دجــاه صبح مستنيــر
اقــام (بنشره الفنى) جسـرا ... لمن فــي الفن اعجـزه العبور
جلا بذكائـه سدف المعــانى ... كــأن ذكــاءه للفهــم نــور
وخــاض عباب بحــر من بيان ... تحــوم عليــه من بــدع نسور
اذا قــرع المنابر يوم حفــل ... رأيــت النــاس من فرح تمور
اصــاخوا نحــوه وقد اشرأبوا ... اكفهــم تصفــق او تشيــر
اذا افتخرت به مصر وتــاهت ... فكــل بنى العراق بــه فخور

اما الرابطة العلمية الادبية فى النجف الاشرف فقد احتفلت به اجمل احتفال ورحب به عميدها الشيخ محمد على اليعقوبى واعضاؤهـا الاســاتذة محمود الحبوبي وصالح الجعفرى ومحمد جمال الهاشمي وعبدالمنعم الفرطوسي بالكلمات الطيبة والقصائد العامرة ٠

ففى قصيدته التى انشدها الشيخ محمد على اليعقوبى والتى مطلعها

ضيف على وادى الغرى كريم ... أنى يقوم بحقــه التكــريم

قال مخاطبا اياه ٠٠٠

أمنسق الكلــم البديــع كأنــه ... در بأجيــاد الحســان نظيــم
ومجــدد الآداب وهي دوائــر ... تبكــي لهن معــاهد ورســوم
فلتشكرن لك الصنــائع اهلهــا ... ان الصنائع شكرهــا محتــوم
ولئن خصصت من النهى بمواهب ... شتى ففضلك فى الانام عميم
ما خاض فرسان البلاغة غمرة ... الا وأنــت مقــدم وزعيــم
قد برهن القلــم الذى أجريتــه ... ان الاسنــة حقهــا التحطيــم
وأراك قد كثرت خصومك والفتى ... من كان حســاد له وخصــوم
ما ضر فضلك ناقــد او جاهد ... فلطالمــا جحد الجميــل لئيــم

اما الاستاذ السيد محمود الحبوبى سكرتير الجمعية فقد وقف ينشد قصيدته التى مطلعها ٠

أهلا بمــن وعد الوصال وقد وفى ... وابى زكــي نجــاره ان يخلفــا

ثم قال

هذا العراق اذا احتفى بك انمــا ... بالعلم والادب الرفيع قــد احتفى
وافيتــه فتطــاولت مــا بينهــا ... اعنــاق اهليــه اليــك تشــوقا
وحللتــه فحللــت اكــرم منــزل ... للقــائه قدمــا فؤادك قد هفــا

طابت مغارسه ومما اثمرت ... مر الحفاظ بجنبه حلو الوفا
وشفيت ليلاه المريضة بعدما ... كانت من الداء العياء على شفا
واتيته (بالعبقرية) فذة ... فأتى لها متشوقا متلهفا
و (بدائع) تأبى بداعتها لها ... بسوى السلاف لطافة ان توصفا
و (مدامع العشاق) تشهد انها ... لولاك لم تر للدموع مكفكفا
رب اليراعة ما احب لقاريء ... ما نمقته وما ادق والطفا

سفير العروبة المصرية في العراق :

وأخيرا فقد كان زكي مبارك سفير العروبة المصرية في العراق كما وصفته جرائد لبنان غير ان مهمة هذا السفير الخطير لم يكتب لها الاستمرار اكثر من تسعة اشهر ، لا لانه لم يكن يرغب بالبقاء في العراق مدة اطول ولكنه اضطر مكرها الى مغادرة العراق لطبع كتاب (التصوف الاسلامي) الذي نال به شهادة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصريةوفي جوابه الذي ارسله الى الدكتور متى عقراوي عميد دار المعلمين العالية قال ...

« واؤكد لك أيها الزميل الكريم اني أشعر شعورا صادقا بأني مقبل على تضحية خطيرة في سبيل ذلك الكتاب هي الحرمان من الجو الادبي الذي تنسمت هواءه في صحبتكم وصحبة الزملاء الاماجد الذين أحاطوني بأشرف معاني الوداد » .

ثم يقول ...

« وأما تلاميذي فليس بيني وبينهم ما يوجب العتاب فقد قدمت اليهم جميع ما أملك من المعارف الادبية والعلمية والفلسفية ، وسيصيرون باذن الله من أشرف خدام العراق . وان كان فيهم من يعتب أو يلوم لاني أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين ان الرجل لايذوق معنى السعادة الا باقذاء العينين تحت ضوء المصباح ! ذلك اعتذاري اقدمه اليك أيها الزميل الكريم وليتك تعرف كيف أفارق بلدا يكون فيه وزير المعارف شاعراً مثل معالي الاستاذ محمد رضا الشبيبي ويكون فيه مدير المعارف أديباً مثل سعادة الاستاذ طه الراوي » .

وقد سرى نبأ رغبته بعدم العودة الى العراق ثانية بين أصدقائه ومحبيه فاسفوا على ذلك أشد الاسف وقد حاول الاستاذ طه الراوي استرضاءه والتخفيف عن كاهله عندما قال له :

« تستطيع أن نعفيك من الدروس ان كانت أتعبتك ويكفي أن تقيم في بغداد لانك أحدثت موجة في العراق ، وقد استقدمنا الاستاذ الثعالبي قبل ذلك لمثل هذا الغرض » وقال له صديقه الشيخ محمد باقر الشبيبي « ان انقطاعك عن العمل في بغداد خسارة عظيمة للعراق !! » ومع هذا فقد

كان عليه أن يرحل عن بغداد وينهي سفارته فيها ، ولذلك قال وهو يزمع على الرحيل « وبهذه المناسبة اوجه أصدق الثناء لمن عز عليهم أن احرم من هواء بغداد في العام المقبل . ولا يعزيني عن فراقهم الا يقيني بأن بغداد ستكون في أكرم المنازل من قلبي وسأذكر أني احتملت مشاق السفر لأرى قبر أبي تمام في الموصل ولاهيء نفسي لتأليف كتاب عن عبقرية الشاعر الذي أعز دولة الشعر في القرن الثالث .

فان ترفقت شواغلي في مصر وسمح أطفالي بالرجوع الى بغداد فسأقيم موسما ثانيا للشاعر الجميل الذى اسمه حبيب وان كان هذا آخر العهد بتنسم هواء بغداد فاني أوكد لكم بأنني سأقصر جهودي وأنا بمصر على الاهتمام بالآثار الادبية لأهل العراق وسيكون شعاري قول جميل في خطاب بثينة ...

فان كنت لما تعلمي العلم فاسألي	وبعض الرجال للرجسال رموق
سلي هل قلاني من خليل صحبته	وهل ذم رحلي في الرفاق رفيق
وهل يحتوي القوم الكرام صحابتي	اذا اغبر مخشي الفجاج عميق ؟

والسلام عليكم وعلى العراق ورحمة الله !! »

وهكذا وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٣٨ ودعت بغداد (سفير العروبة المصرية في العراق) بلسان الشكر والتقدير وبالدعاء له بسلامة العودة الى بلده الشيق وهي تردد ما قاله الشاعر الشيخ عبدالمنعم الفرطوسي فيه :

يا نجل مصر ومن في كل مطرد	اليه ينسب كأس السبق والغلب
هذا العراق الى مصر تحيته	تزف محفوفة بالشوق والعتب
فقل لمصر بما يطوى العراق ثقي	في صبوة بسوى الاخلاص لم تشب
ما فرقت بيننا للاجنبي يد	لو كان قد جمعتنا وحدة العرب

هناك في ارض الكنانة ظل الدكتور زكي مبارك محبا للعراق وبات عند ذاك (سفير العروبة العراقية في مصر) حتى وافاه الاجل المحتوم (أثر عملية جراحية) في اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٥٢ وله من العمر (ستون عاما) فكانت وفاته خسارة كبيرة فقد كان رحمه الله (كما يقول الاستاذ محمد عبدالقادر حمزة (باشا) « كنزا من كنوز الادب العربي لا أظن ان مصر سترى له مثيلا بعد عشرات السنين . كان هدية القرية المصرية الى الجامعة الازهرية ثم الى السوربون ثم الى الجامعة المصرية - خلة الوفاء ظهرت في زيارته للعراق وبلغت أرقى صورها اذ كان الفقيد الكريم قطعة من النبوغ المصري والوفاء لم يلبث أن جعل له ولبلاده في العراق نباهة الذكر وبعد الصيت ما لا أظن أن العراقيين سينسونه أبداً ، فلما عاد الى مصر ظل اسم العراق لا يغادر قلمه حتى مات »(١٠) .

وأخيرا فهذا هو زكي مبارك وتلك هي أيامه التي قضاها في العراق ، عرضنا ألمع صفحاتها على القاريء الكريم ليذكر معنا ذلك الاستاذ الكبير الذي أحب العراق وأخلص له الود والوفاء وعسانا ونحن نحيي ذكراه قد حققنا أمنية غالية من أمانيه تلك التي يقول فيها « سأفارقكم (ياأهل بغداد) وانا محروم فاذكروني بالشعر يوم أموت وما أريد شعر القوافي وانما أريد شعر الارواح » ! وعسى أن يكون فيما سجلناه بهذه الصفحات عن حياته في العراق هو (شـــعر الارواح) الذي يريد ! رحمه الله برحمته ، رحمة واسعة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر انه ارحم الراحمين ٠



(١) زكي مبارك بقلم أنور الجندي ص ٧٢ ٠
(٢) وحي بغداد ص١٨
(٣) وحي بغداد ص٧
(٤) ليلى المريضة في العراق ج٣
(٥) وحي بغداد ص ٧٠
(٦) وحي بغداد ص ٣٨٦
(٧) زكي مبارك ـ للاستاذ انور الجندي ص ٤٠
(٨) وحي بغداد ـ ص ٢٩٠
(٩) وحي بغداد ـ ص ٢١٣
(١٠) زكي مبارك ـ أنور الجندي ص ١٨٥

مفهوم التطبيق الاشتراكي

الدكتور ياسين خليل

يتصل التطبيق الاشتراكي بالفكر الاشتراكي أو النظرية الاشتراكية التي تتبناها الدولة أو المجتمع أو المؤسسات وتسعى الى تحقيقها واخراج مبادئها الفكرية من الاطار النظري الى الحقل التطبيقي العملي لتكفل بذلك تحقيق الاهداف الاقتصادية والاجتماعية بشكل يخدم المجموع في حياته . والتطبيق الاشتراكي – في حقيقة الامر – تحقيق لمبادىء الفكر الاشتراكي وتنفيذها ، وذلك بالاعتماد على دراسة علمية واضحة للمجتمع الذي تتم فيه عملية التنفيذ والعمل . ومن هذا المنطلق تظهر لنا أهمية التطبيق الاشتراكي وفعاليته بالنسبة للاشتراكية ، لان هذا الترابط بمثابة العلاقة بين الفكر والتجربة التطبيقية ، ومقياس صلاحية الفكر في المجتمع ، وصورة تفاعل النظرية والتطبيق . وعلى هذا الاساس يجب أن يكون بين الفكر الاشتراكي والواقع الاجتماعي تجاوب وتفاعل لكي تستطيع الدولة أن تنقل المجتمع من وضعيته القديمة الى وضعية جديدة . أما اذا كان الفكر بعيدا عن الواقع أو التجربة التي يجب أن يتفاعل معها ، فان التطبيق لا يحقق النتائج المتوخاة ، بل لا تستطيع الدولة اخراج الفكر الى حيز التطبيق والعمل .

فالنظرية التي تكون خالية من التطبيق أو لا يمكن تطبيقها ما هي الا فكر خيالي مؤلف من مجموعة أفكار ومبادىء ومفاهيم لا تصلح للعمل في حقل الواقع الاجتماعي . ان مصدر اخفاق النظرية الاشتراكية في التطبيق يتأتى من :

١ – عدم استقاء مبادىء النظرية ومفاهيمها من الواقع الاجتماعي ، ونقصد بذلك أن المخطط الفكري للنظرية لم يعتمد على دراسة علمية دقيقة لعوامل البناء الاجتماعي والحركة الاجتماعية في المجتمع الذي تقوم فيه عملية التطبيق . ان الهدف من التطبيق الاشتراكي يتجلى في تكوين علاقات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية جديدة تساهم مساهمة فعالة في تكوين البناء الاجتماعي الجديد . واذا لم تعتمد النظرية على دراسة موضوعية للمجتمع ، فان عملية تحويل البنية الاجتماعية لا يمكن أن تتم نتيجة لحدوث تناقضات وتخلخل ومصادمات تؤدي الى القضاء على هدف التطبيق .

٢ ـ استعمال فكر لا يمت لواقع المجتمع بصلة ، لانه نتاج او حصيلة تجارب اجتماعية لامم أخرى تختلف مقوماتها وطرق حياتها عن واقع المجتمع الذي يقع عليه التطبيق • فاذا استخدمنا فكراً غريبا لتفسير حركية المجتمع وأسباب تناقضاته ، فان النتائج التي سوف نحصل عليها تكون غير صحيحة ، وان استخدام مثل هذا الفكر في التطبيق من شأنه أن يجر المجتمع الى مشكلات تقضي على أهدافه • يضاف الى ذلك ما يصيب أفراد المجتمع من هذا الفكر ، فيظهر الصراع الفكري والعقائدي ويدب الشك في تراث الامة وحركتها ومعتقداتها ، وبذلك يفقد المجتمع توازنه وتصبح مشكلته الرئيسة هي كيف نستطيع أن نعيد المجتمع الى حالته المستقرة •

٣ ـ تطبيق الفكر عمليا على دفعة واحدة ، وذلك في حالة استقاء الفكر من المجتمع • وفي هذه الحالة التي نريد أن يكون تحويل البنية الاجتماعية بسرعة من دون أن نضع أمام أعيننا ما يجلبه التطبيق السريع من مشكلات ، فان التناقضات والمشكلات سرعان ما تظهر الى الوجود ، كنتيجة حتمية لتغيير العلاقات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية • ان المجتمع ليس مجرد عجينة نعمل على تغييرها بسرعة وكيفما نشاء ، بل هو تركيب معقد تتصل فيه جوانب نفسية وروحية واجتماعية واقتصادية وحقوقية ، وان الفرد بطبيعته يأبى التغيير المفاجيء الذي يحطم عالمه القديم لينقله الى عالم جديد لا يعرف فيه مكانه • ان التطبيق السريع ينقل المجتمع الى فوضى تتصارع فيه عناصر مختلفة الاتجاهات تحاول عرقلة التطبيق والاجهاض عليه • ان التطبيق العلمي الصحيح البعيد عن الفوضوية هو ذلك الذي يغير طبيعة المجتمع وينقل الفرد الى عالم جديد ويبني المؤسسات الجديدة ، فيظهر التجاوب بين الفكر والتطبيق والمجتمع ، لان تقبل المجتمع للتغير شرط ضروري في عملية التحويل الاشتراكي •

وبناء على ما تقدم تظهر لنا أهمية العلاقة بين التطبيق والواقع الاجتماعي للمجتمع • ولكي يكون التطبيق علميا وناجحا لابد من توفر شروط موضوعية مهمة هي :

١ ـ يجب أن يعتمد التطبيق الاشتراكي على دراسة جوانب المجتمع لمعرفة الزوايا والمؤسسات التي يجب تغييرها أولا ، لان بقاءها يؤدي الى عرقلة عملية التحول الاشتراكي •

٢ ـ يجب أن يكون التطبيق الاشتراكي متجاوبا مع آمال أكثرية الشعب ، وان يتقبله الافراد على أساس انه يهدف الى رفاهية المجموع وتحقيق العدل الاجتماعي بين أفراد المجتمع • وهذا معناه أن على التطبيق الاشتراكي مسؤولية تحريك دوافع الافراد في العمل والبناء لتحقيق الاهداف التي يعيشون من أجلها •

٣ ـ يجب على التطبيق الاشتراكي أن ينقل الافراد الى المجتمع الجديد تدريجيا دون أن يشعروا بكسر العلاقات الاجتماعية القديمة التي أصبحت

عندهم تمثل جانبا معنويا وروحيا من حياتهم العامة ٠

٤ — يجب أن يحقق التطبيق الاشتراكي الاهداف القريبة والبعيدة تبعا لبرنامج وخطة موضوعة ٠ وهذا معناه أن يقترن التطبيق الاشتراكي بتخطيط علمي يوجه عملية التطبيق ويحقق النتائج التي تؤثر على حياة الناس وتهز دوافعهم البناءة ٠

ونعود الآن لدراسة النظرية والتطبيق والتخطيط باعتبارها الاساس الذي تقوم عليه عملية التحول الاشتراكي ، لنتفهم طبيعة التطبيق الاشتراكي ومفهومه ، بعد أن عرفنا شروطه التي يجب أن تتوفر فيه في حالة تغيير المجتمع من وضعيته التي كان عليها الى وضعية جديدة ٠

ان التطبيق الاشتراكي تحدده النظرية أو المبادىء ، وان النظرية تستمد قوتها وحيويتها من التطبيق وتحقيق أهدافه ٠ وهذا معناه أنه يجب أن يكون للتطبيق الاطار الفكري العام الذي يستمد مبادئه من دراسة علمية لطبيعة المجتمع وحركته وتركيبه ٠ ولكننا نجد في حالات أن الدولة تقوم بتطبيق بعض المبادىء الاشتراكية من دون أن يكون لديها ذلك الاطار الفكري العام ، وبعبارة أخرى : أن التجربة سبقت النظرية في هذه الحالة ، وان من واجب الفكر أن يفلسف التجربة ويحدد معالمها وابعادها ليكون لها الاطار الفكري ٠ ومن تفاعل التجربة والفكر تكون لدينا النظرية التي تهدي المجتمع في سيره وتقدمه ٠ ان النظرية العلمية المتحررة من الاوهام والقيود لا تضع نفسها في قوالب ثابتة ، بل العكس ، يجب أن تكون النظرية الاشتراكية مرنة تستفيد من عملية التطبيق والتجربة ومن المشكلات الجديدة التي تخرج نتيجة لعملية التحول الاشتراكي ٠ ان المشكلات والتجارب والخبرات الجديدة من شأنها أن توسع مدارك النظرية وتضيف اليها مفاهيم ومبادىء جديدة ٠ فاذا ظهرت المشكلات واستطاعت النظرية أن تضع الحلول العلمية الصحيحة لها ، فان هذه الحلول ستصبح جزء من فكر النظرية وتكون ذات فعالية كبيرة في المساهمة على حل المشكلات في المستقبل ٠

ان مبادىء النظرية بمثابة الدليل الذي يقود الحركة الاجتماعية نحو أهداف معينة ، لذلك يجب أن يكون للتطبيق الاشتراكي اطار فكري لكي لا تختلف الاهداف وتختلف البرامج وتختلف الوسائل ٠

واذا أردنا أن نقوم بعملية التطبيق الاشتراكي وكانت لدينا الوسائل الفكرية لذلك ، فمن الضروري أولا أن نحول المبادىء الفكرية الى تخطيط اشتراكي ، لان هذا التخطيط يجمع الدراسة العلمية لطبيعة المجتمع وتكوينه اضافة الى النظرية أو الدليل ٠ ان التخطيط بحد ذاته عملية تنسيق وتطوير ، ونقصد بالتنسيق هنا نظرة التخطيط العامة الى الجوانب الاجتماعية المختلفة بشكل مترابط فيه تفاعل مستمر وحركة متكاملة ٠ ونقصد بالتطوير العملية التي تقوم بنقل المجتمع الى وضعه الجديد وتحقيق الاهداف المتوخاة ٠ ومن الضروري أن نشير الى أن المقصود بالتخطيط هنا

ليس التخطيط الاقتصادي فحسب ، بل تخطيط يشمل جميع وجوه الحياة من اجتماعية وتربوية وقومية وسياسية وروحية • وهذا معناه أن عملية التخطيط تحتاج الى خبراء في الاقتصاد والعلوم والاجتماع والتربية والسياسة ، لكي يصبح برنامجا متكاملا •

ان من خصائص الاشتراكية البارزة اعتمادها على التخطيط العلمي لجوانب الحياة • ان رأسمالية القرن التاسع عشر كانت بعيدة عن التخطيط المنظم ، فكان الرأسمالي يركض وراء الربح متنافسا مع الرأسماليين الآخرين ، دون خطة غير تلك التي يضعها تحت شعار حرية العمل أو الحرية الاقتصادية في سبيل الحصول على أكبر الفوائد • وفي مجتمع كهذا تسود فيه القاعدة المعروفة (التنازع على البقاء وبقاء الاقوى) • ونتيجة لذلك تظهر الازمات الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وتعم الفوضى في المجتمع • أما الاشتراكية فانها على النقيض تقوم على دراسة حاجات المجتمع والافراد وتعد الخطة التفصيلية لتوفير الانتاج وتوزيعه توزيعا عادلا دون احتكار أو تسلط • وعلى هذا الاساس يصبح التخطيط ملازما للاشتراكية •

ان التطبيق الاشتراكي لا يقود الى الاهداف اذا تركت وسائل الانتاج والمشروعات الكبيرة بأيدي قلة من الناس ، لذلك يجب أن يسبق عملية التطبيق والتحول الاشتراكي عملية تأميم وسائل الانتاج ، واذا امتلك الشعب أو الدولة وسائل الانتاج ، فان التخطيط سوف يستوفي حديه كعملية تنسيق وتطوير في آن واحد • ان امتلاك الشعب لوسائل الانتاج ضرورة يفرضها مبدأ انتقال الحركة الاقتصادية من الفردية الى الاجتماعية بأن يصبح الانتاج اشتراكيا يخضع لادارة الشعب لتنظيم توزيعه لخير المجموع ورفاهيته • ولابد من أن نشير هنا الى خطأ البعض عندما يعتقدون أن التطبيق الاشتراكي يعني التأميم ، أن التأميم خطوة ضرورية لتحقيق أهداف التطبيق ، وان التطبيق الاشتراكي لا يحقق الاهداف في ظل الرأسمالية والاحتكار ، لذلك لابد من ازالة العوائق التي تظهر في طريق التحول الاشتراكي • ان أول العراقيل وأخطرها بقاء وسائل الانتاج بأيدي أفراد أو شركات احتكارية ، لذلك يجب أولا ازالة هذه الملكية وتحويلها الى ملكية جماعية تهدف خدمة المجتمع •

واذا كان التخطيط الاشتراكي ميزة الاشتراكية ، فان هذا التخطيط يختلف من مجتمع لآخر تبعا لافكار النظرية الاشتراكية ومقومات المجتمع ، وهذا معناه أن عملية التطبيق والتخطيط ترتبط بالفكر الاشتراكي ، وفلسفته العامة • ولتوضيح ذلك نحاول الآن دراسة طبيعة التخطيط الاشتراكي في ظل الاشتراكية العربية ، واختلافه عن التخطيط الشيوعي • يختلف التطبيق الاشتراكي بالنسبة للدول واختلافها في مراحل التقدم ، ففي الدول المتخلفة يتخذ التطبيق شكلا يختلف تمام الاختلاف عن التطبيق في الدول المتقدمة • ان الدول المتخلفة تشكو عجزا وتأخرا في جميع مجالات

الحياة ، لذلك يجب أن يهدف التطبيق الاشتراكي أولا الى تحريك المجتمع ودفعه نحو التطور والتقدم • واذا كانت دوافع التطبيق الاشتراكي في الدول المتقدمة اقتصادية لاعادة تنظيم المجتمع بتوزيع الثروة توزيعا عادلا والقضاء على الازمات الاقتصادية التي تظهر نتيجة لركض الراسمالية نحو الربح فقط ، فان دوافع التطبيق الاشتراكي في الدول المتخلفة ليست اقتصادية فقط ، لان الجوانب الاخرى من المجتمع تحتاج الى تطوير وتنظيم ، لاسيما ان هذه المجتمعات ما تزال اقطاعية تسيطر عليها عقلية العصور الوسطى • فهي بحاجة الى وسائل انتاجية تساعدها في تحقيق عملية كفاية الانتاج ، وبحاجة الى تكوين المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية والتربوية الملائمة ، لكي يكون التطبيق الاشتراكي شاملا لجميع الاوجه الحياتية ، لاسيما ان التطبيق في جوهره يهدف الى تنظيم العلاقات وتنسيق الجهود من أجل دفع البلاد نحو التقدم والبناء • وبناء على ما تقدم تظهر أهمية العلاقة بين الدافع والهدف والتطبيق » لان عملية التطبيق الاشتراكي حاجة ضرورية تكمن وراءها الدوافع التي من أجلها قامت عملية التحول ، وان الهدف ضروري لسير التطبيق الاشتراكي بل انه الروح العامة التي تسيطر على عملية التحول وتدفعها في مسلكها الذي يؤدي الى نفع مجموع الشعب • وعلى هذا الاساس يجب دراسة الدوافع والاهداف لتحديدها باعتبارها محركات التطبيق الاشتراكي وجوهره ، لان اختلاف الدوافع والاهداف يؤدي الى تباين أشكال التطبيق الاشتراكي وطبيعته • ويمكننا تبعا لذلك التفريق بين ثلاثة أشكال على أساس البناء الاجتماعي والدوافع والاهداف :

(١) اذا كان المجتمع تسود فيه تحكم فئة من الناس امتلكوا الارض وكونوا اقطاعيات كبيرة ، فاصبح المجتمع مجرد قطيع لهذه الفئة ، يعمل كل فرد لتحقيق انتاج أكبر في سبيل هذه الفئة ، فان التطبيق الاشتراكي في مجتمع مثل هذا يقضي أولا على الاقطاعيات الكبيرة ، لان دوافعه توزيع الارض توزيعا عادلا بين الافراد بحيث لا يبقى فرد دون أرض يزرع فيها • وعلى هذا الاساس يمكننا أن نجد في التاريخ ولاسيما في التاريخ العربي تطبيقا اشتراكيا دوافعه ايمان الافراد بحق التملك وتوزيع الارض على من لا يملك وهدفه تحقيق العدل الاجتماعي بين الناس • واذا كنا نفهم التطبيق الاشتراكي على أساس انه يشمل جميع وجوه الحياة ، فان التشريع والمؤسسات الاجتماعية والتربوية كانت في المجتمع العربي ـ الاسلامي اشتراكية باعتبارها لا تقر تحكم فرد أو فئة ولا تقر الا التعاون والتضامن بين الجميع في سبيل اسعاد الكل وتحقيق العدل الاجتماعي •

(٢) اذا كان المجتمع رأسماليا تسود فيه فئة من المحتكرين تعمل على التحكم في حرية الناس ومؤسساتهم ، فان التطبيق الاشتراكي يأخذ بالتأميم أولا في سبيل تنظيم المجتمع على أسس انسانية جديدة ، فتتحول أدوات الانتاج الى الدولة أو الشعب لادارتها • ولكننا اذا حللنا المجتمع الرأسمالي

وجدنا فيه مؤسسات لا تصلح ولا تؤدي خدمة للانسانية بما تنتهكه من حرمات وحريات كما يظهر في مثل هذا المجتمع اللاأخلاقية والفردية الانانية والانحلال والتفكك العائلي .

ان التخطيط الاشتراكي السليم في هذا المجتمع لا يقتصر على معالجة الجوانب الاقتصادية ، بل عليه أن يقوم بتغيير شامل لجميع جوانب الحياة ، فيقضي على الشذوذ والبوادر أو المظاهر اللاانسانية فيه ويقضي على التفكك العائلي بدراسة علمية لاسبابه وايجاد الحلول الملائمة ، لان هدف التخطيط الاشتراكي في مثل هذا المجتمع هو الانسان وحقوقه الطبيعية في الحياة والعمل والتملك . وان على الاشتراكية أن تهتم بالانسان ليعيش بالشكل الذي ارتضاه الله له ، بعيدا عن الخوف والجوع والفقر والعبودية .

(٣) اذا كان المجتمع اشتراكيا وكانت جميع وسائل الانتاج ملكا للدولة ، فان التخطيط الاشتراكي لا يتوقف عن العمل ، بل يصبح التخطيط أكثر ضرورية لانه سيواجه مشكلات جديدة تحتاج الى حلول ، كما يحافظ على خط التحول لتحقيق الاهداف الكبرى ، وتظهر في المجتمع الاشتراكي مشكلة جديدة يجب على التخطيط الاشتراكي أن يواجهها ويجد الحل . ان انتقال أدوات الانتاج الى الدولة من شأنه أن يخلق قوة جديدة تستطيع أن تمارس تحكمها وسيطرتها على جميع الافراد كما في المجتمعات الدكتاتورية . وتصبح حرية الانسان ومؤسساته مهددة من قبل السلطة ، فيزداد تحكم رأس المال ويصبح الافراد مجرد قطيع من الغنم يعملون للسيد الجديد وهو رأس مال الدولة .

وهنا تبرز المشكلة وهي : ان الاشتراكية تعمل من أجل الفرد وان تملك الدولة لوسائل الانتاج خدمة للفرد ، ولكن سيطرة الدولة من شأنه أن يعرض حرية الفرد ونفسه للانهيار . فكيف تستطيع الاشتراكية التوفيق أو ايجاد الحل لهذه المشكلة ؟

أن هدف التخطيط الاشتراكي في هذا المجتمع يتجلى في انتقال العمل الاشتراكي من السلطة أو الدولة الى الشعب ، فيعمل التخطيط على بناء المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة لتقوم بتحمل مسؤولية العمل الاشتراكي وتطبيق مبادئه . ان انتقال السلطة من الدولة الى المؤسسات الممثلة للشعب معناه تحول اشتراكي جديد يأخذ الشعب فيه مكانه في ادارة المجتمع بديمقراطية مع مراقبة ادارية مركزية تمنع الانحراف وتسند التطبيق الاشتراكي وتحافظ عليه في سيره العام .

وعلى ضوء هذه الاشكال من التخطيط الاشتراكي نحاول الآن تحديد التطبيق الاشتراكي بالنسبة للمجتمع العربي .

فاذا نظرنا الى واقع المجتمع العربي وجدناه متخلفا في جميع الميادين ، فلا توجد صناعة متطورة او زراعة حديثة أو مؤسسات ديمقراطية . ونجد بفعل تحكم الاستعمار وتحرر بعض الاقطار تباينا في التطور بين

الاقاليم العربية ، فهناك مجتمع اقطاعي لا توجد فيه صناعة وآخر اقطاعي مع وجود صناعة وشركات احتكارية ورأس مال مستغل ، وآخر في طريق التحول الاشتراكي • واذا نظرنا الى الاطار الفكري للاشتراكية العربية والقومية العربية ، فاننا سرعان ما ندرك أهمية التخطيط والتطبيق الاشتراكي في الاقاليم التي تحررت من الاستعمار وانتقلت ثورتها الى مستوى التحول الاشتراكي • ان التطبيق الاشتراكي في الوطن العربي يبدأ بتأميم الارض والصناعة وتوزيع الاراضي على صغار الملاكين والفلاحين ضمن خطة تنمية اقتصادية في حقل الزراعة ، وبذلك يصبح الاصلاح الزراعي ضرورة لازمة للتحول الاشتراكي • ان التطبيق الاشتراكي في حقل الزراعة لا يكتفي بالتأميم والقضاء على الاقطاع ، بل يجب ان يطور الزراعة ويخلق التقدم في هذا الحقل • ان على التطبيق الاشتراكي واجبا يتمثل في استصلاح الارض وتطوير وسائل الزراعة وتحسين الانتاج وبناء السدود التي تروى الارض لتكفل لكل فرد حصة من الثروة القومية • اما التطبيق في حقل الصناعة ، فان التأميم يصبح خطوة أولى ضرورية اذا كان المجتمع يتحكم به رأس المال والشركات الاحتكارية الاجنبية • والاقاليم العربية تحتاج الى صناعة متطورة قوية تساند الارض والفلاح وتعمل على تقوية الامة العربية ، لذلك يجب ان يعمل التطبيق الاشتراكي على اقامة صناعة وخلق الامكانيات والوسائل الانتاجية • ان الهدف من التطبيق الاشتراكي في الوطن العربي يتجلى في تحقيق الوحدة العربية الشاملة في اطار ديمقراطي بعيد عن الزيف والسيطرة • ومن الضروري هنا ان ندرك أهمية التطبيق الاشتراكي في خلق قوى عاملة جديدة واعية هي قوى العمال والفلاحين الذين يؤلفون في الوطن العربي وحدة قوى وصف تعمل على تحقيق الوحدة وتكون قاعدة لها •

ونتيجة للتحول الاشتراكي تظهر أهمية بناء المؤسسات الجديدة فلاحية كانت أم عمالية لتكون دعامة واساسا للتطبيق ورفيقا له • ان التحول الاشتراكي في المجتمع العربي يحتاج الى ادارة حازمة قوية تعمل على تنفيذ خطة التطبيق • وتصبح الادارة ذات أهمية كبيرة ، لانها الاداة التنفيذية للتطبيق ، وانها المسؤولة عن اخفاق الاشتراكية العربية أو نجاحها ، وعلى هذا الاساس تصبح الادارة جزء من التطبيق الاشتراكي • وهذا معناه انه من الضروري ان تكون الادارة مؤلفة من خبراء يؤمنون بالاشتراكية العربية وأهداف الامة العربية القومية ، لان الايمان يجعل الفرد متجها نحو انجاح عملية التحول مع دراسة للثغرات أو العثرات التي تحدث في طريق التطبيق مستهدفا القضاء عليها وتنظيف الطريق من اجل صيانة التطبيق •

وأخيرا أود ان أشير هنا الى الاطار العام للتطبيق الاشتراكي العربي باعتباره يضم جميع جوانب الحياة •

١ ـ يعمل التطبيق الاشتراكي في حقل الارض والزراعة لتحقيق

زراعة متطورة حديثة مع تمليك الارض للفلاحين وامدادهم بالوسائل الضرورية وتكوين الجمعيات التعاونية التي من أهدافها انجاح عملية التحول والتطبيق الاشتراكي في هذا الحقل ، وتوعية الفلاحين على أساس التكافل والتضامن الاجتماعي في العمل والانتاج • ويجب ان ينخرط الفلاحون في نقابات تدافع عنهم •

٢ ــ يعمل التطبيق الاشتراكي في حقل الصناعة لبناء صناعة قوية تكفي لسد حاجة البلاد مع القضاء على رأس المال المستغل وتأميم وسائل الانتاج • ان المجتمع العربي بحاجة الى الآلة ، وهو في تطوير صناعته سيخلق الايدي العاملة التي لابد من رعايتها اجتماعيا وصحيا وتربويا • فتتكون المؤسسات والجمعيات والنقابات لحماية العامل وتشارك في عملية التحول• ان التطبيق الاشتراكي سيتناول اذن العامل والفلاح من الناحية الاجتماعية والصحية والتربوية ، وذلك بتشريع القوانين وتهيئة المؤسسات الصحية والتعليمية له ولاولاده ، لنضمن للعائلة حياة مترفهة في الحاضر والمستقبل •

٣ ــ يعمل التطبيق الاشتراكي على رعاية الاسرة بتكوين المؤسسات الصحية والتربوية لجميع أفراد الشعب مع تربية قومية صحيحة لاعداد الافراد على أسس قومية اشتراكية وحدوية • واذا نظرنا الآن الى المجتمع العربي نظرة شاملة ، وجدناه مفتقرا الى التطبيق الاشتراكي في بناء الارياف والمساكن وتحسين الحالة الاجتماعية والصحية وتهيئة الافراد خلقيا وتربويا ليستطيعوا تحمل المسؤولية في البناء ويشاركوا في العمل من أجل المجموع ويجب ان يدعم التطبيق الاشتراكي عملية توعية واسعة لكي يتقبل الافراد عملية التحول الجديد ويشاركوا في انجاحها والاسراع بها لتحقيق النتائج المتوخاة • وهذا معناه ان المؤسسات في المجتمع لابد من ان تؤخذ بنظر الاعتبار في التطبيق الاجتماعي ، لان المجتمع تكوين عضوي مترابط يقوم كل جزء منه بعمل وظيفي يؤثر ويتأثر بالاجزاء الاخرى ، لذلك يشترط في التطبيق الاشتراكي ان يتناول جميع الاجزاء وما يصيبها من آثار أو مشكلات نتيجة لعملية التحول ، وهنا يكمن الاختلاف الواضح بين التطبيق الاشتراكي العربي والتطبيق الشيوعي ، فبينما يرى الاول ضرورة معالجة جميع الاوجه الحياتية في المجتمع دون التأكيد على الوجه الاقتصادي فقط ، فان التطبيق الشيوعي يرى في التطبيق الاقتصادي غايته ولا يهتم بالجوانب الاخرى • ان الاختلافات بين التطبيقين متأتية من النظرة الفلسفية للاشتراكية العربية والشيوعية ، فالاولى ذات اصل قومي واهداف قومية بينما الثانية اممية لا تعترف بالقومية • واذا أكدت الاشتراكية العربية على المثل والقيم الاخلاقية والدين والتراث ، لانها تعتمد على نظرة انسانية وتعترف بمكانة الانسان ، فان الشيوعية تجحد هذه القيم والدين والتراث وتعتبر هذه الاشياء نتائج للعلاقات الاقتصادية • وتبعا للاختلافات بين الاشتراكية العربية والشيوعية يكون الاختلاف واضحا كذلك في التطبيق الاشتراكي وأهدافه •



أنور خليل

هو ذا الوحش الذي قد رنحته الضربات
نزفت منه دماء وعلت منه الشكاة
أينما سار تضيق الأرض عنه والجهات
يتلقى كل يوم ضربات فيها الممات ٠٠٠٠٠٠
جن فالأرض حواليه حراب وعداة ٠٠٠!!
فله في كل صقع ، صرعة ٠٠ بل ٠٠ صرعات
وقريباً تخمد الأنفاس منه والحياة ٠٠٠!!

★

فعلى سمر الشواطي ، وعلى زرق البحار ٠٠٠٠
وعلى شعف الجبال الشم أو عبر الصحارى
في السهول الفيح ٠٠ بل ٠٠ في كل حقل في البراري
ضجة ٠٠ بل ٠٠ صرخات سئمت طول انتظار ٠٠!!
انتفاضات شعوب ، نفضت غل الاسار
وانبثاقات حياة من جنين متواري
وقريباً يبلغ الأحرار يوم الانتصار ٠٠٠!!

★

يارماة الوحش في كل مكان ومجال ٠٠٠٠٠
سددوا الرمية فالوحش على درب الزوال

تجسيد لمناظر تلك النكبة الدامية ، التي أخذت بخناق دار السلام أربعة عشر شهراً جاء في مقدمتها :

قالوا ولم يلعب الزمان ببغـد ... اد ولم تعثر بهـا عوائرها
اذ هي مثل العروس باديهـا ... مهـول للفتـى وحاضرها
جنـة الدنيا ودار مغبطـة ... قل من النـائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها ... وخل معسـورها وعاسـرها
وانفرجت بالنعـيم وانتجعت ... فيها بلذاتها حواضـرها

ومنها :

ياهل رأيت الاملاك ما صنعت ... اذ لم يزعها بالنصح زاجرها
أورد أملاكنا نفوسهم ... هوة غي أعيت مصادرها
ما ضرها لو وفت بموثقها ... واستحكمت في التقى بصائرها
ولم تسافك دماء شيعتها ... وتبتعل فتيـة تكابرها

ومنها :

يا بؤس بغـداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها ... لما أحاطت بها كبائرها
طالعها السوء من مطالعه ... وأدركت أهلها جرائرها

وبعد أن يصف قصورها الشارعة ومقاصرها العامرة التي تكن مثل الدمى تروق عين البصير أزاهرها انثنى يصف قراها المخضرة والمزدانة بالورد والرياحين ودساكرها المحفوفة بالكروم والنخل كيف أصبحت خلايا من الانسان قفراً خلاء تعوي الكلاب خلال ديارها وأصبح البؤس مخيماً ما يفارقها بعد أن كان السرور لا يهاجرها كان طيرا أبابيل دمرت سوداتها وأحامرها لاستخفاف سكانها بذي الفضل وابتعادهم عن أوامر الله :

رق بها الدين واستخف بذي ال ... فضل وعز النسـاك فاجرها
وخطم العبـد أنف سـيده ... بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب داعـرها
من ير بغـداد والجنود بها ... قد ربقت حولها عساكرها
كل طحون شـهباء باسـلة ... تسـقط أحبـالها زماجرها
تلقى بغي الردى أوانسـها ... يرهقها للقـاء طاهرها

ويمضي يصف كتائب الموت تحت ألوية دفعتها أحقاد وأطماع ومن شط الفرات الى شطئان دجلة قد سدت معابرها ثم يقول :

يحرقها ذا وذاك يهدمها ... ويشتفي بالنهـاب شاطرها
والكرخ أسواقها معطلة ... يستن عيـارها وعـائرها
أخرجت الحرب من سواقطها ... آسـاد غيل غلبـا تساورها

من البــواري ومن الخـــوص ... اذا اســـتلأمت مغـــــافرها
تغدو الى الحرب في جواشن الصو ... ف اذا ما عـــــدت أساورها
كتائب الهرش تحت رايتـــــه ... ســـاعد طرارها مقـــامرها

وراح يعدد كتائب العيارين لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا دافع لها الا الغيرة على مدينتهم هي التي دفعتهم ضد الجيوش الغـــازية التي تحدوها الاحقـــا :

والنفط والنـــار في طرائقها والنهب تغدو به الرجال والنساء اماؤها
وحرائـــــرها يولولـــــن في الطـــــرقات منشــــورة غدائرها
تعثر في ثوبهـــــا وتعجلهـــــا ... كبـــــة خيـــل زيعت حوافرها
تسأل ابن الطـــريق والهـــة ... والنار من خلفهـــــا تبـــادرها
لم تجتلِ الشمس حسن بهجتها ... حتى اجتلتهـــا حروب تباشرها
يا هل رأيت الثكلى مولولــــة ... في الطرق تسعى والجهد باهرها
في اثر نعش عليـــه واحــدها ... في صدره طعنـــة يســـاورها
تنظـــر في وجهـــــه وتهتف يا ... لثكل وعز الــدموع خامرها
غرغر بالنفس ثم أســــلمها ... مطلولة لا يخــاف ثائــــرها
وقد رأيت الفتيان في عرض المعر ... ك معفـــــورة منـــاخرها
كل فتى منـــــاع حقيقتـــــه ... تسقى به في الوغى مساعرها
باتت عليـــه الكلاب تنهشـــه ... مخضـــوبة من دم أظافـــرها
أما رأيت الخيول جائلـــــة ... بالقـــــوم منكوبة دوائــــرها
تعثر بالأوجـــــه الحســــان ... من القتلى وغلت دماً أشاعرها
يطأن أكبــــاد فتيــــة نجد ... يفلق هاماتهـــم حوافرها
أما رأيت النســـــاء تحت المجا ... نيق تعـــاوى شعثاً ضفائرها
وذات عيش ضنك ، ومقعســـة ... تشـــدخها صخرة تعـــاورها
تسأل عن أهلهـــا وقد سلبت ... وابتز عن رأســـها غفـــائرها

هكذا يمضي الخريمي في ملحمته المتماسكة ينتقل فيها من مشهد الى مشهد فيجسد شخوصه ويعمق ألوانه وكلما انتهى من موكب انتقل الى موكب آخر يصفه وكأنك تسايره ويرسم المشاهد ويلونها بريشته البارعة وكأنها تنبض بالحياة ويختمها بالنصيحة الى ذي الرياستين (الفضل بن سهل) ويوصيه بالعدل والطاعة للخليفة :

فاشكر لذي العرش فضل نعمته ... أوجب فضـــل المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعيـــة والا ... جنـــاد مأمورها وآمرهـــا
لا تردن غمرة بنفســــك لا ... يصـــدر عنها بالرأي صادرها
عليـــك ضحضاحها فلا تلج الـ ... غمـــرة ملتجسة زواخـــرها
والقصد ان الطـــريق ذو شعب ... أشأمها وعثهـــا وجائرها

أصبحت في امـــة أوائلهـــا قد فارقت هديهـــا أواخرها
أدب رجــالا رأيت سيرتهــم خالف حكم الكتاب ســائرها
وامدد الى النـاس كف مرحمة تسد منهـــم بهـــا مفـاخرها

والخريمي هو اسحق بن حسان القوهي الخريمي وكان متصلا بخريم ابن عامر المري وآله فنسب اليه ، وكان يضلع مع الفضل بن سهل وينزع منزعه بدليل قوله :

كم عندنا من نصيحة لك في الله وقـــربى عزت زوائـــرها
وحـــرمة قربت أياصـــرها منك واخرى هل أنت ذاكرها ؟

مطولة أبي تمام الطائي

اذا كان النقـــاد يرون ان من أهم مميزات الملحمة أنها تعالج معركة بعينها وان تصف أحداثها وأن تلزم قافية واحدة وبحرا واحدا وأن تعرض لموضوع واحد اذا كان ذلك بعض ما يوجبونه في الملحمة فان ذلك يصـدق على قصائد متعددة في الشعر العربي قديما وحديثا ونحسب ان قصيدة أبي تمام البائية في فتح عمورية تأتي في مقدمة هذه القصائد التي يصدق فيها الوصف لعناصر الملحمة فقد تعرضت لموضوع كان سلسلة متصـــلة الحلقات من صراع رهيب استمر زمنا طويلا وقد بلغ ذلك الصراع القمة على عهد المعتصم وقد وقعت فيه بطولات رأى الشاعر المرهف انهـــا تستحق التخليد وتستأهل التمجيد وقد أثار بشعره هذا حماس الجماهير يوم القاء قصيدته في ذلك الحفل الحافل بسامراء وكانت الجماهير المحتشدة ترقب بقلوبها وأبصارها بشائر النصر ويتطلعون بشوق متسعر الى لقاء البطل الذي لم تثنه تخرصات المنجمين ولم تقف ثلوج الانضول وعواصف الشتاء دون تحقيق عزيمته فالقصيدة بمحتواها والتزامها لتسجيل الاحداث ملحمة تأتي على رأس القصائد الملحمية . قال في مطلعها :

السيف أصـــدق أنباء من الكتب في حـــده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشـــك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعـــة بين الخمسين لا في السبعة الشهب

ومنهـــا :

فتح الفتوح تعـــالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتـــح أبواب السماء لــــه وتبرز الارض في أثوابهـا القشب
يا يوم وقعـــة عمورية انصـرفت منك المنى حفـــلا معسولة الحلب
أبقيت جـد بني الاسلام في صـــعد والمشركين ودار الشرك في صبب
أم لهـم لو رجوا أن تفتدى جعلوا فداءهـــا كل ام منهـــم وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضـــتها كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب(١)

بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت اليها همة النوب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها وكان اسمها فراجة الكرب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشلها وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها وكأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب

ومنها :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له العواقب بين السمر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب

أبو سعيد الثغري

كان محمد بن يوسف المكنى بأبي سعيد والملقب بالثغري أشد القادة بأسا على الروم وأكثرهم انتصارا حتى لقب بأسد الثغور لملازمته حروب الثغور سبع عشرة سنة وكان موصوفا بالكرم والمعرفة مما جذبه اليه كبيري شعراء بني العباس أبا تمام أولا والبحتري بعده ، فأطالا فيه القصيد وأكثرا في مزاياه وحروبه المدائح ولولا مدائحهما لما عرفنا من بأس هذا القائد المغوار الا النزر القليل ، فقد خصصا له في شعر حماسي قصائد يفنى الدهر ولا يفنى جمالها وروعتها .

كانت حروب الروم تتوالى يباغتون تخوم المسلمين فيهدمون ويقتلون ويأسرون ويقابلهم بالمثل الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون وطالما وصلت جيوش العرب الى القسطنطينية والتجأ الروم يحتمون بحصونها ، واشتدت هذه البغتات وتوالت هاتيك الانتقامات على عهد المعتصم منها كان يقودها بنفسه ومنها ما كان يوكلها الى قادته وكان أخطرهم على الروم أسد الثغور وكان أبو تمام أكثر الشعراء في عصره تحمسا واشتراكا بعواطفه لمتابعة هذه الحروب فأعطاها من شعره النصيب الأوفى وكان يرى انه مسؤول عن تجسيد البطولات وتخليد أصحاب النجدات وكان نصيب أبا سعيد الحظ الأوفر والقسم الأكبر من شعره ولو شعره لضاع الكثير من تأريخ هذه الحروب ، خلد أبو تمام غزوات أبي سعيد ومنها نعلم انه عبر الانضول ووصلت فرسانه الى أسوار بزنطيه ، وجلي في قصائده التي تكون في مجموعها ملحمة رائعة لحروب هذه الفترة ، حملها ما ينبغي أن تحمل من مظاهر القتال ومعالم الوقائع :

لولا جلاد أبي سعيد لم يزل ... للثغر صدر ما عليه صدار
قدت الجياد كأنهن أجادل ... بقرى (درولية)(٢) لهنا أوكار
حتى الثوى من نقع قسطلها على ... حيطان قسطنطينية اعصار

ثم وصف النار التي أوقدها أبو سعيد في القرى على مقربة من الخليج فحمل الهواء شررها الى البسفور وعلل رجوع الحملة المنتصرة ما حل بأهل العاصمة الرومية من الفزع والخوف ، قال :

أوقدت من دون (الخليج) لأهلها ... ناراً لها خلف الخليج شرار
ان لا تكن حصرت فقد أضحى لها ... من خوف قارعة الحصار حصار
فهناك نار وغى تشب وهاهنا ... جيش له لجب وثم مغار
خشعوا لصولتك التي هي عندهم ... كالموت يأتي ليس فيه عار

ومنها :

ولقد فصلت من الدروب اليهم ... بعرمرم للارض منه خوار
ان يبتكر ترشده أعلام الصوى ... أو يسر ليلا فالنجوم منار
(فالحمة البيضاء) ميعاد لهم ... و (القفل) ختم و (الخليج) شعار
والمشي همس والنداء اشارة ... خوف انتقامك والحديث سرار

وصور الطائي هروب (منويل) قائد الروم وبكاءه على جيشه المهزوم فقال :

ان لا تنل (منويل) أطراف القنا ... أو تثن عنه البيض وهي حرائر
فلقد تمنى أن كل مدينة ... جبل أشم وكل حصن غار
ان لا تفر فقد أقمت وقد رأت ... عيناك قدر الحرب كيف تغار
لما أتتك فلولهم أمدتهم ... بسوابق العبرات وهي غزار

وقصائد أبي تمام في أبي سعيد كثيرة أكثرها في حروب الروم غير ان وقعة (عقرقس) كانت أشهر وقعاته وأشدها نكاية وأضراها ـ ولذلك ذكرها ثلاث مرات ، وأجلى صورة لها في شعره قصيدته القافية التي مطلعها :

ما عهدنا كذا بكاء المشوق ... كيف والدمع آية المعشوق

ومنها :

سار مستقدما الى البأس يزجي ... رهجا باسقا الى الابسيق(٣)
ثم ألقى على (درلية) البرك ... محللا باليمن والتوفيق
فحوى سوقها وغادر فيها ... سوق موت طمت على كل سوق
فهم هاربون بين حريق ... السيف صلتا وبين نار الحريق
وقعة زعزعت مدينة قسطنطين ... حتى ارتجت بسوق فروق(٤)
يستغيث البطريق جهلا وهل ... يكلت الا مبطرق البطريق(٥)

ومنها :

ان اياك الحسان من الروم ... لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كأنها بالدم المهراق ... يوم للنحر والتشريق

والقصيدة كبيرة تعد أربعة وسبعين بيتا تكاد تكون مقدمة للملحمة من

ملحمات حرب الروم ، وروميات البحتري كثيرة خص منها أبا سعيد الثغري أجلها وأشهرها . وكان لا يكتفي أبو سعيد بالاغداق على البحتري وانما كان يصحبه في حروبه ويطلعه على بطولاته ليصورها بعد المشاهدة والمعاينة:

فزعوا باسمك الصبي فعـادت حركات البـكاء منـه سكونا

ومعناه اذا بكى الطفل الرومي وألح بالبكاء قالوا له جاءك أبو سعيد فيسكت ويعود البكاء منه سكونا . وفي هذه القصيدة يقول :

ربما وقعة شملت بهـا الروم فبـاتوا أذلـة خاضعينا
قد أمنـا ان يأمنوك على حال ولو صيروا النجوم حصـونا

ومنهـا :

وتوافت خيـلاك مـن أرض (طرسوس وقاليقلا بأرندونا)(٦)
عابسات يحملن يوما عبوسـا لاناس عن خطبـه غافلينـا
زرن بالدارعين أرض (البقلاء) فأجلوا عن (صاغرى) صاغرين
قد طواهن طيتهن الفيـافي واكتسين الوجيف حتى عرينا
كوعول الهضاب رحن وما يملكن الاصـم الرماح قـرونا
ونفير الى (عقرقس)(٦) انفـرت فكنت المظفـر الميمونا

وفي قصيدة قافية يصف حرب يوسف بن أبي سعيد وكان البحتري قد خاضها مع القـائد وشاهد أهوالهـا وتحمل بردها وقد دامت ثلاثة شهور قال :

وبرد خريف قد لبسنا جـديده فلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا
وبردين انضيناهما بعـد ثالث أكلناه بالايجاف حتى تمحقـا

ويذكر الخيل ومواطن حسنها وفضلها على الفرسان :

فلم أر مثل الخيل أبقى على السرى ولا مثلنا أحنى عليهـا وأشـفقا
وما الحسن الا أن تراهـا مغيرة تجاذبنا حبـلا من الصبح أبرقا
فكم من عظيم أدركته صـدورها فبـات غنيا ثم أصبح مملقـا

وفي قصيدة ثالثة يصف قائد الروم وقد جاء مكبلا بالحديد :

تضمنه ثقل الحديد واحكمت خلاخله من صوغه وأسـاوره
ولم يبق (بطريق) له مثل جرمه (بأران) الاعـازب اللب طائره
كسرتهم كسر الزجاجة بعـده ومن يجبر الوهي الذي أنت كاسره
وقد علم العاصي وان أمعنت به محلته في الارض انك زائـره
حسام وعزم كالحسام وجحفل شـداد قواه محكمات مرائره

وكانت مفاداة الاسرى أو تبادلهم معروفة وقد حدثت مرات ومرات وحصل تبادل الاسرى في زمن المتوكل وحضر رسل ملك الروم الى سامراء

فوصف البحتري المأدبة التي شهدها وفد الروم ووصف ذهول عقولهم وشخوص أبصارهم ودهشتهم لما طالعوا في قصر الخلافة من ابهة بلغت الغاية وما عاينوه وسمعوه مما أثار عجبهم وانكسار نفوسهم وخشوعها امام مجلس الخليفة .

مرثية ابن الرومي للبصرة

وتعد مرثية ابن الرومي في نكبة البصرة على يد الزنج من القصائد الطوال التي هي من الشعر القصصي فصل فيها تلك الفجيعة التي حلت في البصرة وأهلها على يد الزنج فقد انتهكوا حرماتها جهارا فقتلوا وسلبوا وسبوا ودمروا ، قتلوا الشيخ الفاني وفطموا الرضيع بشبا الهندواني أختار منها ، ما يكفي حاجة الاستدلال ، قال :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ما حل بالبصرة ... ما حل من هنات عظام
ان هذا من الامور لأمر ... كاد أن لا يقوم في الأوهام
لرأينا مستيقظين امورا ... حسبنا أن تكون رؤيا منام
اقدم الخائن اللعين عليها ... وعلى الله أيما اقدام
وتسمى بغير حق اماما ... لا هدى الله سعيه من امام

ومنها :

لهف نفسي لجمعك المتفاني ... لهف نفسي لعزك المستضام

ومضى يتوجع لها وينعتها بأنها معدن الخيرات وقبة الاسلام وفرضة البلدان ومصدر الغنى قال :

بين أهلها بأحسن حال ... اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل ... اذ راح مدلهم الظلام
أي هول رأوا بهم أي هول ... حق منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهم بنارهم عن يمين ... وشمال وخلفهم وامام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى في أهله أسلموه ... حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارز وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم ... طول يوم كأنه ألف عام

من رآهن في المساق سبايا دامیات الوجوه للاقدام
من رآهن في المقاسم وسط الزنج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن اماء بعد ملك الاماء والخدام
ما تذكرت ما أتى الزنج الا أضرم القلب أيما اضرام
رب بيع هناك قد أرخصوه طال ما قد غلا على السوام
رب بيت هناك قد أخربوه كان مأوى الضعاف والايتام
رب قصر هناك قد دخلوه كان من قبل ذاك صعب المرام
رب ذي نعمة هناك ومال تركوه محالف الاعدام

ومنها :

بدلت تلكم القصور تلالا من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها فهي قفر لا ترى العين بين تلك الاكام
غير أيد وأرجل بائنات نبذت بينهما فلاق هام
ووجوه قد رملتها رمال بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسراً بعد طول التبجيل والاعظام
فتراها تسفي الرياح عليها جاريات بهبوة وقتام
خاسفات كأنها باكيات باديات الثغور لا لابتسام

ومضى يعرب عن السبة والمعرة التي لحقت المسلمين في ذلك الرزء الجليل لخذلانهم اخوانهم البصريين فكم خذلوا من ناسك ذي اجتهاد وفقيه في دينه حبر من الأحبار يقول ماجوابنا اذا ما سئلنا عن تخلفنا عن نصرة اخواننا وأي عذر لنا حين ندعى على رؤوس الأشهاد وقال لنا رب الأنام كيف جاز لكم أن تخذلوا اخوانكم وتقعدوا عنهم قعود اللئام الجبناء كيف لم تعطفوا على أخوات لكم في حبال العبيد يهرج عليهن في الأسواق ويختم القصيدة باستنهاض أبناء الجزيرة قال :

ان قعدتم عن (اللعين) فأنتم شركاء اللعين في الآثام
انفروا أيها الكرام خفافا وثقالا الى العبيد الطغام
ابرموا أمرهم وأنتم نيام سوءة سوءة لنوم النيام
صدقوا ظن اخوة أملوكم ورجوكم لنوبة الايام
ادركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل رد الارواح في الاجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر فأقروا عيونهم بانتقام

صاحب الزنج

هو علي بن محمد انتسب الى علي عليه السلام كذباً وادعاء ، وفتنة الزنج في واقعها ونتائجها فتنة تخريبية قام بها همج من العبيد أثارهم ذلك الدعي وقد أغراهم بأسيادهم ووعدهم بالغنى وامتلاك القصور والبساتين

فكانت ثورتهم تعبيراً عن الحقد والكراهية للعـــرب وما كانت لهم غـايـة اصلاحية وانما أثارتهم الأطماع والسعي وراء السلب وجمع الغنائم وسبي الحرائر انهم عصابة مخربة كان من حصيلة فتنتهم تلك الفجيعة التي حلت في البصرة والتي خف لها جند الخلافة بقيادة أحمد بن الخليفة الموفق فتمكن من افنائهم وتخريب ديارهم وتشريدهم وقد تألم لأحداثها الشاعر المصور ابن الرومي فاهاجته الأنباء المحزنة فأخذ يسجل حوادثها التي ملأت نفسه فواجعها وتفجرت في قلبه محبة وعطفاً للانسانية المعذبة وأزالت من عينيه لذة الكرى وملأتهما بالدموع توجعاً لسكان البصرة المدينة التي هي قبـة الاسلام والتي هي مدينة الاشعاع الفكري وانها مصدر الثروة والغنى يتذكر مسجدها الجامع مثابة العلماء والرواة الذين اشتهروا بالعلم والعبادة لقد أصبح خلاء من قرائه وزواده حتى لم يبق واحد منهم يحدث أو يدرس ، لقد بلغ به التأثر والتأسف أن راح يعض اصبعه ندماً لتخلفه عن نجدتها وقعوده عن غياث أبناء الفيحاء الذين هم معدن الخيرات ، وبم يجيب ربه يوم القيامة اذا وقف أمامه وقال :

يا عبادي أما غضبتم لوجهـــي ... ذي الجلال العظيـــم والاكرام
أخذلتـــم اخوانكم وقعـــدتم ... عنهم ويحكم قعـــود اللئـــام
كيف لم تعطفوا على أخـــوات ... في حبـــال العبيـــد من آل حام
لم تغاروا لغيرتي فتركتـــم ... حرماتي لمـــن أحـــل حرامي

ان ابن الرومي لابد انه ذكر أبا تمام وذكر قصيدته في عمورية التي أضافت أمجادا على مجده التليد فجعل من نكبة البصرة موضوعاً يسجل فيه قدرته وشاعريته ويشبع حاسته الفنية وراح يتمثل الواقع المفجع وينقله الى عالم الوصف وابراز الصورة ومن أقدر على ابرازها من ابن الرومي ٠

أرجوزة ابن المعتز

تبلغ ارجوزة ابن المعتز زهاء عشرين وأربع مئة بيت وهي في محتواها وتفصيل الأحداث التي سردها صورة قريبة لنمط الملحمة هي من النمط القصصي تنـــاولت فترة تنحصر بين المعتز وأبي العباس أحمد بن الموفق والذي عرف بالخليفة المعتضد وصف فيها الحالة الاجتماعية وصفاً بارعاً وابرز فساد الحكم وطغيان غلمان الخلافة حتى أصبح الخليفة نفسه العوبة بأيديهم ، ويشرح ابن المعتز الحالة الاقتصادية والوضع السيء الذي آل اليه أمر التجار من مصادرة ونهب وضرب ، فلما جاء المعتضد وكان حازماً شجاعاً قضى على ثورة الزنج وضرب بيد من حـديد على كل ثائر حتى عم الاطمئنان وانتشر الرخاء ورفرف السلام على أرجاء البلاد ، وانتظم الأمن وسادت مدن الخلافة فترة من الراحة وأعادت الخلافة فترة من الراحـــة وأعادت الخلافة العباسية على عهـــده سالف عزها وهابه امراء الأطراف

فراحوا يبغثون بالخراج ولا يتصرفون بشأن من شؤون السياسة والادارة والمال الا بأمره وبعد أخذ رأيه ، سجل ابن المعتز في ارجوزته اشتراك المعتضد مع والده في توطيد دعائم الخلافة والقضاء على الثائرين والطامعين وذكر انقاذه الخلافة من الضعف وأبرز أعماله الحربية التي قام بها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا ، وأشاد بالمعتضد وكأنه أراد أن تكون هذه الارجوزة في محتواها سيرة للخليفة الشجاع وتمجيداً لبطولته .

والارجوزة مثبتة في ديوان ابن المعتز وطبعت وحدها عام ١٩١٣ وقد نشرها وشرحها وترجمها الى الالمانية (لانغ الالماني) .

بدأها بالحمد لله والصلاة على محمد الشفيع الصادق خاتم الأنبياء ثم قال :

هذا كتاب سير الامام   مهذباً من جوهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق   للملك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا   وكان نهبا في الورى مشاعا
مذللا ليست له مهابة   يخاف ان طنت به ذبابة

الحالة الاجتماعية :

وكل يوم ملك مقتول   أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعقد كيما يغني   وذاك أدعى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش   قد نفضوا عليه كل عيش
وكل يوم شغب وغصب   وانفس مقتولة وحرب
وكم فتى قد راح نهبا راكبا   أما جليس ملك أو كاتبا
فوضعوا في رأسه السياط   وجعلوا يردونه شطاطا(٨)
وكم فتاة خرجت من منزل   فغصبوها نفسها في المحفل
وفضحوها عند من يعرفها   وصدقوا العشيق كي يقرفها(٩)
وحصل الزوج لضعف حيلته   على نواحه ونتف لحيته
وكل يوم عسكراً فعسكرا   بالكرخ والدور موتا أحمرا
ويطلبون كل يوم رزقا   يرونه دينا لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافه   وعودوها الرعب والمخافه
فتلك أطلال لهم قفارا   ترى الشياطين بها نهارا
كانت تزار زمنا وتعمر   ويتقي أميرها المؤمر
وتصهل الخيل على أبوابها   ويكثر الناس على حجابها
وكم هناك والجاً كريما   وراجعاً مدفعاً مظلوما
وواقفاً ينظر من بعيد   مخافة العقاب والتهديد
حتى اذا ما ارتفع النهار   ضجت به الأصوات والأوتار
ودارت السقاة بالمدام   وارتكبت عظائم الآثام

ثم انقضى ذاك كأن لم يفعل — والدهر بالانسان ذو تنقل
فما بكت عليهم السماء — لما اتيح لهم القضاء

ويصف السياسة والثورات وفساد الحكم فيقول :

وكان قد مزق ثوب الملك — طوائف ايمانهم كالشرك

* * *

فكم وكم من رجل نبيل — ذي هيبة مركب جليل
رأيته يعتل بالأعوان — الى الحبوس والى الديوان
حتى اقيم في جحيم الهاجرة — ورأسه كمثل قدر فائرة
وجعلوا في يده حبالا — من قنب يقطع الاوصالا
وعلقوه في عرى الجدار — كأنه براءة في الدار
وصفقوا(١٠) قفاه صفق الطبل — نصبا بعين شامت وخل
وحمروا نقرته(١١) بين النقر — كأنها قد خجلت ممن نظر
اذا استعار من سعير الشمس — اجابه مستخرج(١٢) برفس
وصب سجان عليه الزيتا — فصار بعد بزة كميتا
حتى اذا طال عليه الجهد — ولم يكن مما اريد بد
قال ائذنوا لي أسأل التجارا — قرضا والا بعتهم عقارا
واحلوني خمسة أياما — وطوقوني منكم انعاما
فضيقوا وجعلوها أربعة — ولم يؤمل في الكلام منفعة
وجاءه المعينون الفجرة — وأقرضوه واحدا بعشرة
وكتبوا صكا ببيع الضيعة — وحلفوه بيمين البيعة
ثم تأدى ما عليه وخرج — ولم يكن يطمع في قرب الفرج
وجاءه الأعوان يسألونه — كأنهم كانوا يدللونه
وان تلكأ أخذوا عمامته — وجمشوا(١٣) أخدعه(١٤) وهامته
فالآن زال كل ذاك أجمع — وأصبح الجور بعدل يقمع

وأخذ يعدد ابن المعتز بعدد ما ابتناه المعتضد من المتنزهات والقصور مثل قصر الرباب (والزبيديات) وجدد قصر الثريا . فقال :

ولا بنى بان من الخلائف — ولا ملوك الروم والطوائف
كما بنى من أعجب البناء — لا زال فينا دائم البقاء
فمن رأى مثل الرباب قصرا — كم حكمة فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيرة — قد جمع الماء اليها طيره
وللبزاة معها وقائع — فغائص في جوفها وواقع
وما رأى الراؤن مثل الشجرة — ذات غصون مورقات مثمرة
ولم يكن غرسة ترابه الثرى — ولم تكن من جنة تسقى بما
لكنها تخبر عن حكيم — موفق مجرب عليم

مفكر من قبل أن يقولا ... ويحسن التفهيم والتمثيلا
كأنها من شجرات الجنة ... أنزلها الهنا ذو المنه
أبنية فيها جنان الخلد ... لكل ذي زهد وغير زهد
رب عدو هابها وذعرا ... وملأت عينيه لما نظرا
كانت على ساكنها دليلا ... جليلة قد وضعت جليلا
ومذكرات لجنان الخلد ... لطيفة ما ان لها من ند
ومظهرات قوة الاسلام ... على أعاديه من الانام

* * *

وبعد أن عدد انتصاراته ووصف حروبه التي شنها على الثائرين ختمها بقوله :

ثم انقضى أمر الامام المعتضد ... بكل عمر فالى يوم نفد
ومات بعد مائتين فدخلت ... في عام تسع وثمانين مضت
والحي منقاد الى الفناء ... والرزق لابد الى انتهاء

ومن تلك القصائد التي تكون الملحمة العربية وتناولت البطولة والحرب قصائد المتنبي في سيف الدولة الحمداني وحروبه مع الروم، وعلى سبيل المثال أذكر قصيدته التي أنشدها في انتصار ثغر (الحدث) سنة ثلاث وأأرأأبعين وثلاث مئة ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم(١٥)
ويطلب عند الناس ما عند نفسه ... وذلك مالا تدعيه الضراغم
يفدي أتم الطير عمراً سلاحه ... نسور الملا أحداثها والقشاعم(١٦)
وما ضرها خلق بغير مخالب ... وقد خلقت أسيافه والقوائم
هل الحدث(١٧) الحمراء تصرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمائم الفد قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطي والدهر راغم
تغيت الليالي كل شيء أخذته ... وهن لما يأخذن منك غوارم
اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
وكيف ترجى الروم والروس هدمها ... وذا الطعن أساس لها ودعائم
وقد حكموها والمنايا حواكم ... فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد مالهن قوائم
اذا أبرقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم

خميس بشرق الارض والغرب زحفه ... وفي اذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وامة ... فما تفهم الحداث الا التراجم

ومنها يخاطب سيف الدولة وينوه بشجاعته :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... الى قول قوم أنت بالغلب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار الى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن فتح الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

وتمضي القصيدة على هذا النمط في وصف الحرب الدائرة بين سيف الدولة وبين الروم :

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم ... قفاه على الاقدام للوجه لائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره ... وبالصهر حملات الامير الغواشم

وروميات فارس بني حمدان كما سماه الجارم رحمه الله وحروبه مع الروم وقصائده في الأسر تعد من لبنات بناء الملحمة العربية التي تنتظر الأديب الموهوب أو الشاعر الناقد الذي يتوفر لاخراجها وجمع مواد بنائها من العصر الجاهلي الى نهضتنا الحاضرة كمثل قوله من قصيدة قالها في الأسر منها :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن اذا حم القضاء على امرىء ... فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابي الفرار أو الردى ... فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولكنني أمضي لما لا يعيبني ... وحسبك من أمرين خيرهما الاسر

ومنها :

يمنون أن خلوا ثيابي وانما ... علي ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيف فيهم اندق نصله ... وأعقاب رمح فيهم حطم الصدر
سيذكرني قومي اذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
فان عشت فالطعن الذي يعرفونه ... وتلك القنا والبيض والضمر الشقر
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به ... وما كان يغلي التبر لو نفق الصفر
ونحن اناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

(١) أبو كرب كنية أحد التبابعة من ملوك اليمن ٠
(٢) درولية : اقليم في درب الروم وهي اليوم تعرف (باسكي شهر) ٠
(٣) الابصيق : بلدة رومية ذات حصون ٠
(٤) فروق من أسماء الأستانة ٠
(٥) البطريق قائد الروم وهو يستغيث في الأسر ونحن نطلب من جعله بطريقاً ٠
(٦) طرسوس وكيليكيا وارندون أسماء مدن في الانضول ٠
(٧) عقرقس : هي الرقمة التي أبلى فيها بلاء حسن (أبو سعيد) وذكرها أبو تمام في ثلاث قصائد ٠
(٨) شطاطا : طولا ٠
(٩) يقرقها : يكرها ويهجرها ٠
(١٠) الصفق : الضرب له صوت ٠
(١١) نقرته : هي نقرة القفا حفرة في آخر الدماغ ٠
(١٢) المستخرج : هو الذي يوكل اليه استخراج الأموال من المصادر ٠
(١٣) الجمش : القرص ٠ جمش المرأة غازلها بقرص ولعب ٠
(١٤) الأخدع : عرق في موضع الحجامة من العنق وهو شعبة من الوريد وهما أخدعان وعرقان في الرقبة والودجان وجمعه أخادع ٠
(١٥) الخضارم : جمع خضرم الكثير من كل شيء ٠
(١٦) الملا : الفلاة ، القشاعم : النسور ٠
(١٧) الحدث : قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم ووصف بالحمراء من دماء قتلى الروم ٠
(١٨) ذكروا ان قيصر الروم عند مقابلته لأبي فراس قال له ماذا أعددت من القصائد لحربنا ، تعريضا بالشاعر انه لايحسن القتال ٠ فقال :

فان عشت فالطعن الذي تعرفونه   وتلك القنا والبيض والضمر الشقر

وتلتها أبيات يفخر بها بوقفاته وانتصاراته ٠

المراجــــع :

الطبري الجزء العاشر ١٧٦ ـ ١٨٠
ديوان أبي تمام الجزء الأول والثاني والثالث
ديوان البحتري الطبعة الجديدة
اخبار ابي تمام للصولي
ديوان ابن الرومي ـ كامل كيلاني
ابن الرومي في الصورة للدكتور علي شلق
شعر الحرب في أدب العرب للدكتور زكي المحاسني
ابن المعتز ، اخباره ، ديوانه
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان للاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجي
من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين
معجم الادباء لياقوت الحموي طبعة اوربا
المواقف الأدبية ـ الدكتور محمد غنيمي هلال

في معرض الرأي

فنـــون الأدب والمستقبل

« الادب فنون وصنوف ، وكل لون ادبي يهدف ـ لاشك ـ تحقيق رسالة حياتية . ترى لأي لون من الالوان الادبيـة (الشعر ، القصة ، المقالة ، المسرحية ... الخ) تتوقعون ازدهارا وايناعا في المستقبل ؟ وما هي مسببات ذلك ؟ » .

هذا هو السؤال الذي طرحته (الاقلام) على بعض رجال الفكر فاجابوا مشكورين بما يأتي :

قال الاستاذ محمد خلف‌الله أحمد عضو مجمعي اللغة العربية والبحوث الاسلامية بالقاهرة :

عرفت الانسانية في مختلف بيئاتها ـ من قديم ـ فنونا من التعبير القولي الجميل ، تدخل كلها في مفهوم الادب ، وتخدم ـ على تفاوت فيما بينها ـ أغراضا نفسية وعملية في حياة الفرد والجماعة . فكان منها ما ينبعث عن اهتزاز عاطفة من العواطف التي زودت بها فطرة الانسان ، متمثلا في نسق من القول متساوق الاجزاء ، متصل بسبب من اللحن والغناء ؛ وذلك « فن الشعر » وكان منها ما يتجه الى قطاع قصير أو طويل من التجارب الحقيقية أو المتخيلة فيحكيه في صورة قصص تعيش اشخاصه ، وتتسلسل حوادثه ؛ وذلك فن « القصة » بصنفيها القصير والطويل .

وكان منها ما يتصور مأساة من مآسي القدر ، أو ملهـاة من ملاهي الحياة فيجريها حركة وقولا على لسان أشخاص يتقمصون شخصيات أبطالها ويحيون تجاربهم مرة أخرى أمام جمهور من المشاهدين ، ينفعلون بما يرون ويسمعون ، وتتأثر به وجداناتهم وعواطفهم ؛ وذلك فن « المسرحية » .

ثم كان منها ما يتناول شئون الحياة وأحداثها : من سياسية واجتماعية واخلاقية ونقدية تناولا مجملا ، فيحللها ويعالج ظواهرها ، داعيا في ثنايا ذلك الى فكرة أو أصلاح أو مبرزا قيمة من قيم الحياة ؛ وذلك فن « المقالة » .

ثم كان منا ما يتناول شئون الحياة وأحداثها : من سياسة واجتماعية أهداف نافعة من حياتها :

كالفن « الخطابي » الذي يعتمد على الحديث المباشر لجمهرة من الناس بغية دفعها ـ من طريق التحضيض والاستثارة ـ الى عمل من الاعمال ؛ وكفن ضرب « الامثال » الذي يحاول بلورة تجارب الحياة في عبارات قصيرة مركزة، تفيد سامعها عبرة وحكمة ؛ وكفن « الرسائل المطولة » التي تتيح المجال للتوجيه والتأثير من طريق الاقناع المفصل ، والحجج المقررة ، والمناهج الموضحة ، والعبر المستوحاة من السير والتاريخ .

وقد تباينت حظوظ هذه الفنون في مختلف بيئات الانسانية المتحضرة ، ازدهارا او ركودا ، ومحافظة او تجددا ، كما اختلفت حظوظها كذلك من حيث الاتجاه الى التعبير أو التبليغ ، ومن حيث الاغراض الفردية أوالجماعية تبعا لطبائع منشئيها من جهة ؛ ولمراحل التطور البشري من جهة ثانية ؛ وللفروق في الاتجاهات المبدعة عند الامم ـ من جهة ثالثة ـ بحكم البيئات الطبيعية والمستويات الفكرية والظروف الاجتماعية والسياسية .

واذا نظرنا ـ في ضوء هذه الاعتبارات ـ الى فنون الادب العربي الرئيسية كما نعرفها اليوم ، وتتبعنا في اجمال ـ تطورها التاريخي ،وجدنا أن الشعر كان أسبقها وأوفرها نصيبا من الازدهار والنقد لحياة المجتمع العربي والتأثير في سلوكه ، منذ تاريخه المعروف الى نهاية الثلث الاول من القرن الحاضر : فقد كان الشعر في المرحلة الجاهلية من تاريخ العرب سجل حياتهم . وديوان معارفهم . ثم جاء الاسلام بكتابه العربي المبين ، فجعل من العرب طليعة لمجتمع عالمي مؤمن ، حر الفكر ، متطلع الى المعرفة . ولم تكد الدعوة تستقر ورقعة المجتمع الاسلامي تتسع حتى أخذت فنون من النثر العربي تنشأ أو تتطور ، وعلى الاخص في مجال الخطب والرسائل وأدب التأليف ، وحتى انفسحت الآفاق أمام الشعر في مناصرة الانقسامات العصبية والسياسية ، وفي تخليد النماذج البطولية الاسلامية ، وفي التعبير عن العواطف والاتجاهات والتأملات الفردية من جن ومجون وسخرية وتشاؤم ، وزهد وتصوف . وتوثقت الصلة بين الشعر من جهة والموسيقى والغناء من جهة اخرى ؛ ثم نسجت حول هذه الصلة مادة من القصص والحكايات كان لها شأنها في العصر الحديث فيما سنشير اليه بعد من تطور فني القصة والمسرحية .

وظل الشعر على صلته الوثيقة بهذه الجوانب من حياة المجتمع الاسلامي العربي ، حتى في عصور الركود والضعف السياسي، وان كان قد فقد في تلك العصور كثيرا من طاقته وقدرته على الابداع والتحليق ؛ واتجهت اهتماماته في الغالب الى الموضوعات العادية من شئون الحياة ، وغلبت عليه الصناعة المسرفة في زخرفها وزينتها ، حتى كاد يصبح كالعروس المثقلة بالحلي والاصباغ ، العاجزة عن الحركة والحياة .

ثم جاءت النهضة الحديثة في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فردته في صياغته الى سابق أصالته في عصره الذهبي ، ووجهته وجهة النقد الاجتماعي ، والتسجيل لظواهر النهضة ، والقيام بدور ايجابي في تحريك الشعور الوطني ، والتذكير بالامجاد التاريخية ، وتخليد البطولات القومية وتزويد الشعب بالغذاء الروحي في اغانيه واناشيده ، واستثارة العرب الى مكافحة الاستعمار وجمع الصفوف ، والسير قدما في مجال التحرر السياسي ، والترقي العلمي والصناعي والاقتصادي ٠

وهكذا ظلت القصيدة العربية ــ الى نهاية الثلث الاول من القـــرن الحاضر ــ على نماذجها التي أصلها العرب قبل الاسلام ولونوها بعد بألوان حضارته ــ تقوم بدور فعال في حياة الفرد والجماعة ، وتحتل المكانة الاولى بين فنون الادب العربي ٠

ولكن جدت ــ مع بداية القرن الحاضر ــ ظواهر ، أخذت تعمل عملها تدريجا في زحزحة الشعر التقليدي عن مكانته ، وكان من أثرها في الثلث الثاني من هذا القرن ــ أن تطلعت فنون اخرى الى هذه المكانة ، وأن شغل الشعر بمراجعة موقفه ، وتنظيم بيته ، والاعداد لمستقبله ، وهذه عوامل لابد أن يحسب حسابها في التنبؤ بتطور الفنون الادبية العربية ، وايها يكون له الازدهار والايناع في المستقبل ٠

وأول تلك العوامل ظهور طائفة من الادباء والنقاد العرب الذين أوتوا حظا من الثقافة الغربية الادبية ، تناولوا الشعر العربي التقليدي بالنقد : فأخذوا عليه اهتمامه بالاشخاص والمناسبات ، واهماله الطبيعة وشخصية الانسان ، وعدم عنايته بالبناء العضوي للقصيدة ، وبالتحليق في آفاق القيم العليا للحياة ٠ وذهبت طائفة منهم الى أن التزام القصيـــدة العربية لوزن موسيقي رتيب ، وقافية موحدة ، قد حد من حريتها ، وقصر من نفسها ، وعاقها عن ان تنطلق فيما انطلق فيه الشعر الغربي من شتى الميادين ٠

والعامل الثاني تطلع الادب العربي ــ في نهضته الحديثة ــ الى الاخذ بنصيب من الفن القصصي الذي ازدهر في الامم الراقية ــ وهو فن لم يعرف المجتمع العربي القديم في أدبه الفصيح الا جوانب أولية منه، وقف فيها عند حد « الحكاية القصيرة » و « المقامة » ٠ وان كـان قد عرفه في رومانسـياته وبطولاته وملاحمه الشعبية ٠ كان للاتصال الثقافي بالغرب منذ القرن الماضي أثر كبير في تطور هذا الفن عندنا ، ظهور طائفة من اعلام الكتاب العرب فيه برزوا في القصة القصيرة والرواية بأنواعها ، وتابعوا تطور اتجاهات المدارس الغربية فيه ، ووجدت بعض أعمالهم طريقها الى اللغات والمسارح الاجنبية٠ وكان لنهضة المسرح ، وتطور الصناعة ، وانتشار التعليم ، واتساع وسائل الاعلام والترفيه الحديثة ، وعناية الدولة ــ بكل ذلك ــ وعلى الاخص بعد قيام ثورات التحرير العربية ــ أثرها في اقبال الجمهور على قراءة الكتب القصصية وارتياد المسارح ، ومتابعة المسلسلات الاذاعية والتلفزيونية ، والاستغنـاء

التدريجي عن كثير مما كان يقوم به الشعر في تسجيل المشاعر والاحداث الوطنية واشباع الحاجات الفنية عند الجماهير • وقوى من هذا الاتجاه الى القصص تزايد عدد القارئين ، وحاجة الشعب العامل الى شغل بعض اوقات فراغه بوسائل الترفيه الحديثة • وشأن الشعب العربي في هذا شأن غيره من الشعوب الراقية في هذا العصر ، عصر التطور الصناعي ، واشتراكية الحياة ، وذوبان الفوارق بين الطبقات ، وشعور أفراد الفئات العاملة بكرامتهم وحقهم في تكافؤ الفرص ، وبمتع الحياة المادية والذهنية والنفسية •

وشاركت المقالة القصة في افادتها من هذه العوامل الجديدة التي تحدثنا عنها :

فقد برزت أهمية الشعب في العصر الحديث بحكم التطور الديمقراطي والتحرري ، وزاد عدد القارئين فيه ، وشعرت الجماهير بحقوقها ومسؤلياتها وأصبح من مستلزمات الحياة أن يبدأ المواطن القارىء يومه بالاطلاع على الصحف المجلات ومتابعة ما تنشره من مقالات في شئون السياسة والاجتماع والاقتصاد والنقد الفني • وعملت الدولة على اشباع هذه الحاجة عند المواطنين بتوجيه الصحافة الى العناية بالنواحي الجوهرية في حياة الشعب ، وبالاكثار من المجلات المتخصصة في مختلف فروع الفن والثقافة والارشاد القومي •

من هذا العرض الموجز للموقف الحاضر من فنون الادب ، وما يلابسه من عوامل ، وقياسا على ما حدث – ويحدث – في المجتمعات الاخرى الراقية ، نستطيع ان نتنبأ بأن المرحلة الباقية من هذا القرن ستشهد مزيدا من الازدهار في فنون القصة والمقالة والمسرحية •

واذا كان من الصعب محاولة ترتيبها من حيث المدى والسبق في هذا الازدهار • اذ تبدو وكأنها تجري بسرعة متساوية في مضماره ، فمن الراجح ان القصة سيكون لها قصب السبق ، تليها المقالة ، فالمسرحية •

أما الشعر فسيظل – فيما نرجح – في المكان الرابع : فهو الآن في مرحلة كشف وتعرف لقدرته ومعالم طريقه وستظل خطواته مترددة الى حين : فنماذجه القديمة المتوارثة اقرب الى نفس الشعب وذوقه : ونماذجه الحديثة المتحررة (أو المنطلقة كما يقترح بعض الباحثين تسميتها) تتمتع بشيء كثير من عطف المثقفين والنقاد ، وبعضها وصل الى درجة عالية من النضج والابداع • ولكن الكثير منها لا يزال في صياغته غير متمكن من خصائص اللغة العربية في عبقريتها التعبيرية ، ولا يزال في موسيقاه وموضوعاته غريبا على اذهان الجمهور الذي لم يتعود بعد عادة القراءة المتأملة للخواطر والخلجات التى تصدر عن الشعراء المحدثين ، ولم يألف بعد اساليبهم الرمزية ، وصورهم الباطنية الغامضة • وسيظل النقد الادبي في موقف غير محدد حيال القصيدة العربية والمحاولات التجديدية فيها ، حتى تستقر أوضاع الذوق العام في ثقافته وموسيقاه وتطوره الفني ،

وحتى يتبين المدى الذى يمكن ان يسير اليه الشعب في استساغة تنــوع الموجات والحركات الموسيقية في فنه الشعري ٠

واذا كان لي أن اتنبأ بخط سير الشعر العربي في الثلث الباقي مــن هذا القرن فاني أرجح أن القصيدة العربية ، في اوضاعها الكلاسيكية ، وبوشائجها المتأصلة في تراث الذوق العربى – ستبقى ، ولكن في آفاق القيم الكبرى ، وفي مجالات الصراع الانساني ، والاهتزازات القـومية والعالميــة ذات الاثر العميق في كفاح البشرية نحو حياة افضل ٠ وربما اقتضاها هذا التطور أحيانا أن تطيل من نفسها ، وتنوع في قوافي مقاطعها بما يجعل منها بناء فنيا متكاملا ، خصبا في امتاعه ٠

وستنمو وتبقى الى جانب القصيدة الكلاسيكيــة الوان من الشــعر الجديد المنوع الوزن والقافية ، والجانح الى السهولة في تواليه وأساليبه ٠ وستكون هذه الاشكال الجديدة مجالا فسيحا للقرائح العربية – وخصوصا الناشئة منها – تجري فيه على سجيتها في التصـــوير والتعبير والتنغيم الموسيقى ، على نسق ما حدث قديما في الموشحات ، وتأثرا بالاشكال الشعرية الغربية ، في هذا العصر الذي تلاشت فيه المسافات أو كادت ، وتفــاعلت الثقافات ، ونشطت حركة الترجمة بين اللغات ، وفتحت الامم أبوابهـــا ونوافذها لاستقبال الاعمال والاشكال الفنية الوافدة ٠

وهناك فن من الشعر العربي ، جاء مع النهضة الحديثة ، وارتفع في الربع الثاني من القرن الحاضر الى مرتبة عالية ، بما احتفظ به من صياغــة القديم ورصانته وموسيقاه ، وما ضم اليه من قصص الجديد وحــــواره وتمثيله ؛ ذلك هو فن « المسرحية الشعرية » ، وهو بميزتيه هاتين يمثـل مصالحة واستمرارا بين القديم والجديد ؛ واغلب الظن أنه سيبقى محتفظا بمكانته الى أمد طويل ٠

وقال الاستاذ عبداللطيف شرارة

الأدب الشفوي هو الذي ساد في العصور الأولى ٠ وذلك لصــعوبة وسائل التدوين ، وقلة عـــدد المتعلمين ، فلم يبق من آداب تلك الحقب الموغلة في القدم سوى ما يسهل حفظه كالأساطير (القصص) التي تروى للصغار ، والأمثال الشعبية ، والوصايا ، وبعض الخطب ، والأبيــات الشعرية ، حتى اذا أصبحت وسائل التدوين أيسر ، وكثر عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة ، انتشر لون أدبي جديد ، هو « أدب الرسائل » الذي عم أوساط المتأدبين في الديار العربية القديمة ، وأصبح أداة التعبير المثلى ، حتى تحولت كلمة « الرسالة » عن معناها الأصيل ، وأصبحت شيئا كالبحث اليوم أو المقالة ، اذ نلاحظ في كتب التراجم والسير أن علماء تلك العهود كانوا يضعون « رسالة في السموم » أو « رسالة في العشق » أو « رسالة في المنطق » الى آخر ماهنالك من موضوعات علمية وادبية وفلسفية ٠

وكانت الكتب نفسها تؤلف في شكل رسالة حين يكون موضوعها شاملا ، مثل « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري ...

ذلك يفيد أن ازدهار لون معين من الألوان الأدبية ، منوط بوسائل انتشاره من جهة ، وطبيعته الخاصة التي تجعل الجمهور قادراً على استيعابه من جهة أخرى .

وكان أن انتشرت المسرحية في أوربا ، لأنها شفوية في جانب وقادرة على استقطاب اهتمام الناس ، في جانب ، حتى اذا ظهرت السينما تضاءل الأدب المسرحي شيئاً فشيئاً ، وأخلى السبيل أمام « السيناريو » .

وهذا الذي حدث للمسرح مع السينما ، أصاب الشعر ، على نحو أو آخر مع القصة - فالشعر لايملك تذوقه العدد الضخم الذي يتذوق القصة، ولذا ، توارى أمام زحف القصص ، وقل عدد ناظميه وقارئيه على السواء ، وتحول الى متعة فنية خالصة ، لايقبل عليها سوى الموهوبين شأنه شأن التحف النادرة التي لايسعى في طلبها سوى الأغنياء المترفين .

وهكذا ، نجد أن نزول الأدب الى الجمهور ، أو تمرسه بأداء رسالة حياتية هو الذي جعل الوانه تمد وتجزر ، وفق حاجات الجمهور ووسائله وامكاناته .

والظاهر أن المستقبل - وهو تتمة للحاضر - يحمل في مطاويه ازدهاراً للدراسة ، أي لهذا اللون الأدبي الذي يحاول أن ينير أكبر عدد ممكن من العقول في موضوعات حيوية تهم أكبر عدد من الناس ، ان في التاريخ ، أو السياسة ، أو الاقتصاد أو شؤون الحياة النفسية والمنزلية والاجتماعية ، وهو ما يسمونه في انكلترا Essay ، وقد درجنا على ترجمتها بكلمة « مقاله » وهي تعني في الواقع « محاولة » أي محاولة اكتشاف الحقيقة في موضوع من الموضوعات ، وهذه المحاولة هي التي عرفت في تراثنا العربي القديم ب « الرسالة » .

ويلي الدراسة في الازدهار والايناع أدب القصة ، لأن هذه تشتمل ، في تطوراتها الأخيرة ، على الشعر بمحتواه الشعوري ، والمسرحية فيما تتسع للحوار ، والمقالة بما تقدم من وصف ، كما يمكن أن تشتمل على رسائل وخطب ووصايا وحكم وأمثال ، وتؤدي بذلك غاية ما يامل الأديب أن يؤديه من رسالة في أدبه .

الدراسة للمثقفين ، كل في مجاله وفرع ثقافته .

والقصة للجمهور ، حسب الميول والاتجاهات .

هذا ما يلوح لي من ظواهر الحياتين : الأدبية والعامة ، وهي الباب المفتوح على المستقبل .

واجاب الدكتور صفاء خلوصي يقول :

« هذا سؤال جد غريب ، انه كالسؤال : لمن تكون الغلبة من الاحياء

في المستقبل • هل سيبقى الانسان وحده وتنقرض الكائنات الحية الاخرى ؟ هذا احتمال وارد وقد يحدث العكس ، قد ينتحر الانسان ببعض ما اخترعه من ادوات تدمير وفتك وتبقى الكائنات الحية الاخرى تنتظر فترة تطور جديد ليظهر انسان جديد •

كذلك هو الامر مع الانماط الادبية : هل ستنقرض القصيدة والمسرحية والملحمة والمقالة وتبقى القصة ومشتقاتها من اقصوصة وحكاية ونادره ؟ اذا حصل هذا الشيء فما اضيق الجو الادبى الذى سيعيش فيه انسان المستقبل ! ولكن هذا لا يمكن ان يحصل ولن يحصل لا فى عالم الاحياء ولا فى عالم الانماط الادبية الا لفترة قصيرة لانه خلاف طبيعة الاشياء في هذا الكون ، فطبيعة الاشياء تحتم وجود المفارقات وقيام النقيض ونقيضه •

وقد ذكر لي احد دكاترة الهندسة المعمارية انه حضر موءتمرا عالميا فى تخطيط المدن وتكلم فيه احد اكابر المختصين بالتخطيط فقال : « لقد اصبح ضروريا فى تخطيط المدن بشكل جميل وجود « اقليات من اجناس مختلفة فى كل مدينة عصرية جميلة » اهـ •

فاذا صح هذا القول فى تخطيط المدن وهندستها فهو من باب اولى اصح وأصدق فى الادب فالادب حديقة غناء فيها الوان من زهور الفكر ورياحين المشاعر والعواطف والحديقة الغناء ليست بغناء اذا اقتصرت على لون واحد من الزهور مهما كان رائعا – كما يقول طاغور – فهى ابدا بحاجة الى التنويع فى زهورها لكى تستهوى النفس وتأخذ بمجامع القلوب •

لذلك فانا لا اعتقد بغلبة فن ادبى وانقراض سائر الفنون الادبية سواها ، فالفنون الادبية كالازياء والاقبال على زى معين في فترة معينة او مكان معين لا يعنى انقراض الازياء الاخرى بل اختفاءها مدة تطول او تقصر الى ان تعود الى الشيوع من جديد وقد توجد بشكل ضئيل حتى فى فترة غلبة زى معين •

ويخطىء من يقسم العهود الادبية الى كلاسيكية ورومانتيكية وواقعية ورمزية ان كان يعتقد ان كل عهد انفرد بمذهب ادبى خاص دون ملابسة سواه ، فهذه المذاهب وجدت في كل العصور جنباً الى جنب انما كان لكل عصر طابعه الغالب عليه مع وجود شيء من طابع العصور التى سبقته والعصور التي اعقبته •

ولقد قسم احد موءرخي الادب المعاصرين أنماط الادب العربى الى انغام صبى وحماسة فتوة فى الجاهلية واناشيد جهاد وثوران عصبية فى الاسلام وعبث شباب واغانى طرب فى العصر العباسى الاول، ودروس تجربة وخواطر فلسفة في العصر العباسي الثاني وتمويه صنعة وخرف شيخوخة ومعالجة روح فى الفترة المظلمة •

والواقع ان هذا التقسيم هو الاخر تقريبى «تغليبى» فهذه الاشكال

والانماط والمناحي موجودة في الادب العربي دوما جنبا الى جنب وفي مختلف العصور لا في الشعر فحسب على ما ذهب اليه صاحبنا بل في النثر أيضا فنحن متفقون على ان هناك اربع مدارس للنثر في تاريخ الادب : مدرسة ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والقاضي الفاضل ، اثنتان منها اساسيتان وهما مدرسة ابن المقفع ومدرسة ابن العميد واثنتان مشتقتان منهما على التوالي وهما مدرسة الجاحظ ومدرسة القاضي الفاضل • ولكن الم يكن في زمن اي مدرسة من هذه المدارس اناس يكتبون بأساليب المدارس الثلاث الاخرى ؟ الم يكن في زمن ابن العميد الذي قيل عن اسلوبه بأنه شعر لا ينقصه الا الوزن من يكتب بأسلوب القاضي الفاضل مغاليا في التوريه والجناس او باسلوب الجاحظ مكثرا من الاستطراد ومازجا الجد بالهزل او بأسلوب ابن المقفع متوخيا سهولة العبارة والتنظيم المنطقي في الافكار والزهد في السجع ؟ الم يكن الشريف الرضي يكتب بأسلوب الامام علي وابن عبد ربه بأسلوب ابن المقفع ؟ •

فالتاريخ الادبي كالتاريخ السياسي يعيد نفسه وأدبنا العربي مثلا بدأ شعرا غنائيا كما قلنا وكان الشعر هو الغالب ثم جاء دور الخطابه والنثر الخطابي او ما يسميه جورج سينتزبري بالنثر الايقاعي

ثم جاء دور الشعر الغنائي ثانية وعاد النثر الى سلطانه بظهور عبدالحميد الكاتب وابن المقفع ولكن لا بالاسلوب الخطابي بل بأسلوب الترسل واعقبت ذلك ثورة شعرية عارمة على يد بشار وابي نواس حتى خيل الى الناس ان قد دالت دولة النثر الى ان تبدد هذا الوهم بذيوع صيت الجاحظ الكاتب الموسوعي العظيم ومعه ارهاصات ثورة معاكسة على يد ابي تمام والبحتري للعودة بالشعر الى طوره الاتباعي وهكذا ••

ومع ان العصر الحاضر هو عصر القصة في الغرب فان دولة الشعر ما تزال قائمة في الشرق وانك لتطوف في ارجاء الولايات المتحدة فتجد مجلات انيقة قد خصصت نفسها للشعر وللشعر وحده وقد عددت احدى عشرة مجلة من هذا النوع • هذا ما وصل الى علمي اما الذي لم يصل فأكثر • وقد قيل ان السينما والتلفزيون قد طغيا على المسرح ولكن المسارح في انكلتره وفرانسا واسبانيا وبعض ارجاء اميريكا ما تزال محتفظة بروادها وما يزال هناك كتاب مسرحيون يكتبون لها بدأب وشغف •

كل هذه الانماط كانت وستبقى ، على ان الغلبة الوقتيه ستكون للقصة ومشتقاتها وللون واحد من الشعر هو الشعر الغنائي ، فالقصة لن تموت ولو لفترة قصيرة لانها اصبحت ضرورية للسينما والتلفزيون فضلا عن المسرح والشعر الغنائي هو الاخر ضروري للحياة العصرية كما كان في حياة المجتمعات التي سبقت مجتمعنا ، فالانسان لا يستطيع الاستغناء عن عنصرين : الحكاية والغناء اذ وجدا بوجوده مذ كان في الكهوف والمغاور ولن ينتهيا الا بانتهائه • اما المسرحية النثرية فقد تتلاشى وتندمج في

القصة لفترة معينة من الزمن لتعود الى الظهور من جديد • امــا الملاحم فلن يكون لها مكان فى ادب المستقبل لمدة طويلة وما يقــال عنهــا يقــال عن المسرحيات الشعرية من نحو مسرحيات شكسبير وكورنيه وراسين ، وقد رأينا فى تاريخ الاداب العالمية ان امة كالامة العربية مثلا استطاعت ان تعيش بدون ملاحم وبدون مسرحيات ولكنها لم تستطع ان تعيش بدون اغان ولا بدون الف ليله وليله !

فى اوربا اليوم يكاد الشعر يتوارى امــام القصة ونكاد نلمس نفس الشىء ـ نسبيا ـ فى البلاد العربية فما الشعر الحر او القصيدة النثرية الا حالات انحلال وتدهور لدولة الشعر ، على اننى اشعر شعــورا خفيــا بأن جراثيم الانحلال هــذه لن تقضى على الشعر فى العربيــة بــل على العكس ستمنحه مناعة لينهض بعدها قويا انشط مما كان عليه قبلا اذ من الصعب ان يزول الشعر من العالم العربى فمزاج اللغة العربية ذاتهــا مزاج شعرى قدر ما هو مزاج معظم اللغات الاوربية مزاج نثري قصصي •

فالعصر الحاضر اذن عصر القصة وانك لتركب الميترو (او قطار تحت الارض) فى لندن مثلا فلا ترى احدا يقرأ ديوانــا شعريــا ، ولكنك تلحظ الكثرة الغــالبة تقرأ قصصا مسلية ملهيــة تنسى الانســان زمــانه ومكانه وهمومه ، فهى ـ فى الواقع ـ ضرب من الافيون النافع الذى يحتاج اليــه المرء لينسى المصاعب والمشكلات التى تجابه الانسانية فى حياتها العــامة والخاصة معا •

وانت لا تشعر بمثل هذا التأثير الافيونى للقصة ـ اذا صح التعبير ـ عند قراءتك للشعر انما تشعر به عندما تنظمه فحسب ، غير انك تشعر به وانت تكتب القصة او تقروءها على حد سواء فالقصة من هذه الناحية اخلد وابقى لانها املك لمشاعر الناس واكثر استهواء لهم ، فالبشرية احوج الى القصة منها الى الشعر اللهم الا الشعر الغنائى • وحتى لو كان الخيار بين القصة والشعر الغنائى فان الافضلية للقصة ، لان القصة تدخل فى تربية الصغار وتسلية الكبار ولا كذلك الشعر فى المدى البعيد • وسيكون ادب المستقبل حسب التسلسل الآتى :

١ ـ حكايات الاطفال
٢ ـ الاقاصيص المدرسية
٣ ـ القصص السينمائية والتلفزيونية •
٤ ـ المقطوعات الغنائية •
٥ ـ ادب المقالة (وبضمنها الادب الخطابى) •

فالعنصر الاهم فى هذه المجموعة هو القصة • وقد ادرجنا هنــا ادب المقالة لحاجة المجتمعات الراقية اليــه فى البحــوث الاكاديميــة والنــدوات والمناقشات ، بيد ان ادب المقــالة هذا سيبتعــد عن التــزويق والتنميــق

وسيكون مقتضبا موجزا مركزا اى على نحو ما كان عليه فى الخطابات والرسائل فى صدر الاسلام من نحو كتاب عمر بن الخطاب (رض) للمغيرة بن شعبه : « يدك فى الخطاب ورجلك فى الركاب » كناية عن الاسراع فى الحضور اليه . اذن فسيكون ادب المقالة بسيطا واضحا خاليا من الزخارف البيانية والتنميقات البديعية ، الا انه سيبقى مع ذلك كما يقول الاستاذ احمد حسن الزيات : « من ينبش قبور الماضين فيستلب اكفانهم وينتحل بيانهم او يقلدهم فى وجوه من التعبير وضروب من المجاز والتشبيه ... ولكن لسان النقد ، وزراية الشعب اقدر على هداهم الى سواء السبيل » اهـ .

وقال الاستاذ فؤاد عباس :

« اما بعد ، فان الشعر ابقى كلام ، واحلى نظام ، وابعده مرقى في درجة البلاغة ، واحسنه ذكراً عنـــد الرواية والخطابة ، واعلقه بالحفظ مسموعاً ، وأدله على الفضيلة الغريزية مصنوعا . وحقا لو كان الشعر من الجواهر لكان عقيانا ، أو من النبات لكان ريحانا . ولو أمسى نجوما لما خمد ضياؤها ، أو عيونا لما غار ماؤها ؛ فهو ألطف من در الطل في اعين الزهر ، اذا تفتحت عيون الرياض غب المطر ، وأرق من ادمع المستهام ، ومن الراح ترقرق بماء الغمام ... »(١)

حين كتب الواحدي (المتوفى سنة ٤٦٨هـ) هذا الـكلام ما كان ليدور بخلده أن يأتي يوم تظهر فيه الوان أدبية تنافس الشعر كالقصة والمقالة والمسرحية ، ولا كان بحسبانه أن سيأتي يوم يسأل فيه سائل : لاي من هذه الالوان الادبية تتوقعون ازدهارا واينـاعاً ...

ذلك لان هذا الاديب وامثاله ، ممن عاشوا قبله بقرون أو ممن جاؤا بعده بقرون ، ماكانوا ليشكوا لحظة واحدة في أن « الشعر ديوان العرب » . يترجم عن كل غرض ، ويؤدي كل رسالة ، وأن الادب العربي هو الادب في العالم ، وأن الشعر قوام هذا الادب وروحه وسيبقى على هذا الى ما شاء الله ..

وشاء الله أن يدرج الزمان ، وأن تتغير الدنيا ، وأن نتصل بالغرب ، بل أن يتصل بنا ، فاطلعنا على آدابه بدراستها في لغاتها أو عن طريق تعريبها . فعلمنا بأن للامم الاخرى ألوانا من الآداب لم يعرفها ادبنا . وان عرف البعض منها فقد تناوله تناولا ساذجا وبحدود ضيقة . فحاولنا أن نكمل النقص في ادبنا باصطناع ما اقتبسناه أو احتذيناه من آداب الشرق والغرب فظهـرت ما سمي بالمقـالة والقصـة والمسرحية وغيرهـا من الالوان الادبية .

---

(١) ص : ٢ مقدمة شرح ديوان المتنبي ــ للواحدي ــ نشره فردرك ديتريج . برلين سنة ١٨٦١ .

ومما قلدنا به الغرب بل (الشرق) ما ورد في الاستفتاء من القول بأن (كل لون ادبي يهدف – ولاشك – تحقيق رسالة حياتية) . وأنا لا أقر هذا الحكم الذي ارسل ارسالا مطلقا . لانني أرى ان الذين انتجوا هذا التراث الضخم من الالوان الادبية (الواردة في الاستفتاء) لم يدر بخلدهم « تحقيق رسالة حياتية » بل كانوا يهدفون الى تحقيق « عمل فني ناجح » قد يحمل رسالة حياتية وقد لا يحملها ... ولكنه يرضي ذوق المتذوقين كلهم أو الاغلبية منهم ... وهذا حال الشعراء من هوميروس عند الاغريق القدماء الى (ازرا پاوند) و (اليوت) عند الغربيين المعاصرين ، ومن امريء القيس عند العرب الى يوم شعرائنا العصريين هذا . وما يقال عن الشعر يصح ان يقال عن المسرحية من (يوريبيدس) عند الاغريق الى برناردشو وسارتر ومورياك من ادباء الغرب الحاليين . ويصح ان يقال ذلك في النثر الفني العربي اللهم باستثناء القرآن – من الجاهلية الى اليوم .

ان هؤلاء الذين خلفوا لنا هذا التراث الادبي العالمي الضخم من عرب وصينيين وهنود وفرس واغريق ورومان وغربيين معاصرين وغيرهم لم ينصب الواحد منهم نفسه (رسولا) يؤدي (رسالة) حياتية ولم يخطر ذلك بباله وانما كان يؤدي (غرضا) ما بقالب أدبي .

اما القول بأنه ينبغي للاديب أن (يلتزم) في أدبه بتأدية (رسالة) ما فقول تسرب الينا فيما تسرب من بعض المذاهب الاجتماعية والسياسية في السنيات الاخيرة . وهي مذاهب تحاول أن « تسخر » جميع الوسائل – والادب منها – لخدمة (رسالتها) . وكل انتاج ادبي لا يخدم رسالتها لا تعتبره أدبا ولو بلغ الذروة في الروعة والكمال الفني .

وبعد ، فلاي لون من الالوان الادبية سيكتب الازدهار ؟

لاشك في ان استشفاف مستقبل المذاهب الادبية أمر لا يمكن التكهن به ، ان لم يكن مستحيلا . ويؤيد ذلك ما اوردناه في صدر هذا المقال من رأي الواحدي الذي كان يحسب ان الشعر كل شيء في الادب العربي ، وكانت كل الشواهد المحيطة به في ذلك الزمن ، وما قبله وما بعده ، الى قرون طويلة ، تؤيد ما ذهب اليه .

وحالنا اليوم كحال الواحدي في ايامه اذ نرى أن الغالب على ما تقذفه المطابع الى الاسواق من الانتاج الادبي ، في العربية وفي لغات أمم أخرى ، كتب القصة ، مسرحية وغير مسرحية ، من عاطفية وبوليسية واجتماعية وعلمية ورمزية و ... اخيرا القصة المبتلاة بمرض ... اللا معقول !!!

فهل نتجرأ أن نحكم بهذه الظاهرة المحيطة بنا من شيوع القصة وانتشارها بأن المستقبل لها ؟؟ لست أدري . ولكنني أرى بأنها – في زماننا هذا على الاقل – أصبحت الاداة الطيعة الجذابة لتحقيق معظم رسالات الحياة ، كما يحلو لصاحب الاستفتاء ان يقول ...

ذلك ان ميزان الشعر أصبح يميل الى الهبوط ، كمية ونوعية ، عند العرب وغيرهم ، من امم الغرب خاصة ، ولا عبرة بما يصدر الى الاسواق من تافه الشعر المنظوم أو النثر غير المنضوم بل غير المفهوم ... فهل نستطيع أن نقول ان مستقبل الشعر مهدد بالخطر ؟؟ يخيل لي أن الشعر انزوى في الغرب ، بسبب من هذه الحياة التي يعيشها الانسان الغربي راكضا لاهثا بهذه الحضارة الآلية السريعة التي فاقت مخترعاتها كل خيال ، وجاوزت كل تصور ...

كانت نتائج العلم تدرج على الارض أو تطفو فوق الماء أو تستخدم الحواس المجردة بالسمع والبصر من مسافة قريبة ، بينما كان خيال الشاعر يحلق بين النجوم ويطير بين الغيوم ويغوص في أعماق المحيطات ، فيغذي بهذا الخيال آمال الناس ويملأ واقعهم ويخدرهم أو يذهلهم أو يروعهم ... وكانت (العاطفة) شيئا مقدسا . يهذبها الرجال بروح (الفروسية) وآدابها وطقوسها ، وتحملها النساء بروح القديسات المتبتلات الناذرات عفتهن لله ...

اما اليوم فلا يستطيع خيال الشاعر أن يدرك نتائج تحطيم الذرة ، واستخدام الالكترون في القنابل المهلكة والصواريخ المحلقة ، والمراكب الفضائية ــ بسرعتها وبعد مداها ــ وفي النتائج السمعية والبصرية المتولدة منها . كما لا يستطيع أن يجوس دروب العاطفة بعد أن تزعزعت القيم الاخلاقية والمعايير السلوكية في هذه الحضارة المعقدة التي ولدت حربين عالميتين ، امسى (خيـــال) الشاعر ــ بسببهما ــ يزحف على الغبراء و (حقائق) العلم تحلق في الفضاء .

اما المقالة فقد كانت طويلة تستغرق صفحة كاملة من صدر جريدة أو مجلة متأنقة في الصياغة ، محبرة بفنون البلاغة ، فأصبحت ، بعصر السرعة ، اشبه بلغة البرقيات منها بلغة المقالات لا تحتل اكثر من عمود أو نصف عمود . وأحسبها ستبقى على هذه الحال في مستقبل الايام .

اما المسرحية ، فتاريخ ازدهارها قد مضى ، في زمن لم تكن فيه هذه السرعة ولا هذه الاضواء والالوان ، ولا هذه السينما والسينما سكوب التي تمد أمامك مسرح الحوادث مد البصر والى نهاية الافق ...

وقد ازدهرت في اوربا يوم كان هناك جمهور يتذوق حساسية العبارة وعمق المعنى ، باسلوب سهل ممتنع وهو ما يجب ان يتوفر في الحـــوار المسرحي . وعندي ان صياغة الحوار المسرحي الناجح أصعب من صياغة الشعر . ولهذا نرى أن عدد المسرحيات في جميع آداب العالم ، قديمهـا وحديثها ، أقل من دواوين الشعر ومجاميعه ... ولقد كانت المسرحية واحسبها ستبقى (عملة نادرة) لا يتعاطاها الا ذوو الاذواق الادبية المترفة .

وأخيرا ... أقول هذا على افتراض أن الحضارة في العالم ستبقى على ما هي عليه اليوم من حرية كاملة عند الافراد والمجتمعات ...

ذِكْرى

.. وسرت مع الفل والياسمين
هنالك كنا نؤم الربيع

لألقاك في مرجنا الأخضر
فيغمرنا برؤى عبقر !

هنا رف حشد من الاقحوان
تسائل عنك فأزجي الدموع

هنا اخضل حشد من السوسن
حديثاً يعز على الألسن

وعجت على المنحنى الشيق
فأرسلت لحظ غريب قضى

لعهدك .. ذي الزهر الأزرق
ذووه ، وعدت وقلبي الشقي

وطفت بربوتنا أغرقت
كحلم الصغار ، كلمح الجنان

حصاها شقائقها الناضره
كأطياف أيامنا العابره

تمثلت مجلسنا في الربيع
وكأسك بين الشفاه الرطاب

لدى رفرف غص بالنرجس
تتيه صفاءاً على الأكؤس

ورحت مع الأمس أطوي الزمان
وأهمس حتى يذوب الصدى :

أسامر طيف رجاء صريع
أحقاً قضى يا زهور الربيع ؟!

سأمسك كأسك في أنملي
وأرشفها عنك في نشوة

اذا دارت الراح بين الصحاب
تهز رفاتك تحت التراب

سأحمل طيفك في مقلتي
أرد به طيف تلك العهود

من الموت أحفظه والضياع
ويغمرني طيف تلك البقاع

وفي الفجر حين يمور الفضاء ... بنور يزخرف شم القمم
أهيم لأحنو على وهدة ... طوتك وأرخت عليك الظلم

●

وحين يطوف على الكائنات ... بأطيافه الخاويات المساء
أطوف عليك بقلبي الأسيف ... وأرسل طرفي صوب السماء

●

وحين ترج الفضاء الرعود ... وتعدو الرياح ، ويهمي المطر
أسامر ما ترك القبر منك ... وأهول وأفجع به من سمر !

●

سألتك بالموت أين انتهى ... بأحلامك الهائمات المطاف ؟
أهذا مآب قلوب هفت ... ترود الرياض وتنحو الضفاف ؟

●

أسفت على حلم لم يكد ... يشيع بعينيك حتى خمد
ندي نزل الروض قبل الصباح ... وما كاد يلمع حتى جمد !

●

أخي وعينيك ما في الحياة ... وقد زلت عنها كسير الفؤاد
سوى زهرة كلما جئتها ... أسال جراحك وخز القتاد

●

أغمك بعدك عمن ألفت ؟ ... رويداً .. لقد جد حادي الركاب
لسوف يطول بنا الملتقى ... اذا ما انتهينا لتلك الرحاب

●

سألقاك في الرفرف الأنور ... حنا وافاء على الكوثر
تحوم عليه حشود الفراش ... ويهفو اليه الأقاح الطري

●

هنالك دنيا بهاء عميم ... هنالك دنيا فتاء ندد
تؤول اليها النفوس اللطاف ... لتغرق في الجذل السرمد

●

هنالك ، لا الروح رهن الضنى ... ولا الجسم رهن عوادي الفناء
نجوب الجنائن مجلوة ... يرف على طرفيها الصفاء

●

وفي الأرض قبل اللقاء الأبيد ... سأحييك في كل حسن يلوح
سأحييك في لون ورد الرياض ... وخفق السنى والمحيا الصبوح

●

سأحييك حتى كأني أراك ... تسر وتأسى وتسمى معي
محياي يمرح في مقلتيك ... وصوتك يخفق في مسمعي

سبيل الشاعر الى المعرفة

بقلم : س٠ دى ٠ لويس
ترجمة : عبدالوهاب الوكيل

كان الشعر والعلم فى قديم الزمن موضوعا واحدا ، وكان هذا الموضوع يدعي بالسحر وكان السحر عند اجدادنا الاولين وسيلة فعالة فى تفهم الطبيعة والبشر ، والسيطرة عليهما ٠ ولم ينفصل العلم بصورة نهائية عن السحر الا قبل ثلاثة قرون تقريبا ، حيث استقلت الثورة العلمية فى القرن السابع عشر عن حقل السحر ، وانفردت بموضوع خاص، ونحن اذا وجدنا العلم قد ادى منذ ذلك الحين الى ظهور الوان من الخرافات فيجب ان لا نضع اللوم على العلماء ، بل على الرجل الاعتيادى ، الذى يجد الحياة الخالية من الخرافات لا تطاق ، أما الشعر فقد اتخذ له طريقا آخر ٠ واذا كانت الفكرة الكبرى التي سادت العصر الذى سبق ظهور العلم هو التقليد فلا بد للشعر ان يبدو شيئا بدائيا صرفا ، لاعتماده على التقليد ومبدأ استحداث المادة ٠

ومع ذلك فاعتقد بانه من الممكن استخدام الشعر وسيلة للحصول على المعرفة ونشرها بصفته وليد ذلك الادب الذى خرج العلم من صلبه اذ يجوز للشقيقين ان يتخاصما بين حين وآخر ، ولكن كلا منهما يعمل فى حقله الخاص نحو تحقيق غايات مماثلة ٠ ولابد ان يساعد تعريفنا لحقل الشعر على توضيح المفهوم الذى يمكننا من القول بأن الشعر يعني بالمعرفة وهذا ما سأحاول ان افعله ٠ وسأحاول ان اشير الى وجود تقارب واضح بين اسلوب العالم والشاعر ، وبين الطرق التي يسلكها تفكير كل منهما فى اثناء العمل ، ولاسيما فى مرحلة حاسمة من بحثهما ٠

ومع ان احدا لم ينجح فى محاولته لتعريف الشعر ، الا ان محاولات كثيرة محمودة جرت لتقرير الغرض الذى وجد الشعر من اجله ولكن هذه المحاولات كانت دائما تنتهي باتجاهين متطرفين هما الفكرة التي تعتبر الشعر غاية بحد ذاته ، والفكرة القائلة بأن الشعر واسطة ٠ ففى العقد الذى تلا

عام ١٨٩٠ مثلا : اعلن الشعراء كرد فعل للاتجاه النفعي السائد آنذاك مبدأ « الفن من اجل الفن » الـذي نص على ان الشعر يجب ان يكــون اشبيــه بالطقوس الدينية وعبادة المتصوفة وان يكون مستقلا عن القواعد الخلقية وعن الظواهر الواقعية او المتصلــة بالحوادث الآنيــة ، وأخيرا عن الوعظ الديني أو التعليم العلمي • فوظيفته كانت تنحصر في أنأ يكون جميلا قبل ان يكون مفيدا •

حتى لقد ابدى (ييتس Yeats) الشاب اسفه لان « التأمل في الافكار العلمية ادى الى اطفاء الشعلة الرئيســة في تنسيون Tennyson » ومــن الجدير بالملاحظة ان هذه الظاهرة حدثت في زمن كان العلم الذى حقق قرنا من النجاح العملي ، قد بلغ فيه درجة من الشهرة تفوق مكانته الحقيقية حتى اخذ يدعى بتزعم عالم المعرفة الموجودة بالقوة واسمحوا لي ان انقل لكم مقطعا من كتاب شــائع يبحث في العلم نشر لاول مرة في ١٨٩٢ ، يقــول الكاتب : •

« ليس ثمة طرق مختصرة توصلنا الى الحقيقة غير ما ياتينا بطريــق الاسلوب العلمي •

اذ ان تصنيــف الحقــائق او تعليلها ، ذلك الطــريق الشــاق المملوء بالعقبات ما هو الا الطريق الوحيد للتأكد من الحقائق • فالملكة التى يجب ان تخاطبها هي العقل لا الخيال ، ويستطيع الشاعر ان يعطينا بلغة رفيعة فكرة عن منشأ الكون ومغزاه ، ولكنه لن يشبع في النهاية رغباتنا الجمالية وفكرتنا عن الانسجام والجمال كما هي الحال مع الحقائق التى يمكن ان يمدنا بهــا العلم في هذا الحقل نفسه » •

فلا عجب اذن ، امام هذا السيل من التقبل والرضى ، أن نجد مثــل هذا التزاحم لبلوغ ذروة الشعر الخالص • ويستطيــع المرء ان يجيب على المقطع الذي ذكرته آنفا (علما بأنه لا يمثل وجهة النظر العلمية الســائدة اليوم) بما يأتي : لنفرض انه كل ما نستطيع ان نعرفه عن المحيطات مــا هي الا حقائق معدودة قد تم اكتشافها من قبل علماء البحار وعلماء الاحياء المائية وغيرهم ، ولنفرض ان علماء النفس وعلماء الاعصاب قد توصلوا الى تفهم تام لطبيعــة العقل البشري وعملــه ، ولنفرض ان عالما وفنانــا مثــل (لوناردو) قد ضمن كل هذه المعرفة في كتاب بليغ واف ، فهل سيشبع هذا الكتاب ، رغبتنا الجمالية وفكرتنا في الانسجام والجمال اكثر مما تفعله قصيدة (البحار العجوز) ؟ اني لأشك في ذلك كما أشك في انه سيحتل المنزلة التي تتبوءها قصيدة (البحار العجوز)•

انك ستقول : « كلا لا يمكن ان يحتــل محله بالطبع ، اذ لا يوجــد اساس للمقارنة بين هذين الانتاجين فأحدهما قصيدة من نسج الخيــال المحض ، بينما يؤلف الثاني مجموعة من الحقــائق الملحوظــة والقوانين

المثبتة ، ويحتوي على معلومات تتعلق بأشياء حقيقية • وهذا صحيح طبعا ، ولكن هل تعني بذلك ان الشعر لا يتصل (بأشياء حقيقية) ؟ اليس الحس بالاشياء هو حقيقة وواقع بقدر الشيء المحسوس ذاته ؟ اليس نقلنا للخبرة لونا وقيمة ، مساهمة في المعرفة لا تقل فائدة عن تحليل تلك الخبرة بلغة الحقائق الطبيعية والقانون الطبيعي ؟ فقصيدة (كولرج) تقص علينا ، من خلال الصور الشعرية عن السفرات البحرية ، وقصة الاثم والعقاب والتكفير وهي سلسلة من الحوادث لا تقل واقعية عن سلسلة العمليات التي تنتج لنا فحم الغاز • واني أعتقد بأن جميع علماء النفس يتفقون معي بأن الحوادث التي يرمز اليها في القصيدة صحيحة بالنسبة الى ما نلاحظه من الحقائق الخاصة بالسلوك البشري • وليست القصيدة هيكلا يضم الوانا مركبة من التجارب فحسب ، بل هي تجربة بحد ذاتها وهكذا فان المعرفة التي تقدمها لنا تختلف في النوعية عن المعرفة التي نحصل عليها من مجموعة من الدراسات الخاصة التي توضح سلسلة من الاحداث الفكرية •

واننا اذا ما رفضنا قبول الفكرة القائلة بأن الشعر ليس الا غاية بحد ذاته ، فسنجده سبيلا للحصول على نوع خاص من المعرفة • فما هذا النوع الخاص من المعرفة الذي تزعم وجوده في الشعر ؟ ان الشعر كما يحدثنا النقاد يمدنا بحس مرهف يجعلنا قادرين على تفهم الحياة • مثل هذه التعريفات غامضة بشكل فضيع • ولكن المحاولات التي تلتزم الدقة الكبيرة لم تأت بثمار طيبة ويمكن ان تلخص تلك المحاولات في هذين الميدأين ، وهما ، الفكرة التي تقول بأن الشعر يهدف الى تهذيبنا وذلك عن طريق الصور الشعرية للكمال التي يعرضها لنا • كالقول « بأن الغرض من التعليم الديني بأسره هو التشجيع على الاعمال التي تتسم بالفضيلة » او كما قال بيكن « يهدف الشعر الى رعاية الشهامة والاخلاق والذوق عند الانسان او اضفاء هذه الفضائل عليه » والفكرة القائلة بأن الشعر هو السبيل الى اختراق المظاهر والنفوذ الى قلب الحقيقة • ويقوم المبدأ الاول على تعريف ارسطو للشعر بأنه (Mimesis) اي ضرب من ضروب التقاليد •

ويتجه الثاني نحو اعتبار الشعر عملية اعادة تنظيم التجربة وخلقها من جديد ، ومن هنا نشأت أساطير المحاكاة وأساطير السحر بالتناظر •

وبطبيعة الحال فان العمل المشترك بينهما هو المتعة • وقد حاول النقاد في عصور مختلفة وضع نظريات عن طبيعة المتعة التي يمدنا الشعر بها • فمثلا نجد (آي • أ • رشارد) الذي يقيم مذهبه النقدي على القاعدة (الرومانتيكية) الصرفة القائلة بأن (لا مبرر للتجربة غير ذاتها) فقد فسر المتعة التي نحصل عليها من الشعر بأنها توازن نفساني : اننا يجب أن نصور ••• تيار الخبرة الشعرية بأنه عودة هذه الرغبات المضطربة الى حالة من التوازن • فقراء قصيدة واحدة كل يوم تغنينا عن الاطباء النفسانيين •• فالسيد (رتشارد) يميز بين العبارة العلمية التي تقرر

حقيقة ما ، وبين العبارة التي تهدف الى ما يشابه ذلك في الشعر • فهو يقول بأن النمط الاخير من التعبير يجعلنا نتذكر كيف كنا نشعر اذ أن مثل هذا التعبير يكون فعالا في حقل لا سبيل للعلم اليه • اذ لا يمكن للغة التي تستخدم بصورة منطقية وعلمية أن تصف منظرا ريفيا أو وجها آدميا • » لقد تحدث السيد (تي • ار • هن) عن القيمة الادبية للفن فوصفها بأنها القوة التي (تكيف العقل البشري للعالم الحي وأحواله المعقدة) ويقول بأن (التبرير الاخير لوجود الشعر بألوانه المختلفة يكمن في محاولته التعبير عن انصهار تام بين الافكار والعواطف التي تدنو في الاحوال الاعتيادية من الشعور أو حتى تتعداه • »

ولو أردت أن اقدم لكم تبريرا بليغا للشعر فلن أرجع في ذلك الى شاعر أو نحات بل الى رياضي كبير • فاليكم ماكتبه السيد (أ• أن• هوايتهد) : « تصرخ الروح بشدة طالبة الانعتاق والتحول ، فهي تعاني من الام (claustrophobia) أي الخوف من الاماكن المغلقة فالتحول الذي يطرأ على روح الفكاهة والظرف والوقاحة ، وعدم الاحترام ، واللعب ، والنوم ، ولا سيما الفن هو شيء ضروري لها فالفن العظيم هو تنظيم الاحوال المحيطة بحيث تستطيع أن توفر للروح قيما واضحة ولكنها زائلة •

ولكنه يمضي قائلا :ـ ان الفن العظيم أكثر من تسلية زائلة •• انه شيء يزيد من خصب الروح الدائم ويساعدها على تحقيق ذاتها • فهو يبرر وجوده بالمتعة المباشرة التي يقدمها وكذلك بالنظام الذي يحتويه في صميمه • ولا يمكن فصل نظامه عن متعته بل أنه يوجد بسببها ••••• ان عملية إخصاب الروح هي السبب في كون الفن ضروريا •

ولنضع العبارة « تصرخ الروح بشدة طالبة الانعتاق والتحول » بجانب أبيات ييتس الشعرية :

« ان الانسان مدله بحب ماهو زائل فأي شيء أسوأ من ذلك ؟•»
وعند ذلك نحصل على مثل كبير للمتناقضات التي يقوم عليها الشعر •••

ولنهبط الان من هذا المستوى العالي لنرى اذا ما كنا نستطيع بطريق الامثال والتعبيرات التي يقوم عليها التشبيه ، أن نميز بوضوح سبيل الشاعر الى المعرفة ؛ وسبيل العالم اليها • اني أطلب منكم أن تتصوروا (ورد سورث) يقوم بجولة في السيارة في المنطقة الجبلية الغربية بصحبة عالم شاب يدعى (جونس) وهو مختص بعلم الانثروبولوجيا ـ الاجناس ـ • وكذلك أطلب منكم أن تتناسوا في الوقت الحاضر على الاقل ، الاصل الحقيقي لقصيدة (ورد سورث) الموسومة ب (الحاصدة الوحيدة) • والان وبعد السير خلال الوديان البعيدة يبصر هذان المسافران فتاة وحيدة تعمل بمنجلها في احدى المزارع انه لمنظر جميل حقا ويوقف (جونس) السيارة لكي يتمتع بالمنظر بصورة أتم ويحس (جونس) و (وورد سورث) بأن الفتاة

تغني لحناً لم يسمعا مثيلا له من قبل ٠

فيقول ورد سورث « كم أتمنى أن أعرف ماتعنيه هذه الفتـــاة ؟! فيسأله (جونس) لم لا تسالها ؟٠٠ لا ٠ بل انتظر قليلا ٠ »

ان جونس كما ترون عالم دقيق في بحثه ، فقد لا تكون الفتاة قادرة على التحدث بالانكليزية أو انها تكون جاهلة باسم الاغنية أو ربما كانت أدلتها غير مضبوطة ٠

ولذا تراه يلتفت نحو ورد سورث (اسمع ياورد سورث) سوف أعود بالسيارة الى الفندق واحضر آلة التسجيل وتستطيع أن تشغلها أنت بالحديث حتى أعود » ٠

ان قابلية ورد سورث على التحدث الى الريفيين مشهورة ويسير كل شيء على ما يرام ، فيتم احضار آلة التسجيل كما يتم اقناع الفتاة باعادة اغنيتها ٠ ويلاحظ (جونس) ان (ورد سورث) عندما كانت الفتاة تعيد انشاد الاغنية ، يعود الى السيارة ويضع يديه فوق أذنيـــه ، فيعجب من سلوك الشعراء الغريب ٠

حصل (جونس) على تسجيله وبعد أن عرضه على المختصين بالموسيقى علم بأن الاغنية كانت مرثاة تعود الى العصر (اليعقوبي) وضعت باللغـــة الاسكتلندية الاصيلة ، وانها غير معروفة فيشتد حب الاطلاع عنده ويعود الى الانحاء المجاورة لذلك الوادي ويقضي عدة أشهر في العمل والتنقيب ٠ فيكتشف جماعة تعيش في واد منعزل ينتمون الى حضارة قديمة لم تدخلها المدنية الحديثة ٠ فالفتاة (مثلا) كانت تحصد في ذلك الحقل بمنجلها وهي وحيدة وذلك وفقا لعقيدة تقول بأن على العروس الشابة أن تفعل ذلك ان أرادت أن تضمن الخصب لنفسها ٠ وأما المرثاة (اليعقوبية) فانها دخيلة على هذه العادة البـــدائية حيث وصلت المنطقة على أثر وصول حفيـــد (جيمس الثاني) الملقب بالمدعي الصغير في هذه الربوع واقامته مدة قصيرة فيها خلف خلالها عدة أولاد ٠ ولقد دون (جونس) اكتشافاته هذه في مقالة أرسلها الى مجلة علمية بعنوان (بعض الملاحظات التي تساعد في البحث عن آثار النماذج الحضارية في المنطقة الجبلية الغربية من اسكتلندا) ٠٠ فأثارت هذه المقـــالة سلسلة من المراسلات الطريفـــة وكتب أحد زملائـــه من الانثروبولوجيين رسالة اليه عبر بها عن دهشته لانه قام بوضع ملاحظة مماثلة عن طقوس الخصب في جزائر (تروبرايند) وهكذا تجمعت بصورة تدريجية أكداس من الحقائق ٠ وعندما كان (جونس) يتأملها في أحـــد الايام ، أحس في لحظة من الادراك السريع بخيط يربطها جميعها الى بعضها فلجأ الى اختيارها بصورة دقيقة وباناة ٠ فتوصـــل الى اكتشاف قانون جديد ٠ ويدعى هذا القانون الاول ل (جونس) وهو معروف عنـــد علماء الأجناس ولا حاجة لي بازعاجكم به ٠

وفي الوقت نفسه قام (ورد سورث) بقسطه في سبيل المعرفة ، وهو معروف لدى الجميع :

« تأملها ، تلك الصبية الجميلة وحيدة في الحقل
تحصد وتغني بنفسها ، الزم مكانك هذا ، أو امضي بهدوء
انها تحصد السنابل وتحزمها بمفردها وتنشد لحنا حزينا .
صه : فالوادي العميق يفيض بصوتها الرخيم .
ان بلبلا لم يغرد قط بهذه العذوبة لقافلة من المسافرين .
هدها التعب فاستسلمت تتفيء الظلال في وسط الصحراء الغربية .
ولم يسمع واحدا صوتا ساحرا كهذا الصوت .
يخرجه الوقواق في الربيع فيشق به سكون البحار .
عند جزائر الهبريد النائية
هلا حدثني أحد عن اغنيتها .
فربما تدفقت هذه النغمات الشاكية .
لذكرى من حوادث الايام الخالية المؤسفة حصلت في الماضي السحيق
ومعارك اندثرت منذ زمن بعيد
أو ربما كانت اغنية أكثر تواضعا من ذلك .
تدور حول امور الحياة الجارية .
من أسى ، ونقد ، وألم .
حصل فيها ، وقد يحصل ثانية .
ومهما كان موضوع اغنية هذه الصبية .
فان اغنيتها بدت وكأنها لا تنتهي
لقد شهدتها في أثناء العمل
وهي تنحني فوق المنجل
فأرهفت السمع ساكنا بلا حراك .
وعندما كنت أصعد الجبل
كنت أحمل في قلبي تلك الموسيقى
دهرا طويلا بعد سماعها .

فهل هذه القصيدة تضيف الى المعرفة ؟ نعم . ان الفن يهتم بالاشياء الفريدة بينما يبحث العلم في التعميم وكما قال بيتس : « لايمكن اخضاع أي شيء فريد للقياس » . ان الفتاة التي تعمل في الحقل أصبحت بالنسبة الى (جونس) حقيقة في كومة من الحقائق المشابهة أدت العلاقات التي تربطها ببعضها والتي تم الوصول اليها أخيرا الى تعميم كبير يعرف بقسانون « جونس » الاول . وكلنا يتذكر نفور (ورد سورث) الادبي من الافكار العلمية ومن تعميماتها والهيئة التي تبدو فيها وكأنها غير آبهة بأي شيء ذي أهمية كبرى . ولقد كانت مهمة (ورد سورث) ابراز الجانب الفريد

من التجارب الاعتيادية المألوفة . فاهتمامه ليس موجهاً حتى الى الفتــاة كشخصيدة فريدة بقدر ما هو موجه نحو الحالة الفكرية التي تثيرها فيه . فالمعرفة التي نحصل عليها من القصيدة هي المعرفة التي تدور عن طراز معين من المزاج وهذا المزاج هو مزاج الانسان المغـرم بحب ما هو زائل « ولقد عن لكل واحد منا هذا النوع من الافكار الملهمة وأحس على الاقل بالاهمية العميقة التي تقرب من الالهام والتي توحي بها مقابلة عارضة . فنحن نسعى الى اطالة تلك المقابلة حتى نستطيع أن نستلخص منها معانيها الكاملة . ولكن الفن فقط هو الذي يستطيع أن يثبت الخبرات العرضية والحالة الشعورية الزائلة فيجعل منها شيئا مهما وازليا . « غنت الصبية اغنية بدت كأنها لا تنتهي » ولكن لكل اغنية نهاية بالرغم من أنه من الممكن ادامتها بعض الوقت « كنت أحمل تلك الموسيقى في قلبي دهرا طويلا بعد سماعها . » فالصفة الفريدة للخبرة التي تعطيها هذه لايمكن أن تعيش الا كذكرى عابرة ما لم تكن قد ثبتت وطورت وطبعت في عمل فني .

لقد تصورنا (ورد سورث) بعد أن عاد الى السيارة وهو يغطي اذنيه بيديه عندما أعيدت الاغنية على مسامعه . لقـد علمته غريزته الشاعرية المدبرة بضرورة التوقف عن الاصغاء . فقد بدأت القصيده تتبلور فعلا في فكره وربما عرضتها المعلومات الحقيقية الاخرى الى الخطر ، فمن المهم حقا أن نعرف حقـــا بأن النص الاصلي للبيت « فأرهفت السمع ساكنا دون حراك » هو » لقد أصغيت لحد الاشباع ... فكما كان من الضروري أن يلم (جونس) بكل شيء عن الاغنية التي كانت الفتاة تنشدها كان مـن الضروري على (ورد سورث) أن يعرف عنها شيئا . ولنتدبر مثلا تركيب القصيدة فالمقطع الاول يذكر الحقائق المادية والمقطع الثاني يفصل هذه الحقائق بصوره الشعرية المكونة من البلبل والوقواق فيحدث فينا تلك الرعشة التي تتميز بهذه الخبرة ويشعرنا بلونها . ويدفعنا المقطع الثالث الى التركيز في معناها الاساسي وهذا يتم كما تلاحظون عن طريق طرح الاسئلة التي يجب أن يبقى الجواب عليها مجهولا الى الأبد . وهذه الاسئلة هي : هل كانت الاغنية تتحدث عن حروب الماضي السحيق ؟ أو عن امور الحياة الجارية ؟ ولو فرضنا بأن (ورد سورث) كان قد الحق بالبيت « هلا حدثني أحد عن أغنيتها ؟ سبعة أبيات اخرى يخبرنا فيها ان الاغنية كانت مرثاة من عهد (اليعاقبة) لبقيت القصيدة جيدة ، ولكنها ستكون عنــدئذ قصيدة ثانية تختلف كل الاختلاف عن هذه لانها ستعطينا معلومات عن حالة ذهنية اخـــرى ، وسنحتاج الى تعريف لموضوع القصيدة غير الذي نحصل عليه من المقطع الرابع حيث يرجع الشاعر مرة ثانية الى الحقــائق المادية . وقد طفح المقطع بالمعاني التي تكونت في المقطع الثاني والثالث .

فهذه قصيدة تقدم لنا معرفة عن حالة ذهنية معينة ، وهي حالــة حصلت للشاعر فعلا ولكن القرآء من ذوي الحس يستطيعون أن يقاسموه

اياها عن طريق هذه القصيدة الى حد ما ·

وقد تبرز الان بعض الاعتراضات وربما يتمثل أعنفهـــا في قولك : « ولكني لست بحاجة الى المعرفة التي تتصل بمشاعري أو حالتي الذهنية ، فهذه خاصـــة بي ، وان كنت أعرف شيئا فاني أعرفها » ويشبه هذا قول بعضهم : « ولكنني أعيش في مقاطعة (سافوك) واذن فليس لي حاجة الى رؤية صور (كونستابل) الزيتية عنها ، وقد يثار بعد ذلك اعتراض أشد خطورة كأن يقول الكيمياوي مثلا « ان التجارب الكيمياوية التي تتم وفقا لمعادلة معينة ، وتجرى بأجهـزة مضـبوطة وكافية ، تأتي دائما بالنتيجة نفسها خلال سلسلة من الاحداث المماثلة · ومثل هذا النوع من التنبأ هو ما اسميه بالمعرفة ويمكنك أن تقول بأن القصيدة خبرة يمكن التحكم بهـا ولكن لايمكن التكهن بنتائجها ·· اذ لا يوجد ثمة قارئان يتشابها في درجة تجاوبهما لقصيدة معينة ونوعية ذلك التجاوب ، ولذا فمن الخطأ اطـلاق كلمة (المعرفة) على مجموعة الاستجابات المتغيرة » · لست أعتقد بأن هذه الحجة وجيهة بالرغم من أن القراء ذوي الكفاءة والمقدرة (وأنا لا أعني نقاد الادب فقط) قد يختلفون في مفهوم مقاطع معينة من القصـيدة فليس من المحتمل أن يوجد اختلاف كبير بينهم بخصوص المعنى العام · وحتى لو كان كذلك فليس هذا الاختلاف بذي أهمية كبيرة · فهل من الضروري اعتبار التجاوب الموحد شرطا لجميع أنواع المعرفـة ؟ ان الافراد الذين يتميزون بصفات فريدة سيختلفون بسبب تلك الصفات والى حد ما في تفسيرهم للاحداث الفريدة التي ندعوها بالقصيدة ·· ولكن استجاباتهم تشترك في صفة واحدة ألا وهي الايمان بالحقيقة ، وبالشعور بأن القصيدة قد مكنتهم من الادراك بصورة واضحة وعميقة وباحساس شديد ·

ولكن الى جانب ذلك فان العالم المتنور لن يساوي بين المعرفة والتنبأ، وانه على الاغلب سيقول (هنالك) احتمال يقرب من الحقيقة ·· يقول بأن النتيجة التي نحصـل عليها من تجربة معينة ستكون (س) ·· فلو وضعنا مثلا مئات الاطنان من نترات الامونيا في مخزن ، فهناك احتمال يقرب من اليقين بأنها ستبقى في سكون · ولكن هنالك حالة أو حالتان انفجرت فيها المخازن التي تحوي نترات الامونيا الصرفة بصورة تلقائية · ومن المحتمل أيضا حدوث بعض التجمعات في العوالم الدقيقة جدا والتي لم تكن متوقعة بينما يبحث الشعراء بصورة عامة أول ما يبحثون عن معرفة العوالم الدقيقة وعلاقتها بالعالم الكبير · وهذه أحد الاشياء التي عناها (كولرج) عنـدما قال بأن القصيدة نمو عضوي من الداخل نحو الخارج ، ولكن علماء الطبيعة خلال نصف القرن الماضي ، اتجهوا الى دراسة الاحداث الدقيقة (المجهرية) (Micro-event) وهذا ما جعلهـــم في مركز أقرب الى الشعراء فاصبحوا وجها لوجه مع الفكرة القائلة بوجود حدود ثابتـــة لما نستطيع تعلمه عن طريق الملاحظة التي نقوم بها على أصغر الحوادث عندما ندرسها في معزل

عن جميع الحوادث الاخرى وينص قانون (هايزبنرك) على الشك في وجود حد للمعرفة التي نحصل عليه عن أية حادثة من هذه الحوادث المجهرية عند دراستها في معزل عن الحوادث الاخرى لو شئنا ملاحظتها لوجب علينا أن نجري عليها بعض العمليات ، وهذا ما يؤدي الى تغييرها • ويعنى كل من العالم والشاعر الى تضيق منطقة الشك بقدر الامكان •

فعندما وضع (ورد سورث) يديه فوق اذنيه ليحول دون سماعه أغنية الصبية ثانية كان غرضه من ذلك أن يحتفظ بمشاعره التي تكونت عند سماعه للقصيدة للمرة الاولى بشكل سليم ودقيق وذلك لكي لايوسع من منطقة الشك وكذلك فان الفيزياوي يفرغ محتويات زجاجة الاختبار لكيما يدرس سلوك الالكترونات فيها غير آبه لوجود الذرات الغازية • فكل من الفيزياوي و (ورد سورث) يقدمان باختيار مايريد من مجموعة الحالات (الحقيقية) •

ويقوم الاعتراض الثالث على كون الشعر فرع من فروع المعرفة على الادراك الحسي ، فاننا نتعرف على الاشياء عن طريق الحواس • ويعنى العالم بالعالم المحسوس ، أما الشعر فعلى الرغم من استخدامه مواد العالم المحسوس الا انــه يعنى بالاشياء غير المحسوسة • ولكن الاشياء غير المحسوسة لا تخضع للاختبار أو البرهان لذا فلا يمكن لأي فعالية تدخل في حقل اللا محسوسات من أن تزعم بانها مصدر من مصادر المعرفة • وهـذه الفكرة ـ وهي مادية ، أصبحت اليوم في أعداد الافكار البالية وذلك بفضل الفيزياء الحديثة واسمحوا لي أن أستشهد بكتاب السيد (مارتينجونسون) الموسوم « الفن والفكر العلمي » •

« ان أغلب ما يعنى العالم الفيزياوي الحديث به من ذرات والكترونات وجزيئات ذرية وأمواج الكترونية •• الخ •• ليست في جوهرها وطبيعتها مما يتم التعرف عليه بواسطة البصر أو اللمس أو السمع • ولا تخضع مثل هذه الاشياء للادراك الحسي مثلها في ذلك مثل تطورات أشد الشعراء امعاناً في الخيال فاذا ما برر الاخير (الشاعر) نفسه بالتماسك والانسجام الذي تنطوي عليه الافكار المنقولة والتي تبرزها لنا أشكاله الفنية فأين اذن التشابه الذي يقربه من الفيزياوي أو التغاير الذي يبعده عن ذلك الفيزياوي الذي يصوغ نظرته الى الكون بصورة ارادية في تركيب محكم من الافكار تختلف أيضا وبصورة جوهرية عن الادراك الحسي ؟ »

ان صدور هذه الكلمات من أحد العلماء يضع مشكلة المعلومات القائمة على العلم والمعرفة الشعرية على أسس متغايرة ومعقولة جدا • ولقد كتب السيد (جونسون) في مكان آخر يقول « ان من المفيد حقا النظر الى الفن والعلم وكأن كلاهما يسعيان الى ايصال صور عقلية من خلال الاشـكال والتراكيب والزخارف في المجال الكيفي للعاطفة والمجال الكمي للقياس على التناظر » • ويقول أيضا « ان المحل الذي يمكننا أن نختبر به صلاحية

ذلك (الطراز) من الافكار التي يعرضها لنا العالم هو ان شكلها يجب أن يجعلها قابلة للايصال » • ان الفرق بين (الكم) و (الكيف) هو الذي يحدد الحقول المختلفة للشعر والعلم ، ويظهر التأكيد على القابلية في ايصال نقطة الاهتمام المشتركة بينهما فان كنتم ما تزالـــون تفضلون النظر الى العلم كنوع من المعرفة (والى الشعر في أحسن صوره كنوع من أنواع ـ المعرفة المزيفة ـ) فلن يستطيع أن يمنعكم احد من ذلك ولكنكم ستكونون كمن سار تفكيره على نهج لايرتضيه كثير من العلماء اليوم فمثلا سأذكر لكم الان ما يقوله أحد علماء الاحياء وهو الاستاذ (ج•ز•يونك) :

« ••• يوجـد في مجتمعنا المتخصص عـــدد كبير من الافراد ممن يساهمون في خدمة المجموع عن طريق دراسة وسائل الاتصـــال نفسها ، كالفنانين ، والكتاب ، والنقاد ، والمفكرين مثـــلا • ويمكننا أن نصف فعاليتهم بلغة موضوعية أيضا فما الفنان الخلاق الا مراقب يعمل فكره بطرق جديدة تمكنه من نقل المعلومات للآخرين خاصة عن مواد لم تكن قبلا موضوعا للاتصال ، اننا انما نشحذ قوانا الخاصة بالملاحظة عن طريق البحث في طرق الايصال وتتساوى في هذا الخصوص اكتشافات كل من الفنان والعالم •

ويخيل لي أن المشكلة العظمى التي تجابهها اليوم تلك العلوم التي لا تستطيع استخدام لغة الرياضيات هي مشكلة ايجاد لغة أقدر على ايصال أفكـارهم • وهي مشـكلة يزيد قانون النسبية في تعقيـدها كثيرا وحتى بالنسبة للعـالم الرياضي ، وهو القانون الذي ينص عـلى ضرورة مراعاة التغييرات الضرورية عند البحث في أية مجموعة من الاحداث اذا أريد لهـا أن تكـون صحيحة بالنسبة للقائمين بالملاحظـة حيثما كانوا وبأي اتجاه تحركوا وبأي سرعة ساروا • اننا كثيرا ما تصادف تعبيرات مماثلة للتعبير الآتي في كتابات العلماء : ((ليس للمتخصصين في دراسة وظائف الاعضاء بصورة عامة أي أسلوب معترف به للتحدث عن هذا وذاك)) فهم يزعمون بأن الوصف الدقيق لافكارهم جزء من النظام الذي يتطلبه الاكتشاف • فاذا ما اهتدينا الى الاسلوب الصحيح في وصف عملية ما تمكنا من زيادة معلوماتنا عن تلك العملية • وهنا يبدو التقارب بين الاسلوب الشعري والطريقة العلمية الحديثة على أشده ، فالشاعر اليوم يشبه العالم في اعتقاده بأن عمله نوع من الاكتشاف وليس كل الشعراء يهدفون في جميع قصائدهم الى رواية تجاربهم والاهتداء الى تفهم أكبر للنفس ، ولكن قسما كبيرا منهم يفعل ذلك في معظم قصائدهم على الاقل • ان مشكلة الاتصال عند الشعراء هي أن يميل الشاعر الى ايصال بعض الاشياء الى نفسه ، فاذا ما نجح في ذلك فانه سيحاول ايصال بعض الاشياء ـ ولو انها ليست الاشياء الاولى بالضبط ـ الى القارىء ويبعد أن تكون فكرته عن الشعر بأنه ضرب من ضروب التقليد للطبيعة أو للاعمال الشعرية أو للفضائل • بل أنه يرى

فيه نوعا من التنظيم الجديد للخبرة أو كعملية يتم فيها اكتشاف القيم الرمزية لذكرياته .

ولا أريد أن تنسوا ما يضيع منا عادة بين طيات النظريات الخاصة بالنقد الا وهو كون الشاعر شخصا خلاقا . فهو عندما ينغمس في الصناعة الشعرية الخالصة غير البسيطة ويتأرجح بين السرور المفرط والالم العميق وهو ما يصاحب صناعة القصيدة ، فسيصبح الى حين غير شاعر بالباحث عن المعرفة والذي يقف بين يديه . فالشاعر ما يزال صانعا قبل كل شيء ، ولكن فكره يبدو (ان خيرا أو شرا) منغمسا في تحقيق رغبته الملحة في زيادة ادراكه بنفسه وبمقدار من التعقيد أكبر مما حققه أسلافه . ومن مظاهر ذلك هو عدد القصائد التى تكتب اليوم والتي هي في الحقيقة قصائد تبحث في موضوع الحس الشعري والعمل الشعري .

ليست المرحلة الاولى في صنع القصيدة الا نوعا من التخبط في الظلام فلنتدبر مثلا الطرق الكثيرة التي يحتمل أن يتم بهـا خلق قصيدة مثل (الحاصدة) فقد يكون للشـاعر في البـداية احساس بشكل معين من الاشكال الشعرية ، ويكون تركيب ذلك الشكل وايقاعه الموسيقي قد ملأ رأسه وملك عليه حواسه مدة طويلة وكأنه أغنية بلا كلمات تدعوه الى وضع الكلمات المناسبة لها . أو انه قد يقول لنفسـه : (لقـد كتبت كثيرا من الشعر المرسل هذا العام ، ويلزمني بعض التغيير . فلماذا لا أحاول كتابة المقطوعات الشعرية ذات الابيات الثمانية والتي يتـألف وزنهـا من أربـع ضربات للبيت الواحد) .

أو ربما تؤدي عبارة قرأها في أحد الكتب الى اثارة الحس الموسيقي فيه ، أو ربما توحي له ببيت كامل من الشعر . بل قد تخلب لبـه صورة في مجموعة من الصور (ألبوم) أو ربما أخـذ في تأمـل حادثة من حوادث الماضي بدأت فجأة له بمظهر معقد . فقد يكون لمفتاح السر (أو الهبة) أو أي شيء اخر ، علاقة بديهية بما كان يشغل الشاعر في ذلك الوقت ، أو قد تبدو العلاقة معدومة أصلا .

فالشاعر يثبت مفتاح السر هذا في اخر البيت وكأنه طعم يرميه في بحر خبراته ، وفي سـكون يقظ ينتظر ما قـد يتحد بالطعم . فما تراه يصيد ؟ . ذكريات أو صور شعرية أو عبارات ؟ فيصعد عدد كبير منها الى شباكه ولكن معظمها يجب أن يرمى الى البحر ثانية لانها مضـللة أو غير ملائمة أو لا يمكن الأخذ بهـا ولكن بالنسبة لماذا ؟ بالنسبة للزخرف أو الشكل الذي بدأ يتكون في ذهن الشـاعر . وهـو الزخرف الذي ما يزال مجرد اشارة تكشف لنا بعد ذلك عن موضوع القصيدة ـ ولو فرضنا بأن موضوع القصيدة هو فتاة تقوم بجني الحبوب في الحقل ، وحيدة وهي تغني لنفسها . وهنا ينبغي للشاعر اكتشـاف معنى ذلك بالنسبة اليه وهـذه الخبرة (سواء أكانت خبرة وقف عليها بنفسه أم بواسطة شخوص أخر)

المتجسمة في هذا الموضـــوع تحتمل عـــدة تفاسير والتفسير الذي يقترحه الشاعر في النهاية هو موضوع القصيدة •

اننا مضطرون الى الكلام عن العملية الشعرية عن طريق المجاز ففي تلك المرحلة المتقدمة يكون الشاعر قد شرع في بناء دار مستعينا بجزء صغير فقط من خريطة توفرت لديه أو قبل أن يفرغ من رسم الخريطة ، أو بخرائط كثيرة في متناول يده • فاذا كان ملزما باتباع هذه الطريقة في العمل الذي لا يكاد يسد بها رمقه فليس ذلك الا لان الفكرة أو الشكل الفني هما بالنسبة له كل لا يتجزأ ولان القصيدة نمو عضوي يكشف الموضوع فيه عن نفسه وذلك عن طريق الزخرف المتنامي فكأن لسان حاله يقول : (كيف أستطيع أن أعرف قصدي قبل رؤية ما أقول ؟) • ان معظم القصائد التي تخفـق وتشـــتط انما تفعل ذلك بسبب عجز الشـــاعر عن استخلاص الموضـــوع المناسب ، أو استخراجه كاملا من المادة المتهيئة له •

ففعاليته في المراحــل الاولى لصنع القصيدة تعـــادل ما يدعوه الاستاذ (يونك) بـ (الشك) في البحوث العلمية ، اذ انه تشكيك صارم بالحقائق الاوليــــة (Data) تلك الحقائق التي تضم الموضوع الاصـــلي للقصيدة من بين خبرات الشاعر في الحياة • والزخارف الشكلية التي يتخذها الشاعر لتنظيم قصيدته وفقها ، وليس هذا التشكيك بالنسبة للشاعر أو العالم الا مجهودا فكريا شاقا • اذ يجب أن يبرر وجوده كما يقول (مارتين لويس) بواسطة التجانس والوحدة التي تكشف عنهـــا الافكار المراد نقلهـــا والتي توحي بها زخارفه • ويمكننا أن نحقق التجانس في الشكل عن طريق القافية والوزن وموافقة اللفظ للصور الشعرية ولكن التجانس في الشكل يصبح عديم الفائدة ما لم يكن تجانسا قائما حول موضوع بليغ جلي التعبير ، فان هذا الاخير وحده يمكن أن يضفي المعاني الشعرية على الخبرة ، وبهذا ينقل لنا حالة عقلية فريدة •

وتلعب اللغة في هذا التشكيك دورا غاية في الاهمية ، فيجبر الشعراء على التخلي عن لغة أسلافهم أو يجبر الشاعر على تغيير أسلوبه تغييرا جذريا لان اللغة أداة للتقصي الشعري وهي سرعان ما تصبح عديمة التأثير • اننا لو كتبنا باسلوب (هريك) أو (براونك) مثلا ، فسنجد أنفسنا نسعى الى تقليد الحالة العقلية لـ (هريك) أو (براونك) ولكن بصورة هزيلة • ولو انني أجريت تنقيحا على لغة خاصة بي فرفعتها الى درجة الكمال ، فقـد أضطر الى التخلي عنها وذلك لان كمالها يؤدي الى التبسيط وهو من أعظم الاخطار التي تهدد الشاعر • فالاصطلاح الشائع جداً هو كالطريق النهري ، يبتعد بخطوات الشاعر دون احساس منه ، عن الموضــوع الذي يجب أن يكون موضع بحثه ويذهب به الى موضوع شائع مستنفد المادة وانها لحقيقة غريبة أن يحتاج الى اداة (وهي اللغة) تعاكسه وتقاومه وذلك ان أراد منها

أن تنفذ الى الاعماق وتكشف جانبا حيسا جديدا من المعاني المختلفة التي تضمنتها خبراته •

لقد وصفت المراحل الاولى في صنع القصيدة بالتخبط في الظلام والان أريد مناقشة ثلاث عبارات هي :

١ ـ الحالة التي يسودها توقع خيالي مشوش والتي تسبق التعميم الاستقرائي الناجح •

٢ ـ لم تكن هنالك أسئلة معينة ألقيها على نفسي ، ولا أهداف خاصة أضعها نصب عيني وأمعن فيها تفكيري وانما كان هناك اضطراب عقلي لا شكل له ولا هدف • فكأنني أصارع الضباب وحري الان أن أعرف بأن هذه الحالة تحصل دائما عندما أبدأ فيمعالجة مشكلة منالمشاكل• ولن أعرف تلك المشكلة حتى أكون قد صرفت وقتا طويلا في سبيل حلها •

٣ ـ أما بالنسبة له •• فلم يكن التركيب النهائي للزخرف قد عن لخاطره بصورة خاطفة ، بل أنه توصل اليه بحذر كبير فكأنه صيد يقوم بمطاردته تارة من هذه الجهة وأخرى من تلك وهو يخشى دائما أن يكون التعريف المتيسر له سببا في حرمانه بعض الشيء من التعقيد الكلي له •

ان هذه العبارات الثلاث ، والتي يمكن أن توضح لنا بجلاء الاحوال التي تسود عند الشروع في نظم القصيدة هي في الحقيقة لـ (أ• ان•هوايتهد) وللفيلسوف المؤرخ (ار• جي• كولينج وود) ومن مقاله عن (سيزان) لـ (روجر فراي) فعبارات « حالة التوقع الخيالي المضطرب » و « الاضطراب العقلي الذي لا شكل له ولا هدف ، وكأني أصارع الضباب » الصادرة من استاذ العلوم الرياضية تبعث الشعور بالرضى في نفس الشاعر فكلاهما يبدأ عمله في حالة من الارتباك والتشويش ، وان عبارة « فأنا لا أعرف ما هي المشكلة حتى أكون قد أمضيت زمنا طويلا في حلها » • تصح تماما على كتابة القصيدة أيضا حتى ليمكننا أن نقول : « فأنا لا أعرف ما القصيدة حتى أكون قد أمضيت في كتابتها زمنا طويلا » وأما مطاردة (سيزان) لاشكاله بحذر ، وخوفه من أن يكون تحديده المبتسر لها سببا في حرمانها بعض الشيء من التعقيد الكلي • فهو شيء جربته بنفسي ، فكم من مرة أدى بي الجزع وقلة الصبر الى كتابة قصيدة قبل أن تنضسج تماما فأخطأت الهدف أو على الاقل أصابت جانبه فقط •

وان الاستعارة التي تضمنتها كلمة (مطاردة) لتذكرنا باسطورة الـ (البليروفون Bellerophon و (البكاسس (Pegasus أو الفرس المجنح • اذ لابد أن تتذكروا كيف قضي البليروفون نهارا كاملا بذل فيه كل ما لديه من جهد لاصطياد الحصان المجنح • وكيف أن الحصان كان

يغفلت منه طوال الوقت • وبينما كان نائما ذات ليلة رأى في منامه أن آلاهة الحكمة أهدته لجاما ذهبيا • فلما استيقظ وجد اللجام بجانبه ، وفي الحال أسلم الحصان المجنح رقبته الى ذلك اللجام • وهكذا يجب على الشاعر أن يمارس جميع مهاراته اذا كان يهدف التوصل الى موضوعه والارتقاء الى الاجواء العالية بواسطة وحيه ولكن المهارة وتكريس الجهود ليس بحد ذاتهما كافيتين وبدونهما طبعا لا يحصل الشاعر على اللجام السحري • اذ يستطيع الانسان أن يتصور اللجام سحرا نسجته مناوراته البارعة ولكنه مهما كان حريصا وممعنا في استخدام جميع قواه ، فان اللجام قد لا يأتي اليه فهو يحتاج الى الحظ أي رعاية الآلهة •

أليست هذه الاسطورة صحيحة ؟ ليس فقط فيما يخص مكتشفات الفنان بل مكتشفات العالم والمؤرخ والفيلسوف ؟ فهؤلاء ، ينبغي أن يبذلوا جهدا كبيرا قبل أن يصبح في مقدورهم اتخاذ الخطوة الخيالية اللازمة ، وليس هناك مقدار معين من الجهد الشاق يمكن أن تضمن به القفزة التي نحتاج الى القيام بها ، وعندما تحصل تلك القفزة فعلا ، فانها في الغالب تكون في الظلام أو من الظلام أن شئتم فالعالم الرياضي (بوانكرة) يصل الى حل مشكلة من المشاكل وهو يصعد الى عربة ويفكر في أمور أخرى • وفجأة يرى (ككوله) وهو يصعد الباص في لندن ذرات الكاربون والهيدروجين التي كانت تعرف سابقا بالكاربونات المائية وتتصل ببعضها مكونة سلسلة طويلة ، ومن ثم يراها في المنام وهي ترقص في حلقة وتتصل ببعضها مكونة حلقة البنزين وقد يبدو ادراك الشاعر لموضوعه سريعا وآنيا ، ولكنه في الحقيقة خاتمة لعملية متدرجة كما أن ادراك العالم للعلاقة التي تربط بين الحقائق المتعاقبة يسبقه جمع أو تكديس لتلك الحقائق ، وتصنيفها وتنظيمها ثم فحصها بصورة دقيقة • بل أكثر من ذلك ليس من الحكمة معادلة النشاط العلمي بما ندعوه بالعقل ، والنشاط الشعري بما يدعى بالخيال • فبدون القفزات الخيالية من صعيد الحقائق الى صعيد التعميم لا يمكن تحقيق الاكتشافات النظرية في العلم(١) •

أما الشاعر من الناحية الثانية ، فيجب أن لا يعتمد على التصور فحسب ، بل على التفكير أيضا • وهذا يعني أنه يجب أن يستخدم مقدارا كبيرا من التفكير الواعي الموجه في اختياره للمعلومات الاولية ورفضه لها • ففي اختياره الكلمات الشعرية وايقاعها وصورها يوجد نوع من المنطق الفني الآلي ، والتفكير الشعري الذي يتم عن طريقه للقصيدة وحدتها وتماسكها وبهذه الصورة نفسها يجب علينا التروي لغرض تجنب مثل هذا التفكير الذي يقول بأنه لما كان الشعر لغة تقوم على المجاز فان العلم يعطينا دائما عبارات نثرية مباشرة وغير منمقة • فالحقيقة هي أن جميع الوان اللغة باستثناء لغة الرياضيات تستعين باستمرار بالاستعارة • فالعالم يتكلم عن الشحنات الكهربائية وعن قوة الجذب أو (الصد) فيها ويتحدث عن المواد

وخضوعها لقانون معين • فهو يجد هذه التعابير الدالة على الحياة مناسبة لغرضه ، ولكنه يستخدم الاستعارة والتشبيه كما يفعل الشاعر أي ليس لغرض التعبير فحسب بل للاكتشاف أيضا • لقد قال (ديكارت) « دعنا نشبه الجهاز العصبي مثلا بالساعة ونرى ما تخبرنا به هذه الآلة » ، وقال (برنز) الشاعر الاسكتلندي « دعوني أشبه حبي بزهرة حمراء ولنرى ما ينتج عن ذلك » • ان العالم الذي يبحث في عالم الاحياء يشبه الدماغ البشري بالوردان الاتوماتيكي وبدالة التلفونات ، ودائرة التوزيع والدائرة الحكومية • وحتى أنه يذهب الى المهندس الالكتروني ويقول له (اصنع دماغا الكترونيا ، فقد يعلمني بعض الاشياء الخاصة بحركات الدماغ البشري) • ويخبرنا البروفسور (بنك) عن مثل هذه المقارنات ويقول : « فالمسألة تتلخص في مقارنة شيء غير معروف سلفا يمكننا من الكلام عن المجهول ، وفائدة هذه المقارنة تنحصر في انها تسهل الاتصال » •

وهذا صحيح بالنسبة للاتصالات التي تتم بواسطة العلم والشعر ، ولكن هناك بطبيعة الحال فرق جوهري بين وجهات النظر الخاصة بكل منهما •• وأعني وجهات النظر نحو التشبيه والاستعارة ، فلا يمكن أن تنسج الاستعارة الشعرية استعارة أخرى ، أو تناقضها • فعملها لا يعدو تشويه بعضها البعض • وعندما تخفق احداها فهذا يعني أنهما لم تفلح في اضفاء التماسك على الشكل العام • واذا كانت الاستعارة الشعرية صحيحة ، فانها ستكون صحيحة دائما وبالعكس فان الاستعارة العلمية كالقانون العلمي ، لا تصح الا بمقدار ما تتضمنه من حقائق معروفة وتوضحه من تلك الحقائق ، أو تجهزنا بأساليب مؤثرة للحديث عنها تنتهي بقول السير (جارلس شرينكتون) : « حيثما تتوقف معلوماتنا نلجأ الى الاستعارة في وصفنا » • ويمكن لذوي العقول البسيطة أن يتخذوا من هذا القول برهانا على أن الشعر ليس بمعرفة • ولذوي العقول الشاذة بأن يخلصوا الى القول بأن الاكثار من الوصف العلمي طراز من الشعر وسأرمى بالشذوذ ان أنا وافقت على الاقتراح الاخير الى حد ما • ولو استعضنا عن كلمة العلم بالمعرفة ، في العبارة السابقة على الاقل ، فلا أعتقد أن (شرينكنتون) سيعارض دعواي • ولقد كتب يقول بأن كلمة (أنا) لا يمكن أن تدخل مطلقا في صعيد الادراكات الحسية فهي شعور بحد ذاته •• ولكن العقل يقوم مثلا بتجربة ذاته •• وترتبط الذاكرة بتلك الخبرة • فتستطيع (الذات) أن تتذكر وان تستعيد حياتها • ويستطيع الشعر كما ذكرت آنفا أن يكون سجلا للفكر عندما يقوم بتجربة ذاته ، وبهذا يصبح سبيلا للتعلم الافضل ولتفهم أمزجتنا ومشاعرنا وعواطفنا ولقد كتب (شرنيكتون) في مقطع بليغ لاحدى محاضراته التي ألقاها من أجل (كمفورد) يقول : « يسير العقل ، اذن في عالمنا المكاني ، كالطيف أو أكثر ، ان كان لادراكنا أن يحيط به » فهو غير مرئي ولا يمكن ادراكه بالحواس الخمسة ، اذ أنه شيء عديم الحدود • بل أنه ليس شيئا ••

وسيبقى فوق تصديقنا الحسي ، والى الابد واذا جردناه تماما فلن يبقى منه الأ نفسه • وماذا يعني هذا اذن ؟ انه يعني كل ما له قيمة في الحيـــاة كالرغبة والحماس والصدق والحب والمعرفة والقيم •• » •

ولقد حاولت أن أشير الى بعض التقارب الموجود بين الاسلوب العلمي والاسـلوب الشعري ، وسأنتقل الان الى مواضيع هي موضـع جدل أكبر تنحصر في السؤال عن الفـائدة التي يمـكن للشاعر أن يحصـل عليها من النظرية العلمية أو العلم التطبيقي ان كان ثمة فائدة فيها ؟ ففي المقدمة التي كتبها (ورد سورث) للطبعـة الثانية لـ (قصـائد البسالاد الوجـدانية) (Lyrical Ballad) هناك مقطعان مشهوران • الاول : « يكتب الشاعر وهو خاضع لقيد واحد فقط ، الا وهو ضرورة اعطاء المتعة المباشرة (للانسان) الذي يمتلك تلك المعلومات التي يمكن أن نتوقعها منه ، ليس كمحامي أو طبيب أو بحار أو فلكي أو عالم طبيعي بل كانسان فقط » • والقطعة الثانية : « ان أبعد الاكتشافات الكيمياوية أو المختصـة بعلم النبـات أو المختصـة بالمعادن ، تصبح من أكثر المواد المناسبة لفن الشاعر شأنها شأن أي مادة أخرى يمكن أن يستخدمها » • ويبدو هذا مناقضا لما قاله (ورد سورث) توا • ولكنه يمضي فيقول : « اذا ما جاء الوقت الذي تكون فيه هذه الاشياء مألوفة لدينا وأصبحت العلاقات التي بموجبها قام رواد هذا الكلام بالتفكير بها ، مادية بشكل واضح يمكننـا أن نستسيغه نحن البشـر الضـاحك الباكي » •

ولست أعتقد بأن النقد الادبي أو فن الجمال منذ أيام (ورد سورث) وضع قاعدة في هذا الموضوع أكثر دقة من هذه • فلابد للمعلومات العلمية أن تصبح معلومات عامة لكي يتمكن الشاعر من استخدامها فمثلا كما قال أحد النقاد المعاصرين بجرأة وصراحـة : « من الضروري أن نهضـم مكتشفات فرويد هضما كليا » •

وقد يحتج العالم على هذا النوع من الاستعمال لانه يعني تبسيطهـــا وتشويهها ، ولكننا يجب أن نغض النظر حاليا عن مثل هــذا الاحتجاج ، ويجب أن نستثني من هذا البحث أيضا مجرد نظم المعلومات العلمية شعرا • فليس من المحتمل اليوم أن ينظم أحد أبياتا عن كتــاب (حيـاة النباتات) لـ (أراسمس داروين) ولكن معظم الشعراء يتأثرون بأفكار عصرهم • ولابد لهم جميعا أن يستجيبوا لاجواء العصر • فعصرنا كما يخبرنا عنه جميـــع الناس عصر العـلم ، وقـد تخلت النظـرية العلميـة عن شيء من صرامتها الميكانيكية التي أثارت اشمئزاز (تنسيون) عندما حاول أن يسوي الخلاف بينه وبين العلم • وينبغي أن يكون في استطاعة الشعراء ، بل من المفيـد لهم ، أن يدنوا من المادة الغزيرة التي جمعها العلماء •

وبعملهم هذا تجابههم عقبتان ، الاولى هي أن المادة العلمية غزيرة جدا الى درجة انها تتطلب تخصصا أكبر • فلا يمكن لاحد اليوم أن يفعل ما نعله

(همبولد) قبل مائة وخمسين عاما بأن يهدف الى ابراز الجانب الفيزياوي للكون بأسره في مؤلف واحد • ومن المظاهر القديمة التي أصبحت في عداد الماضي أيضا تفاؤل الهواة الذي جعل (الان سجك) (Alan Sedgwick) يسعى الى الفوز في الانتخابات عام ١٨١٨ للحصول على كرسي (وودورد) المخصص للجيولوجيا في هذه الجامعة في الوقت الذي كان يعترف فيه بجهله المطبق في هذا الموضوع • فلقد قال : « لم يسبق لي حتى هذه اللحظة أن قلبت حجرا واحدا ، ولكني لن أترك بعد الآن حجرا الا وقلبته » فكيف يستطيع الشاعر اليوم أن يستخرج نظاما كونيا من العلم ، عندما يكون ذوو الاختصاص العلمي أنفسهم يعملون على انفراد في حقول ضيقة تبدو في ظاهرها مستقلة كل الاستقلال • ومع ذلك فاذا كان الحقل الذي يعمل فيه الشاعر هو العقل البشري وقيمه واذا كانت العقلية البشرية تتأثر الى حد بعيد بالنظرية العلمية والصناعية الفنية الحديثة ، فعلى الشاعر الذي يرغب في القيام باكتشافاته أن يدرس ذلك البلد المتغير الذي يعيش في وسطه • وربما استطاع أن يقوم بذلك على أحسن وجه اذا كان يشاطر العالم في نظرته الى الطبيعة باعتبارها تعمل وفق قوانين الضرورة الصارمة غير عابئة بفكرة الانسان القائلة بأنه يشكل حالة خاصة وهي النظرة التي جعلت هوايتهد يعلن « بأن رواد الخيال العلمي كما هو في الوقت الحاضر هم (اسكيليس) و (سوفوكليس) و (يوريبيديس) » •

أما العقبة الثانية التي تواجه الشاعر فهي عقبة فنية أشير اليها في المقطع الذي اقتبسته من مقدمة ديوان (ورد سوث) • فلو أن الشاعر حاول أن يقيم الاستعارات المجازية على أبعد الاكتشافات في الكيمياء وعلم النبات ، وعلم تحليل التربة المعدنية كما فعل الشعراء في الثلاثينيات من هذا القرن اذن لتعرض لخطر الاستعارات البعيدة المضحلة وما لم تصبح معالم الفنون الصناعية الحديثة جزءا من الحياة في المدينة وخارجها فمن الصعب جدا هضم هذه المعالم داخل القصيدة • لانها سوف تكون خالية من المعاني والاحساسات الثانوية ، والتي هي أشبه بالتربة العميقة التي تتراكم خلال فترات طويلة من التلميحات العاطفية والحسية والتي قد ينبع منها الشعر • ومما لا شك فيه أن القصيدة التي يقوم التشبيه فيها على ماكنة الاحتراق الداخلي يمكن أن تؤدي معاني أكثر للقارئ العام من القصيدة التي تستخدم الاستعارات القائمة على فلق الذرة • ومع ذلك فينبغي على الشعراء أن يقتفوا أثر علماء الصناعات الفنية أمدا طويلا ليستعيدوا منهم المعاني والافكار أما بالنسبة للنظرية العلمية فالمشكلة أكثر تعقدا • اذ يحتاج الشعر على العموم ، الى أساس ثابت من الافكار وذلك لكي يستند عليها في تحليقه في الاجواء الرفيعة • ولكننا نجد اليوم لاسيما في حقل الفيزياء العظيم تغييرات مستمرة في النظرية العلمية وتحويرات كبيرة فيها •

ومع ذلك فمن الممكن اقتباس الافكار العلمية وهضمها في داخل

المعرفة الشعرية وذلك كما يظهر من قصائد (أدوين) و (وليلم اميسون) و (كاثلين رين) واخرين من شعراء هذا العصر . ولقد أثبت التشبيه المستقى من العلم بانها مفيدة أيضا في حقل النقد الادبي ، فمثلا يقترح البروفسور (جورج هويلي) في كتابه القيم الموسوم بـ (الطريقة الشعرية) تشبيه (الوجه الداخلي (Interface) لتوضيح وجهات النظر المتعددة تجاه الواقعية بالنسبة للشاعر والمتصوف والرجل الاعتيادي ، فلقد استعمل (شرنيكتون) كلمة (Interface) لوصف سطح الارض (حيث تتلاقى حالات من الصلابة والسيولة والغازية) وحيث (توجد فرص خاصة لحدوث التفاعل) . ويطلب منا الاستاذ (هويلي) تصور اجتماع الانسان والطبيعة (الفاعل والمفعول به) واحتضان أحدهما للآخر فوق هذا السطح الداخلي وهو يقول بأن : « الحياة والمعيشة المجردة تجري على هذا السطح » ، وان الانسان يجتمع فوق هذا السطح بالطبيعة فيؤثر في شكلها ويتأثر به .. وتتراكم جميع القيم فوق هذا السطح ولا يمكن العثور عليها في أي مكان اخر .. ويعني (انشغالنا بأعمال فوق السطح الداخلي اننا مشغولون حقيقة بالواقع . فهدف الشاعر كما يقول (بروفسور هويلي) هو أن يكشف لنا عن (حقيقة الامور) عند هذا السطح الداخلي . أما أنا فأجد هذا القول المأثور الذي لا أستطيع أن أورد منه أكثر من هذه الصورة العابرة وسيلة مفيدة جدا في الكلام عن الشعر . فكلمة (الواقع) تنطوي على أخطار كثيرة . ولكننا عند الكلام عن حقل الشعر وأغراضه لا نجد مفرا من تجنبها ، لان الشعراء الذين لا يعنون باستقصاء كنه الحياة والمعيشة المجردة بشكلها الحافل العنيف ، لا يمكننا تحسسها ، يدفعنا الى التساؤل عن الغرض الذي يكتبون من أجله . ان مهمتهم في الحقيقة تنحصر في ابراز الجانب المهم من احداث الحياة الاعتيادية جدا ، وهي تزداد أهمية عندما يتضاءل الانسان وكوكبه بالقياس لابعاد الزمان والمكان الهائلة التي كشف عنها العلم وقد عبر أحد الكتاب عن ذلك بقوله : « لايوجد أي قانون ثابت يقول بأن المشاهد التي فرضتها الاقدار في لحظة من الزمان على نفحات متطايرة من النجوم ليس لها أية أهمية خاصة » .

واذا كان الدين هو السبيل الى اقناعنا بالاهمية الاساسية للمشهد الانساني ، فان الشعر والفنون الاخرى يمكنها امداد بعض الناس على الاقل بالاحساس بأهميتها وخطورتها .

وربما كان هذا المجال هو الذي يبرز فيه الشعر كأداة للاصلاح ، وكجزء متمم للعلم . فعندما يقول لنا العلم بأن المجموعة الفلكية التي تنضم اليها مجموعتنا الشمسية هي من الضخامة بحيث يستغرق الضوء الذي يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، بين ٦٠٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ سنة لكي يقطع المسافة الواقعة بين طرفي تلك المجموعة ، فاننا نتقبل هذه الحقيقة ، ولكننا لا نجد فيها أي معنى لانها خارجة عن مدى ادراكنا العقلي

والقلبي . وعندما يقول لنا العلم بأن المخلوق البشري يحتوي على (١٠٠٠) مليون وحدة قياسية ، جميعهـا تتمتع بالحيوية ، أو (أن للعين البشـرية المجردة ١٣٧ مليون عنصر من عناصر الرؤيا منتشرة فوق سطح الشبكية) فإن دهشتنا العقلية والشعورية لا تقل عنها في الحالة الاولى .

لقد روعت المكتشفات العلمية الانسان بهولها ودقتها فهي تصعب حتى على التصور ، ولكن ألا يمكن للشعر أن يصبح وسيلة ميسورة للتوسط بينها وبين خيالنا أو لقياسها بما يجعلها قريبة من ادراكنا الخيالي . ولنتذكر قصة (برسيوس) الذي لم يكن بمقـدوره التطـلع رأسـا الى الكابوس (كوركون) دون أن يتحول الى صخرة صماء ، ولكنه استطاع النظر اليه في صورته المنعكسة على ترس اعارته اياه آلهة الحكمة .

حقا أن الصور التي يقدمها العلم للانسان عن عالمه الذي يعيش فيه ، وعن العالم الذي يكمن داخل الانسان ، لتؤلف مادة مدهشة يستطيع الشاعر أن يستعملها في وساطته وان تعذر وجود الشاعر الذي يستطيع أن يتأملها ويعطيها المعاني الخيالية اللازمة ، فان ذلك ليدعو الى الاسى وسواء كان الشاعر يحاول بلوغ هذه القمم ، أو الاعماق ، أو اعطاء أهمية لمظاهر الحياة الاعتيادية فسيبقى الشعر يضم بين ثناياه نوعا من الروحانية ، وانعكاس النفس فيما يدعى بعالم (الجماد) . وسيتخذ هذا الانعكاس بلا شك شكلا دقيقا واعيا :

تنادي الزهرة الحمراء :
أنهـــا قريبـــة !
أنهـــا قريبـــة !
والزهرة البيضاء تنحب وتقول : (انها متأخرة) .

ان البون شاسع بين هذين البيتين ، والبيتين الآتيين لـ (تي . اس . اليوت) :

كان للاوراد
مظهر الازهار التي حضيت بالنظر .

ولكن كـل من اليـوت وأزهاره المصطنعـة و (تنسيون) وأزهاره الرومانتيكية يمدنا بالمعرفة الخاصة بحالة فكرية معينة .

لقد استشهدت فيمطلع محاضرتي هذهبكتاب منالعلم للجميع صدر في ١٨٩٢ . ولكن اسمحوا لي الان أن أستشهد بكتاب عن العلم الشعبي نشر في السنة الماضية . فقد كتب (ريتشارد كارينكتون) في كتابه الموسوم بـ (الدليل الى تاريخ الارض) يقول : أن العلم والفن والدين بعد تطورها من مكانتها الاولى في ذهن الانسان البدائي وتحولها الى تبصر جديد هي عمليات لا يمكن تجزءتها عن بعضها . فجميعها وسائل تؤهلنا الى المعرفة وسـوف تعمل على تحطيم الحدود المصطنعة بين الشعر والعلم تلك الحدود التي لا

يمكن تبريرها ، والتي لسوء الحظ لا يزال نظامنا التربوي الحديث يحتفظ بها • وسـوف نجيب عن السؤال الاخر الذي بدأت هـذه المحاضرة به أو نتخلص منه ، الا وهو : هل الشعر وسيلة أم غاية ؟ •• أن كل شـاعر يعرف بأن قصيدته هي غاية في نفسها ووسيلة أيضا لاكتشافات أخرى فقد قال (ولتر بيتر) : اننا اذا نظرنا الى الحياة بروح الفن ، فاننا سنجعل الحياة شيئا تتساوى فيها الغايات والوسائل(٢) •



(١) وجد (كوبر نيكس) بن مدارات الكواكب السيارة تبدو بصورة أبسط لو نظرنا اليها من الشمس بدلا من الارض • ولكنه لم يصل الى هـذه الحقيقة بادىء الامر بطريق التخمين الاعتيادي • فقد كانت خطوته الاولى عبارة عن قفزة في الخيال • أي انه رفع بنفسه عن الارض ووضعها بكل وحشية ، وبصورة تأملية فوق الشمس • (جي • برونوسكي)

(٢) القيت محاضرة هنري سيدويك التذكارية هذه في كليـة (نيوهام) في كمبردج في ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٦ •

الأم البيضاء

١٨٦٣ ـ ١٩٣٧

بقلم : الكاتب الروسي ثيودور شولوغوب

ترجمة : عبد الوهاب الأمين

كان عيد الفصح على الأبـــواب • وكان « اسبركسوستا نتينوفتش ساكسولوف » في حالة انزعاج وقلق • ويبدو أن هذه الحالة قد اعترتــه في اللحظة التي سئل فيها ، وكان في دار آل « كورديشيف » :

ـ أين ستقضي العيد ؟

وقد تأخر « ساكسولوف » في الجواب لسبب ما • فقالت سيدة الدار وكانت سمينة قصيرة النظر كثيرة الضوضاء :

ـ تعال عندنا

وانزعج « ساكسولوف » • هل كان ذلك يا ترى بسبب البنت التي كانت تحدجه النظر عندما نطقت أمها بتلك الكلمات ، ثم حولت نظرها فجأة واستأنفت حديثها مع الاستاذ المساعد الشاب ؟

لقد كان « ساكسولوف » لائقا للزواج في نظر أمهات الفتيات الناضجات، وكانت هذه الحقيقة تثيره وتزعجه • فقد كان يعتبر نفسه عانسا وان يكن عمره لا يزيد عن سبعة وثلاثين عاماً •

ـ شكرا • اني اقضي هذه الليلة دوما في البيت • فنظرت اليه البنت مبتسمة وقالت :

ـ مع من ؟

فأجاب « ساكسولوف » وفي صوته شيء من الدهشة :

ـ وحـــدي !

فقالت السيدة « كورديشيف » وهي تبتسم ابتسامة مرة :

— يا لك من حاقد على البشرية !

كان « ساكسولوف » يحب حريته . هناك بعض الأحيان التي عجب فيها كيف قارب في بعض الاوقات أن يتزوج . لقد تعود الآن على شقته الصغيرة المؤثثة بأسلوب شنيع ، وتعود على خادمه الخاص « فيدو » العجوز الحكيم وزوجته « كريستين » التي لا تقل عنه كثيراً في العمر والتي تطبخ له غداءه واقتنع اقتناعاً تاماً بأنه لم يتزوج لأنه أراد أن يخلص لحبه الأول . ان قلبه في الواقع قد أصبح بارداً من جراء عدم الاكتراث الناجم عن حياته المنفردة التي لا غاية لها . لقد كان مكفي المؤونة ، توفي والده ووالدته منذ زمن بعيد ولم يكن له سواهما من أقارب قريبين . وكان يعيش عيشة هادئة مضمونة وقد التحق بدائرة قريبة الصلة بالفن والأدب المعاصرين وكـــان يتلذذ بأطايب الحياة على الطريقة الابيقورية في حين ان الحياة نفسها كانت تبدو له فارغة لا معنى لها ، ولولا أنه حلم مرة حلماً براقاً نقياً من أحلام الانفراد ، فلعله كان يصبح بارداً تماماً ، شأنه شأن الكثيرين من الرجال .

* * *

كان حبه الأول والوحيد ، الذي انتهى قبل أن يبرعم ، يجعله في بعض الامسيات يحلم أحلاماً كئيبة وأحلاماً حلوة .

قبل خمس سنوات قابل الفتاة التي تركت أثرها الباقي عليه ، وقـــد كانت شاحبة اللون ، رقيقة ، ذات خصر نحيل ، زرقاء العينين شقراء الشعر ، وقد بدت له كأنها تقرب من المخلوق السماوي خلقت من مزيج من الهـــواء والضباب الذي أثاره القدر فترة وجيزة في ضوضاء المدنية . حركاتها بطيئة ، وصوتها الواضح الرقيق ناعم الوقع كأنه خرير ماء يسيل بلطف فـــوق الصخور .

وكان « ساكسولوف » يراها دوماً في حلة بيضاء — هل كان ذلك عفواً أو عمداً ؟ وأصبح البياض مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له من تفكيره فيهـــا . وحتى اسمها « تمارا » كان يبدو له على الدوام أبيض كالوفر على أعـــالي الجبـــال .

وبدأ يزور « تمارا » . وفي أكثر من مرة صمم على أن ينطق بتـــلك الكلمات التي تربط مصير انسان بآخر ، ولكنها كانت على الدوام تتهرب منه . وقد ارتسم في عينيها الخوف والضيق . ما الذي كان يخيفها ؟ لقد كـــان « ساكسولوف » يرى في وجهها علامات حب الفتيات ! فعيناها تبرقان عندما تراه ويعلو خديها خفر خفيف .

ولكنها في مساء لا يمكن نسيانه انصتت اليه . وكان الوقت في مستهل الربيع . ولم يبعد الزمن كثيراً عن انغلاق جليد النهر ، واكتساء الاشجار حلتها الخضراء الرقيقة . وفي شقة في المدينـــة جلســت « تمـــارا » مـــع « ساكسولوف » قرب النافذة المفتوحة التي تواجه نهر « النيفان » وبدون أن

يقلق نفسه بما سيقول أو كيف سيقول ، أخذ يتحدث بألفاظ حلوة كانت بالنسبة لها مريعة • فشحب وجهها وابتسمت كالحالمة ونهضت على قدميها ، وكانت يداها الرقيقتان ترتجفان على ظهر المقعد المحفور وقالت بنعومة وهي ذاهبـــة :

ــ الى الغـــد !

وجلس « ساكسولوف » طويلا يتطلع متوجسا الى الباب الذي أخفاها ، وكان رأسه يدور وقد لفت نظره غصن من الليلاق الابيض فأخذه وانصرف دون أن يودع مضيفيه •

ولم يستطع النوم ليلا • فقد ظل واقفا قرب النافذة يتطلع الى الشارع المظلم الذي أخذ يدب فيه الضياء كلما اقترب الصباح ، وهو يبتسم ويلاعب غصن الليلاق الابيض، وقد أحس كأن ذلك اشبه بأن يكون ساذجا وسخيفا ، فاستحم وأحس بالماء يعيد له كل قواه تقريباً وذهب الى « تمارا » •

وهناك أخبروه بأنها مريضة فقد أصابها البرد في موضع ما ، ولـــم يرها ساكسولوف بعدها قط • فقد توفيت في خلال اسبوعين ، ولم يذهب الى جنازتها • ولعل موتها لم يهزه ، ولم يدر آنذاك ان كان يحبها أم أن الامر لا يعدو شجناً قصيراً مرت به الأيام •

وأخذ في بعض الاحيان يحلم بها في الاماسي ، ثم أخذ خيالها يذوي • ولم تكن لديه صورتها ، ولم يذكرها الا بعد سنوات عديدة في خلال الربيـع الاخير عندما ذكره بها غصن من الليلاق الابيض كان موضوعا من نافذة أحد المطاعم فبدا له ناشزاً حزيناً بين أطايب الطعام • ومنذ ذلك اليوم أخذ يطيب له التفكير في « تمارا » في الاماسي • وعندما يأخذه النعاس كان يحلم بأنها قد جاءت وجلست قبالته ونظرت اليه نظرة ثابتة فيها حنان وكأنها تطلب منه شيئا • وقد آذاه وآلمه في بعض الاحيان أن يتحسس نظرة تمارا المتطلعة •

والآن ، وهو يترك آل كوروديشيف ، طرقه تفكير عميق فأخذ يقول لنفسه :

ــ سوف تأتي لتحييني تحية العيد • وكان الخوف والوحدة يضغطانه حتى لقد سأل نفسه ــ لماذا لا أتزوج ؟ فاني لن اضطر حينئذ الى أكـــون منفرداً في الليالي المقدسة ؟

وطرقت فكره « فاليريا ميخالوفنا » وهي بنت آل « كوروديشيف » • ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت أنيقة على الدوام ، وقد بدا لساكسولوف انها تميل اليه وانها لن ترفضه اذا تقدم بطلب يدها •

وفي الشارع صرف نظره الزحام والضوضاء ، واختلط في ذهنه تفكيره بيت آل كوروديشيف، بما اعتاد عليه من التشكك والكلبية• ثم هل يستطيع أن يتنكر لذكرى تمارا في سبيل أية امرأة سواها ؟ وتصاغر الكون كله في نظره وبدا محتوى وحي حنينه الى تمارا ــ وتمارا وحدها ــ لكي تأتي وتحييه تحية عيد الفصح •

وعاد يفكر مرة أخرى :

ــ ولكنها ستعود مرة ثانية فتنظر الي نظرة التطلع تلك · ما اصفى والطف تمارا ! ماذا تراها تريد ؟ هل ستقبل شفتاها شفتي يا ترى ؟

* * *

أخذ ساكسولوف يطوف الشوارع وفي ذهنه افكار تعذبه عن تمارا ، وهو ينظر في وجوه المارة · وقد وقرفته وجوه الرجال والنساء الخشنة ، ومر في ذهنه أنه ليس هناك من يستحق أن يتبادل وإياه تحية عيد الفصح بلذة وحب · فقد يكون هناك الكثير من التقبيل في يومه الاول ــ شفاه خشنة ، ولحى متدلية وروائحة الخمر ·

اذا كان هناك من يجب تقبيله فينبغي أن يكون ذلك طفلا · وأصبحت وجوه الاطفال تلذ لناظر ساكسولوف ·

وظل يطوف مدة طويلة ، وأدركه التعب فدخل في باحة احدى الكنائس البعيدة عن ضوضاء الشارع · ونظر اليه طفل شاحب اللون كان جالساً على مقعد نظرة ترقب ، ثم جلس بلا حراك وهو ينظر الى الامام نظرة تائهة · وكانت عيناه الزرقاوان حزينتين عطوفتين كعيني تمارا · وكان ضئيل الحجم بحيث لم تستطع قدماه ان يتدليا بل كانتا تنطان من أمام المقعد ، فجلس ساكسولوف بجانبه وأخذ ينظر اليه بتطلع مشوب بعطف ، فقد كان في هذا الطفل المنفرد ما يثير ذكريات حلوة ، ولكنه كان طفلا عاديا اذا نظرت اليه ، فثيابه اطمار ممزقة ، وعلى رأسه قبعة فرو تغطي رأسه الاشقر الصغير ، وفي قدميه حذاءان ممزقان قذران ·

جلس على المقعد مدة طويلة ، ثم انتصب واقفاً وهو يبكي بحرقـــة ، واندفع خارجاً من الباب الى الشارع رأساً ، ثم توقف وسار في الاتجاه المعاكس، ثم وقف مرة أخرى · لقد كان واضحاً أنه لا يدري الى أين يذهب ، وبكى مع نفسه بكاء رقيقاً وتساقطت الدموع الكبيرة على خديه · وتجمـــع الناس · وجاء الشرطي وسأله أين يسكن ، وأجاب الطفل لاثغاً شأن الاطفال الصغار

ــ في بيت كلولكوف ·

فسأله الشرطي :

ــ في أي شارع ؟

ولكن الطفل لم يكن يعرف الشارع وأعاد جوابه الأول :

ــ بيت كلولكوف ·

وتأمله الشرطي لحظة ، وكان شاباً مرحاً ، فرأى أن ليس هناك بيت بهذا الاسم في جوار قريب · وسأله أحد العمال الكئيبي المنظر :

ــ هل لك أب ؟

فأجاب الطفل وهو ينظر الى الواقفين بعين مغرورقة بالدموع :

ــ ليس لي أب ·

وقال العامل بمرارة وهو يهز رأسه :
ـ ليس لك أب ! يا رباه ... أليست لك أم فاجاب الطفل :
ـ نعم لي أم
ـ ما اسمها ؟
فقال الطفل متأملا :
ـ أمي .
ثم أضاف :
ـ « الأم السوداء »
فسأله العامل الكئيب المنظر :
ـ سوداء ؟ هل هذا هو اسمها ؟
فأجاب الطفل موضحاً :
ـ في البداية كانت لي أم بيضاء ، وأنا الآن لي أم سوداء .
فقال الشرطي بصورة جازمة :
ـ حسناً يا بني . لن نستطيع أن نفهم منك أولا ولا آخراً . يحسن بي أن آخذك الى مركز الشرطة فهم يستطيعون أن يعرفوا أين تسكن عن طريق التلفون .

وذهب الى أحد الابواب وطرقه ، وفي تلك اللحظة ظهر بواب يحمل مكنسة بيده فأخبره الشرطي أن يأخذ الصبي الى مركز الشرطة ، ولكن الصبي أخذ بعد تفكير يصرخ قائلا :

ـ دعوني أذهب . اني سأجد الطريق بنفسي . هل كان يخشى مكنسة البواب يا ترى ، أم أنه تذكر شيئاً بالفعل ؟ على كل حال فقد فر بسرعة فائقة بحيث أن ساكسولوف لم يعد يراه تقريباً . غير أن الصبي سرعان ما ابطأ في سيره ، وذهب في الشارع وهو يركض من جهة الى أخرى وهو يحاول عبثاً أن يجد البيت الذي يعيش فيه ، فتبعه ساكسولوف بصمت ، ولم يكن يعرف كيف يكلم الاطفال .

وأخيرا أدرك الصبي التعب . فوقف قرب عمود الضوء واتكأ عليه وقد برقت عيناه بالدموع ، فبدأه ساكسولوف بالكلام قائلا :
ـ حسناً يا بني ، ألم تستطع أن تجد البيت ؟

فنظر اليه الصبي نظرة حزينة ورقيقة ، وادرك ساكسولوف فجأة لماذا كان يتبعه بالحاح ، فقد كان في نظره ووجه ذلك المتشرد الصغير شيء شديد الشبه بتمارا .

وسأله ساكسولوف برقة :
ـ ما اسمك يا بني ؟
فأجاب الصبي :
ـ ليشا .
ـ هل تعيش مع أمك بالبيت ؟

ـ نعم • مع أمي • ولكنها أم سوداء ، وقد كانت لي أم بيضاء
وخطر لساكسولوف أنه لابد أن يعني بالأم السوداء المربية
ـ كيف تهت ؟
ـ لقد كنت أمشي مع أمي • ومشينا •• ومشينا كثيراً وقالت لي أن أجلس وانتظر ، ثم ذهبت ، وأصابني الرعب •
ـ من هي أمك ؟
ـ أمي ؟ انها سوداء وغضبى •
ـ ماذا تعمل ؟
ففكر الصبي لحظة ثم قال :
ـ انها تشرب القهوة •
ـ وماذا تعمل غير ذلك ؟
فأجاب الصبي بعد فترة :
ـ انها تخاصم سكان البيت
ـ وأين أمك البيضاء ؟
ـ لقد ذهبوا بها • وضعوها في تابوت وذهبوا بها • وكذلك الاب •• ذهبـــوا بـــه
وأشارالصبي الىالفراغ أمامه واندفع يبكي فسألساكسولوف نفسه:
ـ ماذا ترى ساصنع به ؟
وهنا اندفع الصبي فجأة يركض مرة أخرى • وبعد أن دار في منعطفات الشوارع خفف خطوة وأدركه ساكسولوف مرة أخرى ، وقد كان في وجهـه تعبير هو مزيج بين الخوف والفرح • وقال لساكسولوف :
ـ هذا هو بيت كلويكوف •
وأشار الى بناية كبيرة قبيحة تتألف من خمسة طوابق وفي هذه اللحظة ظهرت من باب بيت كلويكوف امرأة سوداء الشعر ، سوداء العينين ، في ثياب سوداء ، وعلى رأسها منديل اسود منقط بالبياض ، وتراجع الصبي خائفاً وهو يهمس :
ـ أمســاه !
فنظرت اليه زوجة أبيه وقد علتها الدهشة وصاحت به :
ـ كيف جئت الى هنا ايها اللعين ؟ لقد قلت لك أن تبقى في مقعدك ، ألم أقل لك ذلك ؟•
وكادت تضربه ولكنها ابصرت بالسيد ذي الجهامة الصارمة الذي كان يبدو كأنه يراقبها ، فخفضت من صوتها :
ـ الا يمكن أن تتركـ لوحدك نصف ساعة دون أن تفر ؟ لقد أتعبنـــي التفتيش عنك أيها اللعـــين •
وانتزعت الصبي من يده الصغيرة بيدها الكبيرة ودفعت به الى الباب •
ودون ساكسولوف رقم الشارع وذهب الى البيت •

* * *

كان يحلو لساكسولوف أن ينصت الى حكم « فيدو » الصائبة • فلما وصل البيت أخبره بقصة الصبي « ليشا » فقال له فيدو :

— لقد تركته عمداً • يا لها من امرأة شريرة ! تذهب بالصبي بعيداً عن البيت هذا البعد ؟

فسأله ساكسولوف :

— ما الذي دعاها أن تفعل ذلك ؟

— لا يمكن أن يعرف الانسان •• ما أغباها من امرأة ! لاشك أنها ظنت أن الصبي سوف يطوف الشوارع الى أن يلتقطه أحد الناس • ماذا تنتظر من زوجة الأب ؟ ماذا يفيدها الطفل ؟

فقال ساكسولوف :

— ولكن الشرطة تستطيع أن تعثر عليها •

— ربما كان ذلك • ولكنها قد تكون غادرت البلدة ، فأين يجدونها آنذاك !

فابتسم ساكسولوف وهو يفكر :

— أحرى بفيدو أن يكون حاكم تحقيق !

على أنه ، وقد كان جالساً قرب المصباح يقرأ في كتاب ، أدركه النعاس • وفي نومه حلم بتمارا — وكانت رقيقة بيضاء ، وقد جاءت لتجلس بجانبه وكان وجهها شديد الشبه بوجه « ليشا » وأخذت تحدق فيه باصرار ودون انقطاع وكأنها تنتظر شيئاً • وكان شديداً على ساكسولوف أن يرى عينيها البراقتين تلحفان في الطلب ولا يدري ماذا كانت تريد • فنهض مسرعاً ومشى الى الكرسي الذي كان يبدو ان تمارا قد جلست عليه ، وتوسل اليها بصوت عال وهو واقف أمامها قائلا :

— قولي لي ماذا تريدين ؟

ولكنها لم تكن موجودة هناك •

فقال ساكسولوف لنفسه بحزن :

— انه لم يكن سوى حلم •

* * *

قابل ساكسولوف في اليوم التالي ، وكان خارجاً من معرض المجمع العالي ، آل كوردريشف •

وأخبر الفتاة بقصة ليشا • فقالت فاليرا ميخايلوفنا برقة :

— يا للصبي المسكين ! ان زوجة ابيه كانت تريد التخلص منه !

فأجاب ساكسولوف وقد أزعجه أن يكون كل من فيدو والفتاة على رأي مؤلم واحد في هذه الحادثة البسيطة •

— ان هذا أمر لاشك فيه •

— انه أمر واضح • فالصبي لا أب له ، وهو يعيش مع زوجة أبيه • أنه يزعجها ، فاذا لم تستطع أن تتخلص منه بشكل مقبول ، فانها سوف ترميه رمياً • فقال ساكسولوف مبتسماً :

ـ انك تنظرين الى القضية نظرة كئيبة

فاقترحت عليه فاليرا ميخايلوفنا :

ـ لماذا لا تتبناه ؟

فقال ساكسولوف في دهشة :

ـ أنـــا ؟

فقالت ملحة عليه :

ـ انك تعيش وحيداً . وليس لك أحد يعود لك فاصنع معروفاً في عيد الفصح هذا . وسيكون لديك من تتبادل معه تحية العيد على الأقل .

ـ ولكن ماذا يمكن أن اصنع بطفل يا فاليرا ميخايلوفنا ؟

ـ ضع له مربية . يبدو أن القدر قد ارسل الطفل اليك .

حدق ساكسولوف بوجه الفتاة الذي كساه الخفر حياة برقة لا شعورية وعندما ظهرت تمارا له من احلامه ذاك المساء بدا له كأنها تعرف ماذا كانت تريد . وفي سكون الغرفة بدت الكلمات ترن برقة في اذنه :

ـ افعل ما طلبته منك .

ونهض ساكسولوف مرحاً ومر بيديه على عينيه الغافيتين ولمح غصناً من الليلاق الابيض على المائدة .. ترى من اين جاء ؟ هل تركته تمارا اشارة منها عن رغبتها هذه ؟

وطرأت عليه فجأة فكرة أنه بزواجه من فتاة آل كوروديشف وتبنيه الطفل ليشا يكون قد نفذ رغبة تمارا . فاستنشق غصن الليلاق العطر بحبور .

وتذكر انه نفسه كان قد اشترى الزهرة في ذلك اليوم . ولكنه سرعان ما ذهب به التفكير الى القول « انه لا فرق بين أن اشتريه بنفسي . فهناك طالع حسن في أني رغبت في شرائه ثم تسميت اني اشتريته » .

* * *

وفي ذلك المساء انطلق يفتش عن ليشا . ولقيه الصبي في الباب وذهب به الى حيث يعيش . وكانت أم ليشا جالسة تشرب القهوة وتتخاصم مـــع رجل احمر الانف من سكان الدار . وهذا ما استطاع أن يعرفه ساكسولوف من شؤون ليشا .

لقد ماتت أمه عندما كان عمره ثلاث سنوات فتزوج أبوه هذه المـــرأة السوداء ثم مات هو الآخر في غضون تلك السنة . وكان لهذه المرأة السوداء « ايرينا ايفانوفنا » ابن عمره سنة واحدة ، وهي على وشك الزواج ثانية ، والزفاف أزف موعده بعد أيام قليـــلة ، ومن بعـــده سيذهبـــون فوراً الى « الاقاليم » وكأن ليشا غريباً عنها وحجر عثرة في طريقها .

فاقترح عليها ساكسولوف :

ـ اعطني أياه

فقالت ايرينا ايفانوفنا بفرح يخالطه الخبث

ـ بكل سرور

ثم عقبت على ذلك بقولها :

ـ الا ان عليك أن تدفع لي ثمن ثيابه

وهكذا دخل ليشا دار ساكسولوف • وساعدته فتاة آل كوردويشف في الحصول على مربية له مع التفاصيل الاخرى ذات العلاقة بحصته من الدارة ، وكان عليها من أجل ذلك أن تزور دار ساكسولوف ، ولما انشغلت كل ذلك الانشغال بدا لساكسولوف انها مخلوق يختلف عن السابق ، فقد انفتح قلبها له ، وأصبحت عيناها تشعان بالحنان ، وفاضت منها نفس الرقة التي كانت تفيض من تمارا •

* * *

رق قلب فيدو وزوجته لحكايات ليشا عن أمه البيضاء • وفي « سبت الآلام » وعندما ارقداه من فراشه علقا قرب رأسه بيضة بيضاء على حافة فراشه ، وقالت له كريستين :

ـ هذا من أمك البيضاء أيها العزيز ، ولكن يجب أن لا تمسه الا بعد قرع الاجراس •

واضطجع ليشا مطيعاً ، وظل يحدق طويلا في البيضة اللطيفة ثم غلبه النوم •

وظل ساكسولوف ذلك المساء وحيدا في الدار • وحوالى منتصف الليل أطبق على جفونه نعاس شديد لايغالب، وافرحه ذلك لانه سوف يرى «تمارا» وقد جاءته مرتدية ثيابا بيضاء لامعة ، ومعها الاصوات البعيدة لاجراس الكنيسة المرحة ، وانحنت فوقه وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ـ ما أحلى ذلك ـ وشعر ساكسولوف بلمسة رقيقة على شفتيه ، ونطق صوت رقيق يقول :

ـ لقد قام المسيح !

وبدون أن يفتح ساكسولوف عينيه فتح ذراعيه لكي يعانق جسماً رقيقاً نحيلا • وكان ذلك ليشا الذي صعد على ركبتيه لكي يحييه تحية عيد الفصح •

لقد أيقظت اجراس الكنيسة الصبي ، فقبض على البيضة وركض بها الى ساكسولوف •

واستيقظ ساكسولوف • وضحك ليشا وهو يرفع بيضته البيضاء وهو يلثغ قائلا :

ـ ارسلتها الأم البيضاء • اني اعطيها لك وعليك أن تعطيها الى العمة فاليريا •

ـ حسن جداً • سأفعل ما تقول

ووضع ليشا على الفراش ثم ذهب الى فيرا ميخايلوفنا ومعه بيضة ليشا البيضاء هدية من الأم البيضاء ، ولكنها كانت تبدو لساكسولوف في تلك اللحظة وكأنها هدية من تمارا •

أحمد زيدان

بقلم خيري العمري

من طليعة المغنين المشهورين الذين سطع نجمهم وتألق كوكبهم في سماء الفن منذ نصف قرن او يزيد ، رجل يصفه بعض المعاصرين له انه — قصير القامة ، نحيف البنية ، سريع الكلام ، يرتدي (الصاية) و (الدميري) لباسا ، ويضع (اليمني الاحمر) في رجليه حذاءا ، ويحمل تحت أبطه أغلب الاوقات عباءة . ويتخذ سكناه في دار بسيطة تقع في محلة (خان لاوند) لا تزال قائمة حتى اليوم .

ذلك الرجل هو (احمد زيدان) الذي ذاع صيته في عالم الغناء وطبقت شهرته الآفاق فأطربت مقاماته جيلا كاملا ما زال بقاياه من الشيوخ الطاعنين في السن يتحدثون الى ابنائهم واحفادهم بحسرة مريرة والم دفين عن سحرها وعذوبتها .

ومن المؤلم حقا الا يجد الباحث الذي يريد ان يدون سيرة لهذا الفنان الكبير من المراجع والمصادر ما يعينه على الكتابة ويشجعه على التدوين ، اللهم الا سطورا مقتضبة سريعة كتبت على عجل فجاءت من الضحالة بحيث لا تروي غلة الباحث المتأني ولا تشبع تعطش المحقق في الوقوف على حقيقة هذه الشخصية الفنية ، فهي لا تزيد عن انه ولد في عام كذا ومات في عام كذا وتتلمذ على فلان وفلان ، أما ما هي ملامح فنه ؟ وما هو طابعه في الغناء ؟ وما هي شخصيته وبماذا تتميز ؟ فلم يتعرض اليهما من قريب او بعيد .

لذلك كان سبيلنا في هذا الفصل الرجوع الى الشيوخ المتقدمين الذين ادركوا (احمد زيدان) وسمعوه وعاشروه وتتلمذوا عليه نتسقط من افواههم أخباره ونروي عنهم أنباءه أو ممن تتبعوا بحكم هوايتهم التي استحكمت بهم سيرته وفنه واخص بالذكر منهم السيد فاضل مهدي ... ولست اكتم القارىء بأني شعرت وانا أدون هذا الفصل بأمرين لم ار بأسا من التصريح بهما شعرت اولا بأني مدين بالشكر الى بعض الاخوان الذين زودوني بما

أعانني في اعداد هذا الفصل . وشعرت ثانيا بمدى تقصير مؤسساتنا الفنية في العناية بهذا الفن الذي يؤلف قسما كبيرا من تراثنا وشخصيتنا العراقية . وحسب القارىء أن يعرف أن (معهد الفنون الجميلة) لم يقرر ادخال المقام العراقي كمادة تدرس لحد الآن بالرغم من انه تراث فني يعبر عن الشخصية العراقية خير تعبير وان المعهد المذكور لم يكلف نفسه عناء الحصول على مقامات (احمد زيدان) وهي مسجلة في اسطوانات شمعية قديمة يحتفظ بها البعض وانه ليس من خدمة الفن في شيء ان تقف موءسساتنا الفنية موقفا سلبيا تمسك فيه عن اقناع من يخزن تلك الاسطوانات وتحمله على اهدائها الى جهة مختصة او على أقل تقدير تسجيلها بحيث تكون في متنـــاول يد الجمهور يستطيـــع المعجبون والمتتبعون منهم أن يستمعوا اليها متى أرادوا والموءرخون والمختصون ان يتناولوا صوت (احمد زيدان) بالدراسة والتمحيص فيكشفوا بما وهبوا من ملكة نقد عن خصائصه ومميزاته .

يرجع البعض نسب أحمد زيدان الى عشيرة «البيات»(١) المستوطنـــة جوار جبل حمرين والتي هاجر كثير من افرادها الى بغداد لاسباب شتى حيث عاشوا وتناسلوا فكان ان ولد منهم فيهـــا ـ على اغلـــب الظن ـ زيـــدان (الجد) وحمادي (الاب) الذي مارس الحياكة مهنة له وانجب ولده (احمد).

ولم يكد (احمد) يشب عن الطوق ويشتد ساعده ويستقيم عوده حتى برز ميله الى تذوق المقام وظهر هواه الى قراءة الوأن مختلفة منه وبدافع من ذلك الميل الذي كان يعتلج في صدره أخذ يختلف الى مجالس الغناء ويتردد الى اماكن الطـــرب فلا يترامى الى سمعه بأن «شلتاغ» او «ابو حميد» سيقرأ في مكان ما حتى يهرع اليه مسرعا ويحتـــال بشتى الحيل ليدخل الى ذلك المكان ويستمع الى ما ينشد او يقرأ فيـــه من «مقام» وسرعـــان مـــا أحتـــل «شلتاغ» و «ابو حميد» من نفس ذلك الشاب مقاما كبيرا فتأثر بهما وشرع يأخذ اصول المقام عليهما وزادت صلته بالاول فلازمه ملازمة الظل وتنبـــه «شلتاغ» الى مواهبه فوجهه وعلمه كيف يضبط المقامات ، ويوءدي أنغامها ، ويبدأ بها ، وينتهي منها ، وما هي الا فترة حتى أخـــذ «احمد زيدان» يشق طريقه ببطء في عالم الغناء فلفت الانظار اليه بحسن اداءه وضبط انغامه بعد ان بلغ الخمسين من العمر .

ومرت الايام فمات «شلتاغ» ذهب «ابو حميد» الى رحمـــة ربه فخـــلا الميدان لاحمد زيدان فراح يجول ويصول وجذب صوته الجماهير اليه من كل حدب وصوب فكانت «مقهى الشط» في المصبغة حيث تقام حفلاته تغص كل مساء بالالوف من الناس يتزاحمون للاستماع اليه فلا يكـاد يطلع عليهم « أحمد زيدان» ويأخذ مكانه على المسرح ـ وهو عبـــارة عن عـــدة تخـــوت تجمع بعضها الى بعض ـ بين الجوق ويشرع بالغناء بعد ان تسبقه التقاسيم وينفث صوته في قلوب الحـــاضرين حتى ترتفع الاكف بالتصفيق وتتعالى هتافات الاعجاب .

كان صوت «أحمد زيدان» عذبا يبدأ اول الامر واطئا حتى اذا تقدم في الغناء أخذ يرتفع شيئا فشيئا وصار «داودي النغمة» فاذا مضى في الغناء اكثر وكاد يبلغ نهاية النغمة اشتد اداوه ووثب الى نهايتها بسرعة ٠

واكثر ما تتجلى براعة «ابن زيدان» حين يحلق في «الجوابات» هي مراتب الصوت العليا في الغناء عند ذلك يلعب بالالباب ، وينتزع الاعجاب ، ومن هنا لا ينازع احد قول الاستاذ القبانجي عن أحمد زيدان من انه «متخصص بقراءة الجبوري والنارى والمحمودي وجميع المقامات العالية الطبقة لان صوته عال وليس له نم »(٢)٠

وسواء صح قول الاستاذ «القبنجي» من ان صوت أحمد زيدان لا يساعده على اجادة المقامات التي تحتاج الى صوت عريض صدري ام لم يصح فان ميزته في الانتقال من «مقام» الى «مقسام» بمهارة فائقة لم تكن موضع شك فقد كان المرء يستمع اليه وهو يقرأ مقاما من المقامات فيتوهم ان مراده قد انحصر فيه حتى اذا استقر ذلك في ذهنه انتقل منه انتقالا فنيا الى مقام آخر ثم عاد بمهارة الى ما كان عليه وهو اسلوب لم يستطع احد من القراء مجاراته فيه ٠

ولم تقف عبقرية هذا الفنان عند ضبط المقامات واجادة تلاوتها وانما تجاوز ذلك الى «توسيع بعض النغمات الدقيقة التي اعتبرها الاقدمون فروعا بسيطة للمقام العراقي فجعلها مقامات خاصة وذلك بان اضاف اليها « تحريرات » ووضع فيها «قرارات» ثم نظم لها «تسليمات» مناسبة فجاءت من التحف النادرة ٠٠٠ ومن ذلك نغمة القرية باش ونغمة العمر كله فقد جعلها مقامين كاملين ٠٠٠ ومن تصرفاته ٠٠ أنه ادخل نغمة المستعار في مقام الاوج وادخل نغمة العريبون عجم في مقام الخنابات ونغمة الآيدين في مقام الطاهر»(٣)٠مما جعله بحق صاحب مدرسة فنية لها شخصيتها القائمة بذاتها ولها تلاميذها الذين التفوا حول زعيمهم «أحمد زيدان» فتتلمذوا عليه ومضوا على طريقته فأحرزوا نجاحا كبيرا فرشيد القندرجي والحاج جميل عباس الشيخلي المعروف بعباس كمبير من تلاميذه ، كانوا يجتمعون به في مقهى تقع قرب الحي الذي يسكنه تعرف باسم مقهى (مجيد كركر) حيث يلقنهم أصول المقام وأسلوب تلاوته وكان رشيد القندرجي اقربهم اليه واحبهم الى نفسه والصقهم به فكثيرا ما كان ينتظره الى ساعة متأخرة من الليل حيث يفرغ من القراءة فيحمل له الفانوس ليلتمس استاذه في وسط الظلام الدامس دربه الى الدار ، وكثيرا ما كان يزوره وهو مريض في الفراش فيطلب اليه استاذه ان يقرأ له (المنصوري) فلا يكاد رشيد يفرغ من قراءته حتى يربت أستاذه على كتفه ويقول له «انت خليفتي من بعدي»(٤)٠

وقد تعرضت صداقة (احمد زيدان) مع « رشيد القندرجي » في بعض الفترات الى فتور ، لسبب مرده ان (أحمد زيدان) عندما سافر الى المحمرة لاحياء حفلات اعراس اولاد الشيخ خزعل حاول رشيد القندرجي ان يسد

الفراغ الذى خلفه استاذه بعد سفره حيث تقلصت الحفلات وأخذ اهالي بغداد يؤجلون اعراسهم بغية عودة احمد زيدان فقام رشيد القندرجي بتشجيع من بعض افراد جوق احمد زيدان بحفلات بسيطة جرب فيها حظه فى الغناء فلما نجح كرر تلك الحفلات .

وقد بلغ ذلك (احمد زيدان) فغضب ووجد فى عمل القندرجي تحديا له وتطاولا على مقامه الفنى لاسيما وهو تلميذه ، وعندما عاد (احمد زيدان) الى بغداد واستقبله القندرجي فى شريعة السيد (سلطان علي) حيث رست الباخرة (برهاني) ، قابله (أحمد زيدان) بجفاء وقال له ــ كيف قمت بعدى باحياء الحفلات ؟ وكيف أبحت لنفسك القيام بهذا العمل ؟ .

وكان ذلك العمل يعد فى عرف أهل الصنعة تجاوزا من التلميذ على الاستاذ لا تستسيغه التقاليد السائدة فى تلك الاوساط التى تقضى باحترام التلميذ لاستاذه والعمل وفق توجيهاته والوفاء له .

وقامت بسبب ذلك جفوة بين الرجلين فانقطعت الصلة بينهما وانعدمت الزيارات ، ولكن أتفق فى تلك الايام ان اقيم فرح كبير فى دار عائلة يهودية بمناسبة عرس من اعراسها كان احمد زيدان نجم الحفلة اللامع فيها يصول ويجول فى قراءة المقامات والحاضرون متحمسون له وعبارات الاعجاب لا تنقطع عنه واتفق ايضا ان حضر ذلك الحفل رشيد القندرجي وجلس فى زاوية يرقب استاذه .

وفى أثناء الحفلة نهض احد افراد تلك العائلة وتقدم من (أحمد زيدان) يحمل بأحدى يديه الكأس وباليد الاخرى (المزة) ، وبعد ان قبل أحمد زيدان وقدم اليه الكأس والمزة توسل اليه ان يسمح لتلميذه (رشيد القندرجي) ان يطلع على (التخت) ويغنى بعض المقامات .

فلم ير (احمد زيدان) امام هذه المفاجأة بدا من الموافقة ، وقد حاول (رشيد القندرجي) ان ينتهز هذه الفرصة ليتحدى زعامة احمد زيدان فى فن المقام وليثبت للحاضرين انه لا يقل عن أستاذه براعة . وقد زاد من قوة عزمه على تحدى استاذه عندما وجده ــ اى وجد احمد زيدان ــ يطلب من التخت ان يعزفوا له مقام (بيات) الذى كان فى ذلك الوقت لا يجيد قراءته كما يجيد قراءة المقامات الاخرى . ولكن ذلك لم يجعل القندرجي مترددا فشرع فى قراءة المقام البيات ولقى ــ استحسان الجمهور وتشجيع بعض افراد التخت الذين كانوا يضيقون ذرعا بتحكم أحمد زيدان وشدة بخله عليهم . نكاية به لاسيما ضارب السنطور الذى كان خلال الغناء يقول بخبث باللهجة اليهودية الى (احمد زيدان) «ابو داود وحق نبى موسى كنو أنت . صدق اذا قالوا صانع الاستاذ أستاذ ونص » .

ولم يستطع (احمد زيدان) صبرا أمام هذا المقلب الذى دبر له فباغت رشيد القندرجي بعد ان انهى (التسليم) وأراد الشروع فى (البستة) بتحرير مقام (بيات) وراح ينتقل من نغم الى نغم ثم يرتقى الى (الميانة) ويعود الى ما

بدأ به ليثبت للجمهور ان قراءة الاستاذ أجود من قراءة التلميذ مهما برع ·
وقد اجاد احمد زيدان اجادة بالغة ·

وكانما شعر القندرجي أن الفرصة التي أراد استغلالها قد فوتها عليه استاذه فعساد الكرة واسرع قبـل ان يشرع (ابن زيدان) في (البستة) في تحرير مقام (الابراهيمي)·

ولما فرغ من تلاوة المقام وجاء دور (احمد زيدان) ، أخذ يغني مقـام (البهرزاوي) وعلامات الالم بادية على محياه ويتوجه خلال الغنـاء بالعتـاب الرقيق الى تلميذه (رشيد القندرجي) فيخاطبه بموال يقول فيه باللغة العامية ·

ملتفض ليـسك ترخصـني وتغليني
ان شـفت لك باب تهجرني وتغليني
شين الطبيعة جهـد ما بيـك تغليني
معلوم الوداد عودتك علينـا عـود
اني ترى المـاء بالوادي وانت العود
ان انصفت انت فرعي وأنا أبوك العود
باثي السبب منبتـك مني وتغليني ؟

وفي هذا الزهيري يخاطب احمد زيدان تلميذه رشيد القندرجي قائلا بما معناه انني كنت الماء الذي ترتوي منه حتى استقام عودك وصار وارقا فكيف تسوغ لك نفسك ان تستعمل ذلك العود وقودا اغلى فيه وهـو من صنعي !! ان ذلك منتهى ما يصل اليه العقوق وآخر ما يبلغ اليه الجحود · وقد انفعل (رشيد القندرجي) وهو يسمع استاذه يردد هذه المعاني بحسرة ولوعة واخذه هذا الموقف فلم يتمالك من ان ينكب على يد احمد زيدان مقبلا ومعتذرا ·

وكانت تلك الليلة من ليالي بغداد المشهورة شهد فيها الجمهور منافسة طريفة تبارى فيها قطبان من اقطاب المقامات وراح كل منهما يعرض براعته ومهارته ويودع في غنائه كل ما وهبه الله من طاقة واتقان في جو منفعل يحاول فيه التلميذ ان ينتزع من استاذه «كرسي المجد» ويحاول الاستاذ فيه ان يتشبث بذلك الكرسي ·

وقد انقسم الجمهور بعد هذه المنافسة شيعا واحزابـا هـذا يبـايع (احمد زيدان) وذلك ينتصر الى (رشيد القندرجي) وبقيـت تلك المنـافسة قصة لذيذة من قصص بغداد يرويها الرواة في المجالس ، ويتناقلها الناس في المحافل ويسترجعون الى ذاكرتهم تلك المنافسة الفنية ومـا رافقهـا من ملابسات وما احاطها من اجواء طريفة ·

ولكن الرجلين عادا بعد تلك الليلة الى ماكانا عليه من ود وحب حتى لقد اوصى (احمد زيدان) تلميذه عندما ادركته الوفاة ان يقرأ عليه بعد ان ينزلوه في قبره ويعود المشيعون مقام الصبا وقد بر رشيد القندرجي بذلك

وبلل قبر استاذه بدموعه وانغامه !! (٥) .

وكما تعرض احمد زيدان في اواخر حياته الى منافسة من تلميذه رشيد القندرجي تعرض قبلها وهو في بدء شهرته الى منافسة لم تخل من المناكفات ولم تسلم من المضايقات من رجل لا يقل عنه مقدرة ومكانة في عالم المقامات اسمه (رباز) .

وقد تنازع في وقت من الاوقات هذان الرجلان امارة الغناء في بغداد وكان كلاهما يمثل مزاجا مختلفا في الطباع فبينما كان (احمد زيدان) شحيحا يعض على القرش بالنواجذ ويتوسل بمختلف الوسائل لاخفاء ما يرمي اليه الوجوه حين يستخف بهم الطرب من دراهم بلباقة فيحول دون مشاركة افراد الجوق فيها ويستعين باحد اقربائه يستصحبه معه الى الحفلات لهذا الغرض ويجعل له مكانا قريبا منه ، كان (رباز) يستهين بالمال(٦) وينفقه بسعة ويبذله بسفه حتى قيل انه حصل ذات مرة مائة مجيدي اجرة حفلة احياها في مكان ما فلما انصرف مع الجوق وركب (قفه) وانه لفي منتصف نهر دجلة اذا به يخرج المائة مجيدي ويرميها في النهر ! وبينما كان (احمد زيدان) رجلا مسالما لا يميل الى الخصام ، يجامل الناس ويراعي الاصول كان (رباز) عنيفا لا تقف خصوماته عند حد ، يغشى السهرات والولائم دون ان يدعى اليها ويقتحم مجالس الطرب عنوة بشاربين طويلين يفتلهما تهديدا لمن يعترض سبيله واذا غنى وضع اصبعيه في اذنيه والويل لمن يسخر من غنائه . لذلك كان يضيق احمد زيدان ذرعا به ويخشى بأسه ويتقي شره ومن هنا كان لكل منهما جمهور يختلف عن الآخر ، فجمهور احمد زيدان اكثر حظا من الاتزان واوفر نصيبا من الوقار بين افراده السراة والشيوخ ، ولا يخلو جمهوره من صغار الموظفين والطبقة الوسطى اذا اراد احدهم ان يعبر عن اعجابه فلا يتجاوز تعبيره عن تصفيق معتدل او هتاف معقول واما جمهور (رباز) فحظه من الصخب ميسور ونصيبه من الضجة موفور اغلب افراده من الطبقات الشعبية بينهم عمال البناء وعمال الاحذية والشقاة الذين يطلق عليهم في ذلك الوقت (ابو جاسم لر) اذا طربوا عبروا عن طربهم تارة بالصراخ وطورا برمي ما يرتدونه من (جراوية) او ما يقع امامهم من اقداح واحيانا اذا اشتد بهم الطرب بالخناجر والسكاكين .

ذاق (احمد زيدان) مرارة الشهره وحلاوتها فتعرض الى بعض المواقف التي لا تخلو من مضايقات .. وقيل انه اتفق مرة ان دعي الى اقامة حفلة في دار تقع في احدى احياء بغداد ولما توجه الى تلك الدار في الوقت المعين ضل السبيل اليها بين الازقة فراح يسائل المارة وانه لفي تساؤله اذ عرفه بعض عمال البناء فاحاطوا به والحوا عليه ان يقرأ عليهم (المخالف) وعبثا حاول ان يعتذر لهم فهددوه فلم ير بدا من ان ينزل عند رغبتهم ويقرأ عليهم المقام الذي ادخل في نهايته تعبيرا مشهورا يعبر فيه عن حالته ويصفها فيقول وآني منين وانت منين وهالبلوه هاي منين . تايه دلوني الطريق

منين • والشامتين البخدك دوم تعجبني يا عيوني » •

لقد مهدت الشهرة التي نالها (ابن زيدان) سبيل التعرف بالمغنية المشهورة (طيره) التي غزت قلوب البغداديين بجمالها وغنائها العذب فتعارفا بحكم اشتغالهما في وسط واحد ، واستطاع (ابن زيدان) وهو الذي وصفه الاستاذ محمد القبنجي بانه « الوحيد من القراء الذي يميل الى النساء » ان يكسب بعذوبة صوته تقديرها ويثير بحلاوة انشاده اعجابها وقد روى لي الاستاذ حيدر الجوادي نقلا عن علي الدرويش انها عندما استمعت لاول مرة الى احمد زيدان لم تتمالك من فرط اعجابها وشدة تاثرها ان تذرف الدمع وتسعى الى التعرف اليه •

ولعل هذه الصلة تثير الى الاذهان صلة المغني المصري (عبده الحمولي) الذي ذاع صيته زمن الخديوي اسماعيل وعاصره احمد زيدان مع المغنية المشهوره (المز) ، فقد تناقلت الروايات ما وقع بينهما من «حب» كان مصدرا لحياكة بعض الاساطير والقصص •

على ان صلة (احمد زيدان) مع (طيره) لم يكتب لها عمر طويل فقد عاجله الموت و(طيرة) في ذروة مجدها واوج شهرتها ، وحرمه من الاستمتاع بنشوة هذا الحب ، فبقي هذا الجانب من حياتهما يكتنفه الغموض ويسوده الابهام لا يملك المورخ ان يقف موقفا جازما امام ما يتناقله البعض من ان (احمد زيدان) كان يناغي (طيره) في مقاماته ويبثها لوعته وهيامه وان (طيره) بكته بعد وفاته في اغانيها بكاءا مرا •

ومن يدري فلعل هذه الصلة لو كتب لها عمر اطول وقدر لها زمن أبعد لتمخضت عن قصة غرام لا تقل طرافة وروعة عن قصة (عبده الحمولي) مع (المز) •

في عام ١٩١٢ رجع (احمد زيدان) من البصره حيث دعاه الشيخ خزعل لاقامة حفلة بمناسبة من المناسبات وقد انهكه المرض فتوفي في بغداد في ١٢ـ٥ـ١٩١٢(٧) بعد أن خلف وراءه ثلاثة أولادا بينهم (داود) الذي كان يوءثره بكثير من الحب فيناجيه في مقاماته قائلا «داود يا بني •••» •

---

(١) الطرب عند العرب ــ عبدالكريم العلاف •

(٢) الغناء العراقي واشهر المغنين جريدة النهضة عدد ٤٦٣ تاريخ آب ١٩٢٩ •

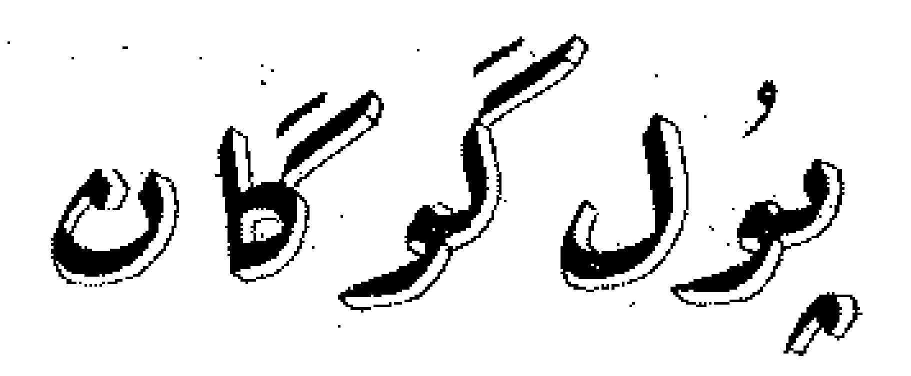
(٣) المغنون البغداديون والمقام العراقي ــ جلال الحنفي ص (٢٩) •

(٤) يشير الشيخ جلال الحنفي ان القندرجي كان يحضر مجالس احمد زيدان • وهو صغير ويجلس تحت التخوت التي كانت عالية يومذاك فينصرف بذهنه وروحه الى النغم وما يعرض له من تصرفات المغنون البغداديون ص ١١٣ و١١٤ •

(٥) من احاديث منقولة عن معروف الرصافي مدونه بدفاتر مودعه عند الاستاذ حافظ خالد عضو محكمة التمييز •

(٦) الغناء العراقي واشهر المغنين مقالات محمد القبنجي جريدة النهضة عدد ٤٦٣ في ٤ـآبـ٩٢٩ •

(٧) المغنون البغداديون : الشيخ جلال الحنفي •



صوت البوهيمية الملتهب

فاضل العزاوي

لم يكن وجود بول كوكان الثوري الاصيل شيئاً عابراً بالنسبة لجميع الذين حاولوا أن يمنحوا اللون دما جديدا ، ويفتحوا أمام الفن الحديث طريق التطور المستمر والابداع الذي لايمكن أن توقفه حدود خاصة ، أو يكبحه أفق رومانتيكي مريض • لقد حاول بول كوكان باخلاص أن يتفهم الروح الجديدة التي تعصف بالعالم ، ومن أجل ذلك قرر أن يستشهد ، ولم يكن ثمة مجال آخر للاختيار ، فمن أجل أن تذوب ثلوج آلاف السنين المتراكمة ، ومن أجل أن تتدفق الأنهار في صحارى عالمنا المجدب كان عليه أن يتشابك في المعركة ويسقط • ان ثائرا (كبول كوكان) لم يكن فنانا فحسب وانما كان القضية التي سار بها بعـــده ستريكلند ، بيكاسو ، ساتيس ، سيزان ، لوتريك، كاندنسكي • لقددفع فجأة الى المغامرة بكل شيء من أجل حريته ، ولعلـــه هو نفسه استغرب ذلك ، متحولا من مضـــارب في البورصة ورجل شريف دخله السنوي خمسة عشر ألف دولار ، يرتدي قبعة مرتفعة ، ويرتاد أفخر المطاعم الباريسية الى مشـرد وصعلو يبحث عن ألوان عميقة جديدة قوية في منفـــاه الاختياري ، متحدياً كل القيـــم التلقينية في ذات الفنان • لقد كان التحدي للعالم الموضوعي الذي يجابهه الخطوة الاولى في بناء وعيه الفني للموضوعات وقد رفض أن يكون فنــه انعكاسا للموجودات الطبيعية التي تكون الرؤيا البدائية للشخص ، وكان محقاً في ذلك ، فالوجه الظاهري للمسألة لايمكن أن يعكس اطلاقا العمق الخاص الذي يمتلكه موضوع ما •• ولذلك اختار طريق الارتياد والتغرب في عالم لم يكن ليعترف به أبدا مستمدا من الغربة والبحث عن الأصـيل والمدهش في الحياة قوة نظرته الجديدة للقضية ، لقد أصبح صوفياً • كان العالم يتلاشى في داخله متحولا الى أشكال معينة من الحلم يتأله خلالها في

مدار مفتوح الأفق رافضاً كل موضوع جاهز يخنق ضربات الفرشاة ولطخات اللون • والى جانب ذلك كانت أشكال الحلم المتنافرة تهزه بقوة ، تحركه ، تمنحه الحرية الحقيقية للفنان الذي يقف متوحداً فوق رابية منفية في التمزق واللهيب المختلف الألوان ليحدق بعيني نسر شامخ الى الطبيعة والخطوط التي تمتد في عروقها اللا مرئية ، والموضوعات التي يمكن أن تجعل لوحته أكثر اشراقاً • لقد أصبح شاهداً ولأول مرة في حياته •• فماذا كان يعني كل ذلك بالنسبة له ؟

لقد قذف بنفسه الى الجانب الثاني من الشاطىء كثور هائج ، وكان يحترق • لقد عاشر ناساً كثيرين أكثرهم من الفنانين والبغايا والصعاليك والبحارة والنساء البدائيات في جزر البحار الجنوبية ، كما عاش ملتحماً مع الطبقة الوسطى لسنوات عديدة ، مكتسباً خلال اتصاله هذا اموراً كثيرة وقضايا على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتكوينه الفني • لقد كان واحداً من أبناء البرجوازية عندما كان في الثالثة والعشرين ولكنه اختار السقوط والتخلي عن الطبقة التي لايمكن أن تفهم جوهر الانسان الا من خلال المضاربات ولهذا رفض الميتافيزيقا المحددة للناس مسبقاً ، وكان عليه أن يكتشف حكمته الخاصة لأن حكمة الامم كانت قد تهرأت من كثرة ما لاكتها الألسن • في البداية لم يكن أكثر من حالم طوباوي يتطلع الى الانفلات ولم يكن ذلك ممكناً ، لأن الوليد الجديد كان شاحب العينين ولم يتفتح بعد •• لقد كان ينتظر ميلاده الحقيقي • وعندما جاء ذلك اليوم بعد خمس وثلاثين سنة من وجوده على الأرض كان الجنين قد تعملق ، وخرج من بيته ومقر عمله ، تاركاً خلفه زوجته الدانمركية التي منحته خمسة أطفال ، لقد تشرد البرجوازي العاقل « رسام يوم الأحد » كما كانت تدعوه « ميتي كاد » العملية ، والباردة المزاج باعتباره هاوياً للرسم فلا ضير اذا رسم أيام العطل • وكانت تشك في موهبته اذ لم يكن الرسم بالنسبة لها شيئاً ذا قيمة حقيقية • لقد انتهى عهد الخضوع العائلي بالنسبة له وخرج يستكشف العالم حاملا رسالته الجديدة كبطاقة مرور الى الملحمة التي أشعلتها الأجيال • لقد كانت أفكار بول كوكان قوية وواضحة ، ولكن لوحاته حملت كل عمق الوضوح وغموض الحقيقة • ومن كلماته المتدفقة بالحياة الى حلقة الرسامين الشبان الذين كانوا يحيطون به والتي لاتزال انجيل حركة الرسم الحديث : « تذكروا ان الرسم هو التجريد • احلموا عندما تقفون أمام الطبيعة وخذوا منها جوهر ما ترونه ثم ارسموا • من الممكن أن يتحول القبيح الى شيء جميل ، أما الجميل فيبقى في حدوده المغلقة حتى النهاية • »

لقد توصل كوكان بطريقة ما الى نفس الرؤيا التي توصل اليها الشاعر الانكليزي س•ت• كولبردج في قصيدته المشهورة Kubla Khan وهي رؤيا الحلم الذي يحول الأشياء الى أصولها البدائية في جو ضبابي

حيث يلتقي التناقض مع المبهم ، الوضوح مع الأزلي عبر تدفق النهر الذي يربط كل شيء في لحظة من التجلي الميتافيزيقي والوثني حيث الوحـــدة الداخلية خلال الكآبة بفاجعة الوجود • لقد نفى كوكان بفهمه الأصـــيل للمسألة كل ما يمكن أن يكون سطحياً وعارضاً في فنه ، وغنى الملحمة مع كل الـذين حاولوا أن يهبوا العـــالم شيئا جديدا ، وكان حازما في ذلك لا يهـادن •

جاءه مرة أحد الرسامين الناشئين يستشيره في احدى لوحاته فما كان من كوكان الا أن يفحص اللوحة ثم يزمجر في وجهه لأن ألوان اللوحة كانت عاطفية وعنـدما عاد مرة أخرى بنفس ألوانه الرومانتيكية وبخه ، وعندما عاد للمرة الثالثة دون أي تغيير حدق فيه كوكان باحتقار ، ودون أن يقول شيئا وبكل هدوء أخرج مسدساً ووضعه أمامه على المنضدة • لقد عبر عن فكرته بحركة بسيطة : على الفنان أن يكون جديرا بفنه والا فليمزق لوحاته ، ليحرق قصائده ، قصصه •• ويرحل الى جزائر الواق •• واق ان شاء فذلك أجدى • لقد عشق الفن ولم يكن يمكن في يوم ما أن يخون القضية التي ضحى من أجلها بكل شيء ،وعلم أجيالا من الرسامين قوة اللون البدائي ومنح الفنانين في كل مكان اهتمامات جديدة وقوية باللون والايقاع الشعري والنمط مستهدفا وضع اسس جديدة لفن ايحائي يعبر عن الحركة الداخلية في المرئيات ضمن خط تصاعدي من الاحساس بالألم والفرح والتمزق • ولكن من هو بول كوكان ؟

ولد بول كوكان في باريس عـــام ١٨٤٨ وهي فترة التهيج الثوري والصراع الطبقي العارم الذي كان يعم جميع أنحاء أوربا في سلسلة من الانتفاضات والمظاهرات والثورات الدامية من أجل الحرية والتخلص من قيود العهود القديمة وبناء عالم جديد • كان والد بول صحفيا مغمورا أما أمه فهي من أصل اسباني • وعـاش بول الصـغير كل ما كان يحيط به بلهفة ولكن ميله للتحرر كان الأساس الذي تقوم عليه جميع أفعاله ولذلك نراه في السابعة عشر من عمره يهجر مدرسته ، ويتبـع البحر لـمدة ست سنوات • وقد علمته حياة البحر القسوة والرجولة والبطولة ، لقد نزع رداء الطفل المدلل الذي كان يرتديه في البيت ليبدله بثوب البحار الذي يحن الى اليابسة ، يجلس على الصاري ويحدق في الأفق والأسماك حيث تذوب الألوان في دمه الملتهب • كان رصيده من الأحلام يتضاعف في انتظار اليوم الذي تنفجر فيه الكوة المنفوخة ويخرج المارد الى الحياة ، لقد علمه البحر أن يكون فنانا ، أعطاه أثمن ما يملك وهو الحلم الذي يحول حياته الى نشيد سيمفوني يهز العظام ،العظام التي لم تشرق فوقهـا شمس التحول الجديد بعـد • وكان يخوض مع زملائه البحارة غمار الحيـاة البوهيمية التي كانوا يغرقون أنفسهم فيها •• الخمر والنساء ومعـارك الحانات والصراع الهائل ضد الريح والمطر ، والأحاديث الرومانتيكية عن

البحار الجنوبية والجزر التي تشبه الجنة حيث الفتيات الرائعات الجمال ، والمتعبات من الكسل ، والثمار التي تتساقط من الغصون والشمس المشرقة أبداً والليالي التي يحيطها السحر والرقص الشعبي الهمجي الذي يمجد الحب • لقد كان كوكان في طريق الولادة وكانت التجربة تمنحه القوة التي يحتاجها ليخوض المعركة ، ولكنه كان تائهاً دون أن يتعرف على أصابعه التي تخلق المعجزة • لقد كان منفياً في ذاته ، مغلقاً حتى العجز •

وعندما رجع بول الى باريس بعد ست سنوات واكتشف في داخله موهبة جديدة وهي القدرة على كسب الفلوس ببساطة كأي برجوازي محترف • لقد أصبح صيرفيا ، وسرعان ما ارتفع نجمه وأصبح دخله السنوي خمسة عشر ألف دولار • كان يجتاز فترة التعقل بالنسبة للفنان بشكل مدهش • وانه الآن بعيد عن البحر والعاهرات في مجتمع باريس الارستقراطي يزاول مهنة التعالي • كان البحار القديم قد بدأ يرتدي قبعة عالية بحاشية ممتدة تغطي الجبهة ، ويذهب الى مقر عمله كل صباح بهمة ونشاط في عربة فاخرة ، ويحضر الحفلات الارستقراطية التي تقدم فيها أجود أنواع الشمبانيا • آه •• ما أروع الحياة بين مثل هؤلاء الناس ، ولتسقط أيام الخمور الرخيصة والفنادق القذرة والافلاس والأصدقاء المشردين تحت النجوم المغتربة وفي ظل الأشرعة الممزقة •

وكأي رجل أعمال يبحث عن الهدوء والاستقرار تزوج من فتاة دانمركية اسمها (ميتي كاد) عاش معها أكثر من عشرة أعوام ، أنجب منها خمسة أطفال ، وكانت مدام كوكان امرأة تحب التنظيم ومجاراة الموضة ، وتقيم الحفلات التي تراعي فيها الذوق • ورغم هذه الحياة الخاصة فان كوكان لم ينقطع عن النمو والتكوين الفني الذي يصاحب الاعماق عادة قبل التفتح ، ولكنه فجأة اكتشف في داخله هواية جديدة هي الرسم • اكتشف انه يستطيع أن يرسم ببساطة وقوة • وقد فرحت زوجته كثيرا لذلك اذ ماذا يهم اذا استغل عطلته الاسبوعية وحاول أن يلهي نفسه بعمل لطيف ! فأطلقت عليه لقب « رسام يوم الأحد » • وقد رسم خلال هذه الفترة لوحة أطلق عليها اسم « دراسة للفتاة نيود » وهي خادمة البيت ، وعندما عرضت هذه اللوحة امتدحها أحد النقاد معلنا انها أروع لوحة رسمت منذ رمبرانت • ومع اللوحة بدأت السمفونية الداخلية تتنامى وترتفع • لقد أعلن الفنان ميلاده رغم الضياع الطويل وأغمض عينيه كما يقول ـ جون شتاينبيك ـ ليستمع الى موسيقاه ، موسيقاه التي صنعتها أجيال من المغنين ، ومع هذا الميلاد بدأت أعمال كوكان التجارية تتدنى وتنخفض باستمرار • لقد كان في الخامسة والثلاثين عندما ترك مقر عمله ذات يوم ومنح نفسه الى الأبد للرسم دون نكوص •

لقد انفتح الباب المغلق أمام الطائر فسار في الطريق الصعبة وبدأ يدرس الوجوه والطبيعة والأعماق فاتحا في ذاته النافذة الواسعة على العالم •

لقد بدأ معاناته بشكل حقيقي عندما انتصر على سطحية الحياة وكل القيود الاجتماعية التي تقف حائلا وعقبة أمام التطور والتجربة الجـديدة وقد أخلص في ذلك كأخ بار لجميع الفنانين والشعراء والكتاب والممثلين الذين عاشوا حياة الصعلكة المتفجرة بالأغاني والرموز والحب للتجدد والأرض ، وكابن حقيقي لجميع الثوريين الفرنسيين والبوهيميين الـذين وقفـوا كاشارات مضيئة في الطريق العريضة التي سارت عليها قـافلة المجددين الأصليين • ويجب علينا أن نشير هنا ان تحولا كهذا لا يجري اعتباطا وانما هو نتيجة لكل التراكمات والذكريات والحياة القاسية كبحار ، والهانئة كبرجوازي ، نتيجة للحظة التأزم التي تضع الفنـان أمام قـدره : الفن أو اللا فن ، وقد أختار أن يكون فنانا ضد الترف الاجتماعي ، ضد الزوجـة وأطفالها الخمسة ، فنانا يعيش حياته الخاصة كمـا يريد رغم النـداءات الخارجية الممتلئة بالضحك والسخرية • ومن أجل أن لا تسقط الراية كان عليه أن يقاتل حتى النهاية دون توقف ضد أية محاولة للانتكاس • لقـد اتقدت الشعلة أكثر فأكثر وارتفعت تضيء ، وبالمقـابل كانت الخسارة • وخلال سنة واحدة فقط من اعتزاله للعمل في مكتبه أضـاع آخر فلس في جيبه حيث باع بيته الأنيق بما فيه من أثاث وطنافس غالية الثمن • واضطر للرحيل الى الدانمرك مع زوجته حيث كانت عائلتها ، وحيث كانت وجبات الأكل متوفرة أحيانا على الأقل • ولكن الدانمركيين الذين لم يعهدوا شيئا من هذا القبيل أخذوا يسخرون منه كرجل يعيش عالة على زوجتـه ، ومن رسومه الغريبة المضحكة في نظرهم • وعلى أثر ذلك قرر شيئا ذا قيمة عظيمة بالنسبة لحياته ، لقد قرر العودة الى باريس ولـكن بدون (ميتي كاد) ليخوض ملحمته الخاصة ، ملحمة الوجود ••

بدأت الملحمة الهوميروسية عبر يوليسيس الفن الجديد بقوة هـائلة مكتسحة كل عقبة • خسر كل شيء من أجل الرسم ، فما الذي يخاف فقدانه بعد ذلك ؟ لقد عاش بعد عودته من الدانمرك حياة أقسى من التخيل المرضي ، وكان يقضي لياليه في العراء والشوارع المكسوة بالجليـد ، وينـام على المصاطب المتناثرة في الحدائق والأرصفة في أقسى أيام الشتاء برودة ، متوحدا في الريح ، وتمر أيام متتابعة دون أن يذوق الطعام ، كان يعيش بصعـوبة كشراع يحاول اقتحام العاصفة ، واشتغل لفترة معينة كصباغ لقاء بضـع فرنكات ليوم عمل شاق متعب • وكم كانت فرحته عظيمة حينما سمع ان صاحب احدى الحانات في ـ بونت آفين ـ في منطقة ـ بريتاني ـ يبيـع الرسامين بالدين ، كما أنه يقدم أحيانا لهم بعض الفلوس (على الحساب) • وسرعان ما حصل على بعض الفلوس وسافر نحو ـ بريتاني ـ حيث يمكن أن يضمن خبزه عندما يجوع • ورغم أن أعمق لوحاته هي من نتاج هـذه الفترة ـ وهي الآن محفوظة في أشهر متاحف العالم ـ الا أن أحدا لم يلتفت اليه أو يندر لوحاته ويعطيها ما تستحقه من الاهتمام والتقييم • لقد قصد

مرة أحد باعة اللوحات وعرض عليه لوحاته فما كان من البائع الا أن يحدق فيها مليا ثم يفكر لابد ان هذا الفنان به مس من الجنون ، وبعد أن قلبها ، راميا الواحدة فوق الأخرى دون أهتمام قال مخاطبا كوكان .

ـ انها مضحكة حقا . شلالات نياكارا ! يا للسخرية .

ـ حسنا هل يمكن أن تشتريها ؟

ـ سأدفع لك بضع دولارات عن هذه اللوحات الثمانية ، وارجو اعتبارها كمساعدة مني لك .

ومع ذلك فقد بيعت احدى لوحات كوكان وفي مزاد علني عام ١٩٥٩ في (ساوثباي) بمئة واربعين ألف دولار . والحقيقة ان لوحـات كوكان لا تقدر بثمن . ولكن كم كان ربح كوكان من لوحـاته أثنـاء حياته ؟ ان ما حصل عليه كوكان لم يتجاوز الخمسة آلاف دولار ، وهنا المشكلة ، اذ أنه قدم حياته ثمنا للفن العظيم الذي أهداه للمجددين في كل مكان . لقد تعذب وتشرد وتصعلك وجاع حتى الموت ، وأهان نفسه من أجـل أبسط حق وهو مواصلة الحياة كي يرسم ولكنه لم يسـتغرب ذلك ، فقد كان يدرك أن الفنان العظيم يظهر خلال أقسى التجارب عنفا وقوة . وهو يشبـه في ذلك الرسام الانكليزي (ستريكلند) بشكل غريب ، وستريكلند هو الرسام الارستقراطي الذي تعلـم الرسم في الأربعين وعـاش مع الكلاب واللصوص والبغايا بعد أن ترك زوجته وعمله ، في حالة تعسة جدا وازدراء الجميع ولعنوا رسومه ومن غريب الصدف أن يهاجر مثـل كوكان نحـو الجزر الجنوبية وينتهي هناك اثر مرض الجذام البشـع في احدى جـزر تاهيتي الدافئة .

وتمتاز لوحات كوكان خلال بقائه في ـ بريتاني ـ بالمشاهد الطبيعية المؤثرة والقوية ، والنساء البريتونيات المتوشحات ، والأطفـال الصـغار الحفاة وهم يلعبون على الشاطيء . ولكن الجمهور لم يحترم لوحاته .

وعندما تعب من الافلاس قصد ـ أرليس ـ في شمال فرنسا ليعيش مع صديقه العزيز (فنسنت فان كوخ) وقد فرح (ثيو) بذلك كثيرا لأنه اعتقد ان لقاء كوكان بشقيقه (فنسنت) قد يخفف من أزمتـه النفسية وجنونه التعس . وقد ساعده كوكان بالفعل كثيرا ، فقد دفعـه في طريـق التلاحم الاجتماعي مع الآخرين من بغايا ورسامين وكادحين ، أعطاه تمردا أقوى ، وعاشا معا في غرفة واحدة يتناوبان فيها العمل من تنظيف وغسـل وطبخ ، ويعملان بشدة ولساعات طويلة في الرسم . وكان فـان كوخ يكن احتراما عميقا لكوكان ويمتدح لوحـاته باسـتمرار دون أن ينبس كوكان بشيء حول لوحات فان كوخ وقد أخبره مرة بذلك لأنه ضاق ذرعا بصمته فما كان من كوكان الا أن قال له : انني عندما أنظر في لوحاتك أخجـل من نفسي لأنها أرفع من أن يقيمها انسان ، مهما كان هذا الانسان . ان هـذه الحادثة وحدها تدلنا على مقدار احترام كل واحد منهما لصاحبه وهمـا من

ابرز الفنانين في تاريخ الرسم الحديث • ولكن أفكارهما سرعان ما تصادمت ونظرا لحاجة كوكان الى الرحيل المستمر بحثا عن معاناة جديدة فقد أخبر (فينسنت) بنيته ولكن ذلك كان كافيا لدفعه الى الجنون الكامل • وفي نفس ذلك المساء كان كوكان يتمشى على الرصيف عندما سمع أصوات أقدام مسرعة خلفه ، وعندما التفت ليتأكد من الأمر وجد أن فان كوخ يتتبعه وفي يده سكين حادة • أوقفته نظرات كوكان دون أن ينطق بكلمة ، وعندما رجع الى البيت قطع اذنه ووضعها داخل صندوق من الكرتون ملفوف بخيط انيق وأرسلها الى عاهرة مبغى كانت قد أبدت اعجابها باذنه كهدية من حبيبها الفنان العظيم • وعلى أثر ذلك أرسل الى المستشفى برعاية أخيه (ثيو) ـ بائع اللوحات ـ الذي كان يحبه كثيرا حيث بقي يرسم بعنساد وقوة ضد الأعصاب المهدمة الثائرة • وبعد سنتين من الحادث المذكور أطلق فان كوخ النار على رأسه من مسدس كان يخصه ، منهيا بذلك قصة رجل كان من أحب أصدقاء كوكان في طريق الخلق الفني المبدع •

وبعد عودة كوكان الى ـ بريتاني ـ ساهم مع جماعة من الرسامين الشبان في خلق أسس الملامح الجديدة للرسم بألوانه البدائية القوية الجامعة بين البنفسجي والأصفر الفاتح والبني ، مع محاولات جديدة في استغلال اللون الأخضر الزاهي والداكن ، والتجريد الداخلي الذي تتسم به لوحات هذه الفترة حيث تتحول الأشكال الى شكل من أشكال الحلم بالحياة ، مقتربا بشكل عميق من مفهوم (أنطون تشيكوف) عن الفن « ليس علينا أن نصور الحياة كما هي ، أو كما ينبغي أن تكون ، بل كما نراها في أحلامنا » ـ مسرحية النورس ـ كما ساهم في صنع بعض التماثيل من الخشب ، ورسم بعض الصور على جدران وأبواب وسقوف الحانات المتناثرة ، ورغم اعتراف بعض النقاد به فقد ظلت لوحاته في نظر الجمهور خارجة على المألوف بشكل مضحك ، وحتى سن الثانية والأربعين لم يربح شيئا يذكر من الرسم •

ومرة أخرى عاود كوكان الحلم بالرحيل نحو البحار الجنوبية حيث الجنة والنساء والخمر والتي كتب عنها الكاتب الامريكي (هيرمن سيلفيل) أروع رواياته ومنها « الجزر الوحشية » • لقد عاش الحلم طويلا في مخيلة البحار القديم ، وجاء اليوم الذي تحقق فيه الحلم فقد حصل على بعض الفلوس التي تغطي نفقات السفر من بيع بعض لوحاته وسار نحو الجزر التي أحبها كثيرا ليعيش ويرسم كأي فنان بدائي تدهشه الرؤيا الخاطفة • وعاش في (تاهيتي) فترة من الزمن في كوخ يطل على بحيرة منفصلة عن البحر ، مع فتاة من السكان الوطنيين حيث درس وجهها وجسمها في عدة لوحات تعد من الشوامخ ، وبعد انقضاء ثمانية وعشرين شهرا رجع الى فرنسا حاملا معه مجموعة من اللوحات المتفتحة التي تتدفق بغموض الجزر الوحشية • وقد عرض أربعين لوحة منها في أحد المعارض ولكن لم يبع منها

سوى القليل الذي اشتراه اصدقاؤه القدامى كمساعدة له ، وكتب أحـد النقاد ساخرا منه « اذا كنت تريد أن تضحك أطفالك فخذهم الى معرض كوكان » وعنـدما قرأ كوكان ذلك ٠٠ بكى ولأول مرة في حياته الفنية .
لقد وهب نفسه وحياته للرسم ولكنه لم يربح سوى السخرية ولذلك قرر أن يترك باريس التي لم تستطع أن تكتشف أعماقه المعطاء ، وقفل راجعا مرة أخرى الى الجزر الجنوبية وهو في حالة شديدة من التأثر وكان حينذاك في السابعة والأربعين من عمره ٠٠ ليعيش أعوامه الأخيرة التعسة ٠ عاش في البداية في تاهيتي ثم رحل الى (دومينيكا) في جـزر (الماركيسيز) ، وظل يقاوم مرض السفلس الذي لم يكن قد اكتشف علاجه بعد ، كما عانى كثيرا من جرح مفتوح في ركبته دون أن يلتئم وقد كتب عن عـذاباته تلك قائلا « وانني انتظر هنا كفار سقط في برميل مرمي وسط البحر » كمـا كتب الى زوجته « ميتي كاد » التي فارقها من زمن بعيد رسائل في غـاية الرقة والروعة « أحبيني كثيرا ، لأنني عندما أعود سنصبح عاشقين مرة أخرى ٠ انها قبلة عاشق هذه التي أرسلها اليك في عناق أبدي ! » ولكنها لم ترد على رسائله قط ٠

وفي الجزيرة التي ينبت فيها نبات فـاكهة الخبـز ويرقص ويغني البولينيزيون بشوق آلهة وثنية ، وترتفع الطيور المتآلفة العائدة من الغابات لتغطي جبهة الأفق عانى كوكان كثيرا ٠٠ كان المرض يأكل رجليه وكان في طريقه الى العمى وقد قال للدكتور الذي جاء لزيارتـه في احـدى المرات « ان النور في عيني ينطفيء » ٠

وعندما مات عام (١٩٠٣) كانت بجانبه آخر لوحة له عن سـقوط الثلج في (بريتاني) ٠٠٠ ياله من موضوع غريب في مكان كالجزر الجنوبية ٠ وبعد موته بسنوات قليلة اتجهت الأنظار اليه تماما مثل فان كوخ وستريكلند وتولوز لوتريك ، وبدأ البحث الجنوني عن لوحاته التي باعها لقاء وجبة طعام أو قنينة خمر أو لحظة لذة وقد وجدوها في الحانات والمباغي والفنادق وكانت مرمية في السراديب والمخازن لأن أصحابها لم يعتقدوا انها تستحق وضعها على الجدران كما أن قسما منها قد اتلف واستعمل كغطاء للأرض أو تحول الى أحذية من الجنفاص ٠ وقد رسم كوكان على كل شيء وخاصة عندما كانت تعوزه الفلوس لشراء الجنفاص ٠٠ رسم على باب غرفته وزجاج النوافذ بألوان ساحرة حتى لا ينقطـع عن الرسم ٠ وقد وجـد الكاتب الانكليزي الشهير (سومرست موم) بعض هذه الصور في غرفة نوم كوكان ٠

وقبل موته بقليل كتب قائلا « انني أؤمن بأن الفن هو الجذر المقدس الذي يعيش في قلوب الرجال الذين مسهم ضوء العلية ! »

لقد حمل كوكان رسالة الفن بعزيمة وقوة منفردا كنجمة الصبـاح ، متحديا كل شيء من أجل أن يمنح رؤياه الخاصة قوة لا تقهر ! كان النسر الذي ارتفع أعلى من الأفق معلنا ميلاد الفن الحديث ٠

لغة الضاد في شعر حليم دمّوس

١٨٨٨ – ١٩٥٧م

الدكتور محسن جمال الدين

يحتل الشاعر اللبناني (حليم دموس) المنزلة المحترمة ، في أوساط الناطقين بالضاد ، لما يمتاز به شعره ، من اصالة في اللغة ، وبساطة في التعبير ، وجمال في الصورة ، وبيان في العبارة ، وتحمس للفكـرة ، التي يدعو اليها ، ويؤمن بها !!

وهو من شعراء (لبنـــان) الذين احبوا العـــراق ، وناجوه ، في اشعارهم ، وكرّموا شعراءه عند نزولهم فيه ، وترحالهم عنه .

كما كان من المؤمنين (بالعروبة) ، والمنافحين المكافحين ، عن حياض غيرها ، وسلسل معينها !!

وكانت تربطه صلات الود مع كبار شعرائها ، وادبائها ، وكتابها ، في الوطن العربي والمهاجر . ينشدهم الاشعار ، ويتطارح معهم الافكار ، ومن اوادائه واصفيائه .

في العـــراق :

معروف الرصافي ، جميل صدقي الزهاوي ، رفائيل بطي .

وفي مصـــر :

أحمد شوقي ، حافظ ابراهيم ، خليل مطران ، طه حسين ، الآنسة مي ، فليكس فارس ، يعقوب صروف .

وفي ســـورية :

خليل مردم ، محمد كرد علي ، محمد البزم ، عبدالرحمن شهبندر ، فارس الخوري ، سامي الكيالي ، أديب التقي .

وفي المهجـــر :

جبران خليل جبران ، وايليا ابو ماضي ، فوزي المعلوف ، رشيد أيوب ، شفيق المعلوف .

وفي لبنـــان :

الاخطل الصغير ، ابراهيم المنذر ، شبلي ملاط ، عبدالرحيم قليلات ، امين الريحاني ، محمدعلي الحوماني ، مصطفى الغلاييني ، محمد جميل بهيم ، فتى الجبل ، جرجي نقولا باز ، سليمان ظاهر ، أحمد رضا ، أحمد عارف الزيني ، امين ناصرالدين ، أمين تقي‌الدين • وغـــير هؤلاء ••• واولئك •

ونحن اذا استعرضنا ديوانه (المثالث والمثاني)[1] • نراه معرضـــا للقصائد الرائعة ، والـكلمات الرقيقة ، والصور النادرة ، التي ضمها بين صفحاته • قرضه امير الشعراء (احمد شوقي) وقال فيه من رسالة شعرية كتبها بنفسه ، وبعث بها لصاحبه[2] •

أجـــزاء وشــــي يمــــان	ام ذي فصـــول بيـــان
مـــن الـكتاب المحـــلي	« مثالثــــا ومثــــاني »
فمـــا الغمـــام البواكي	بضاحكـــات الجنـــان
ولا العيـــون الجــــواري	فـــن الروابي الحســـان
ولا الجمان عـــلى البض	مـــن نحـــور الغـــواني
ولا شجي الاغاريد في الغصـ	ـــــون اللـــــدان
ولا الرحيـــق المصـــفى	عـــلى يـــد الندمـــان
ولا زمـــان التـــلاقي	ولا ليـــالي التـــواني
الا معــــان حوتهـــا	الفـــاظه والمعـــاني
عش يا حليـــم وأنشــد	ما انت الا ابن هـــاني
•••	•••

اما الـكاتب المعروف (فليكس فارس) فقد قال عنه ، في كلمة جامعة شاملة نورد منها هذا المقطع :

« ••• ليسمع عشاق الشعر رنات « المثالث والمثالي » تنقرها أنامل (دموس) على قيثارته ، وقد صفت نغماتها ، وانفرجت اصداؤها في كل قطر عربي • وليحيوا معي الشاعر الذي صيره الجلد والصبر جبارا يحتفظ بشاعريته ويرفعها الى المستوى الاعلى • وكم حوله من دوحة عالية تنثر الشعر ازهارا ميته صفراء لا أريج فيها ولا عبير • »[3]

لغة الضاد في شعره :

قل ان تخلو روائعه التي كان ينظمها ويلقيها من الاشادة بفضـــل (اللغة العربية) ومكانتها بين اللغات الاخرى ، لانها الروح الخالدة في كيان الامة ، والسلاح الماضي في وجه اعدائها ، ومفسدي ذوقها الفني واللغوي • وهي الرمز الثابت لاستقلال الوطن العربي وكرامته •

ولقد قمت بدراسة ما ورد عن (لغة الضاد) في ديوان الشاعـــر

بجزئيه الاول ـ والثاني • فوجدته حاويا على (ثمان واربعين) قصيدة ، منها (تسع) قصائد ومقطوعات في الاول ـ والباقي منها في الثاني •

وهذه القصائد والمقطوعات الشعرية الكثيرة ، كان الشاعر ينظمها في مناسبات تقام ، لتكريم عالم ، أو شاعر ، او صحافي ، أو رثاء اديب ، أو ازاحة الستار عن تمثال لكاتب ، أو شخصية وطنية ، او حنين لمهاجر ، أو فتح دار للكتب ، أو الترحيب بضيف كبير • أو لخواطر نفسية ، وهواجس روحية !!

ومن أبرز هذه القصائد المعنونة باسم (اللغة العربية) قصيدتان همـــا :

١ ـ قصيدة « لغة الاجداد »(٤) •

٢ ـ قصيدة « لغتي »(٥) •

أما قصيدة (لغة الاجداد) فتبدو فيها حرارة محبته للعربية ، وبيان محاسنها ، وهي صرخة مدوية ليقظة ابنائها ، في سبيل الحفاظ عليها ، والاعتزاز بها ، مع تذكيره لهم ، بماضيها الزاهر في ربوع الغرب • قال منهـــا :

لا تلمني في هواهـــا   أنا لا اهوى سواهـــا
ما لقومي ضيعوهـــا   فدهاهـــا ما دهـــا

* * *

كلما ناديت واهـــا   هتف الاخـوة واهـــا
ما انا وحدي فداهـــا   كلنـــا اليوم فـداها

* * *

•• في ربوع (الغرب) منا   اخـــوة راموا علاهـــا
حبهـــا رغـــم التنائي   في حناياهـــم تنـــاهى

* * *

عززوهـــا فتجلـــت   لغـــة يسبى بهـــاها
بمعـــان رائعـــات   رجـع الكون صـداها

* * *

لم يمت شعب تفاني   في هواهـا واصطفاهـا
هي مجلى الفخر فاحنوا   عند ذكراها الجباهـــا

* * *

واعيـــدوا يا بنيهـــا   نهضـــة تحيي رجاهـــا
اتراها تستعيد المجـــد   يومـا أتراهـا !!•••

* * *

لغـــة الاجداد هـــذي وبهـــا نرجـــو انتباهـا
قـــد عشقناها صغارا رفـــع الله لواهـــا

* * *

اما قصيدته (لغتي) • فهي مناجاة وجدانية لطيفة رائعة وجهها الى (ربة الشعر) لـكي تهب لها المجد والرفعة !! والى (القلم) لـكي يحرص على كرامة لغة الاجداد ، ويصون حرمتها • والى (الوطن) لـكي يتسابق ابناؤه لنهضتها • والى (العلم) لـكي يرفرف عاليا في سماء الناطقين بها • والى (ولده) لـكي يصبح شاعرا غردا ناطقـــا بترانيمها ، وكلماتها ، وبلاغتها • والى (بني قومه) كي يصونوا حمى اللغة الفصحى ، ولا يغفلوا عن حراسة معالمها !!

قـــال :

يا (ربة الشعر) رفقا بالذي مثـــلا امام هيكلك القدسي مبتهـــلا
لي في الورى (لغة) هام الفؤاد بها وكم لها فيك آيات جرت مثـــلا
أبغي لها المجد والعلياء من صغـــر لا كنت لي ربة ان مجدها أفلا !

* * *

وانت يا (قلمـــا) صاحبته زمنـــا وظل يسمعني من آيه نغمـــا
احرص على (لغة الاجداد) ان لها محاسنا هزت الافرنج والعجما
فان تنكبت يوما عن مناهجها ••• لاكنت لي صاحبا لاكنت لي قلما !

* * *

وانت يا (وطني) يا من أقدسه دون المواطن ان سرا وان علنـــا
عشقتها (لغة) في الارض رائعـــة الشرق والغرب في آدابها افتتنـــا
ان لم يجـــدد بنوك اليوم نهضتنا لاكنت لي سكنا لاكنت لي وطنا !

* * *

وانت يا (علما) بالروح نعشقه وقد تموج في عليـــائه وســـما
كن انت و (اللغة) الغراء رابطة وثقى اذا زال عهد العز وانصرمـــا
ان لم تفيء على من ينطقون بهـــا لا كنت لي راية لا كنت لي علما !

* * *

وانت (يا ولدي) يا من احب ومن اهفو له كلما وجه الصبـــاح بدا
لا تعشقن سوى (أم اللغات) وكن فيها كما اتمنى شاعرا غردا
فان نشأت ولم تعشق بلاغتهـــا لا كنت لي أملا لا كنت لي ولدا !

* * *

وانتم (يا بني قومي) اناشدكم بمن به عز انجيـــل وقـــرآن
صونوا حمى (اللغة الفصحى) فليس لكم من دونهـــا وطن يعلو له شـــان
فان غفلتـــم ولم تحموا معالمهـــا لا القوم قوم ولا السكان سكان !

* * *

بعد ان عرضنا الملامح العربية التي جاءت في شعر حليم دموس[٦] واثبتنا بعض النماذج الشعرية التي نظمها في (لغة الضاد) • نورد الآن المنابع التى استقى منها معين شاعريته ومحبته للغة العربية ، ويمكننا الآن اجمالها بالموارد التالية :ـ

أ ـ عروبته ونسبه :

فهو من القبائل (الغسانية) من آل عيسى ـ نزحت من (الكرك) من حدود البادية ، منذ مئات السنين ، واستوطنت (زحلة) • وكان ابوه شاعرا زجليا ، ينظم الاشعار والقصائد القومية بداهة ••[٧]

ويظهر ان الروح القومية ، والعصبية القبلية ، والمحافظة على الانساب، ظلت ملازمة لنفوس النازحين الى (لبنان) من الجزيرة العربية ، واطرافها منذ العصور الوسطى وما قبلها • ونلمس هذا الآن ولا نزال في القبائل التنوخية ، والقيسية واليمانية المتوطنة في لبنان • وهي حتى الامس القريب تتصارع على الرئاسة ، وتتفاخر بالانساب ، وتعتز بالالقاب •

ب ـ دراسته :

كان تلقي (حليم دموس) للعلوم العربية في (الكلية الشرقية) التي أسست في زحلة بادارة العلامة المرحوم الاستاذ (عيسى اسكندر المعلوف) والد الشاعر (فوزي المعلوف) واخوته النوابغ • وقد استفاد من تلمذته ومحيط مدرسته ، لغة ، وبيانا ، وبلاغة • واطلاعا ، لآثار العرب ومنزلتهم ، والتي كان ينشر عنها (العلامة المعلوف في مجلته الآثار) •[٨] كما جعلت روح البحث والتتبع والكتابة الصحفية ، تسري في دمائه ، وتدفعه لآفاق المعرفة ، والثقافة العربية •

ح ـ عصر الشاعر :

عاصر الشاعر (حليم دموس) عصريين متفاوتين ، عصر الدولة العثمانية وسلطانها ، وموقفها تجاه العرب ولغتهم والدعوة لتزكيهم • وعصر الفرنسيين الذين كانوا يبثون دعاتهم ، وينشرون معاهدهم ، ويدعمون لغتهم ، في اخفاء معالم الشمائل العربية ، عن سكان لبنان ، واحلال اللغة الفرنسية محلها •••

والغريب ان لهؤلاء دعاة ، وانصارا ومرتزقة ، يرون ان التحدث بلغة العروبة والقرآن ، هو ضرب من المستحيلات • أو مظهر ، من الرجعية والجمود ••

ومن ابرز هذه المعاهد التي حافظت على كيان لغة القرآن الكريم (الكلية الاسلامية) لمؤسسها المرحوم العالم الشيخ (احمد عباس الازهري) •[٩] ومدرسة (الحكمة) التي أسسها (المطران الدبس) و (الكلية الشرقية) التي شيدت في زحلة •

كما لا ننسى صيحات (اليازجي) و (البستاني) و (ضومط) و (الزين) و (رضا) و (ظاهــر) و (ارسلان) و (ناصرالدين) و (الغلاييني) و (الملاط) و (الخوري) و (تقي‌الدين) و (دموس) ٠ التي كانت تقض مضاجع المستعمرين ، وتزعج أحلامهم ٠ لانهم يرون ان قوة اللغــة العربية في لبنان ، قوة للروابط العربية ، وان تدريسها في معاهدهم ، انما هو اعتراف بعروبة البلد ٠ وحقيقة انسابه العربية ، من تنوخ وغسان ولخم ٠

ونحن اذا درسنا الـكثير من ثمرات الادب العــــربي اللبناني ، في دياره ، ومهجره ، وجدنا ان من بين عنادله جماعة من الادباء والشعراء ، حوربت في حريتها ، وسجنت في بيوتها ، واضطهدت في عقيدتها ٠ ولاقت مر العيش وقسوته ، وغربة الديار ولوعتها ٠ وما ذنبها الا ايمانهــــا بالعربية ، ودفاعها عن قدسيتها ومكانتها ٠

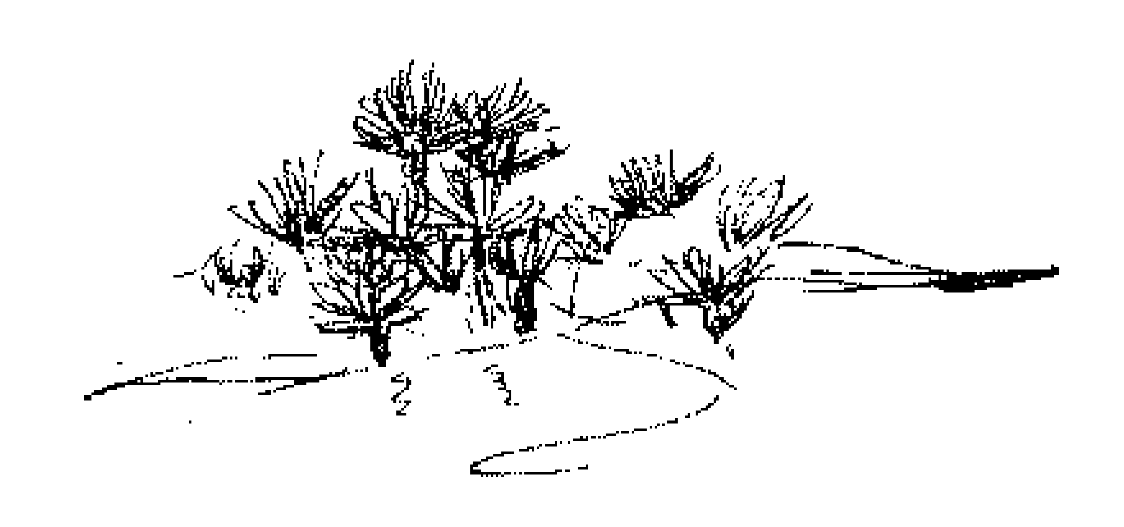
د ـ هجرة الشاعر :

أصابت مآسي (الحرب العالمية الاولى) لبنان ، وما جاوره من البلاد العربية ٠ ومرت عليه مجــــاعة شديدة ، صورها شعراؤه ٠ كالاخطــــل الصغير ، وملاط ، وناصرالدين ٠ ودموس ٠ أبلغ تصوير واحسنه ٠ وقد اخذت الالوف من ابناء الجيل اللبناني تغادر بلادها الى ما وراء المحيط الـكبير ٠ ساعية وراء الرزق ، وباحثة عن اللقمة ، بعيدة عن الاضطهاد الفكري والسياسي ٠ وانتشر اللبنانيون تحت كل نجمة ، وعند كل بلد ٠ قبل الحرب الـكبرى ، وبعدها ٠

وقد ركب (دموس) البحر مهاجرا الى (البرازيل) سنة ١٩٠٥ وظل هناك ثلاث سنوات ٠ تعلم فيها (اللغة البرتغالية) وترجم عنها ، ومن اشعار شاعرها المشهور (كازمير دي ابراو Kasimiro do Abreu) ٠ حيث ترجم قصائده ونشــــرها في صحف بلاده والمهجر ٠ واقتبس بعض أساليبه واخيلته[١٠] ونقلها الى (لغة الضاد) ٠ ومن أثر هذه الهجرة ، التي تركت اثارها في حنايا نفسه ، وفي جوانب قلبه ٠ نظم الشاعر قصائد متعددة ٠ نال فيها الجوائز الاولى ٠ والتي منها قصيدته (المهاجر)[١١] وقصيدته (بين الوطن والمهجر)[١٢] ٠ وكلا الرائعتين انما هما تصوير دقيق لحالة الوطن العربي ٠ وهجرة ابنائه ، وغربتهم في الروح والجسد ، واللغة والعشيرة ، والاسرة !!

والانسان الذي يهجر وطنه ، ويترك مرابعه ، الى بلاد نائية غريبة عنه ، يهزه الشوق دائما اليه ٠ ويدفعه الحنين احيانا ان يخاطب نفسه بلغته الام ، كي يشنف اذنه برنات حروفها ، ويهدهد قلبــــه بموسيقى كلماتها ، واغاني قريتها او مدنيتها !! وقد يحول هذه العواطف الثائرة في كيانه ، اذا كان شاعرا الى قصائد تحرك الشجون ، وتسيل المآقي ٠

وتبعث الآمال • وتخلق العـــزة القومية ، والـكرامة الوطنية •(١٣) وان نصيب الشاعر الذي ندرسه الآن ، هو النصيب الاوفر من هذه العواطف الكريمة ، ومن هذه الصفة الحميدة ، التي تتصل باللغة المقدسة ، وبمقامها الرفيع الامثل • وان في اشعاره التي نظمها في هذا المجال ، ما يمنحه طيب الذكرى ، وجميل الاحدوثة(١٤) •



(١) « المثالث والمثاني » ديوان الشاعر دعوس • نشرته مجلة (العرفان) بصيدا صـــدر الجزء الاول منه سنة ١٩٢٦ في ٢٠٨ صفحات • وصدر الجزء الثاني منه سنة ١٩٣٠ في ٣٤٠ صفحة •

(٢) راجع : المثالث والمثاني ج٢ ص ١٥٣ والقصيدة بتاريخ ٧ آب ١٩٢٨ بخط امير الشعراء (أحمد شوقي) •

(٣) راجع : المثالث والمثاني ج١ ص١٤ والكلمة بخط الكاتب كتبها في ٢٥ أيلول١٩٢٥ •

(٥) وردت في الجزء الاول ص ١٤٣ وهي في ٢١ بيتا نظمها سنة ١٩٢١ •

(٤) وردت في الجزء الاول ص٣٦ وهي في ٣٢ بيتا نظمها سنة ١٩٢٦ •

(٦) كان بودنا أن نتوسع في هذه الدراسة ، ونورد نماذج مختلفة من ديوانه ، لولا ما يضايق صفحات المجلة ، ويزاحم موادها الاخرى •

(٧) راجع : خاتمة ديوانه ج٢ ص٣٣٥ للكاتب المرحوم (جرجي نقولاباز) •

(٨) الآثار ــ مجلة شهرية كان يصدرها في (زحلة) في مطلع القرن العشرين ، وقــد اهتمت بالدراسات اللغوية ، والاثرية ، والادبية •

(٩) للشاعر قصيدة رائعة في (يوبيل الشيخ الازهري) وبها أبيات عن (لغة الضاد) راجع : ج١ ص١٢٢ •

(١٠) راجع : كلمته في ديوانه عن (شاعر البرازيل) ج١ ص ١٧ •

(١١) راجع ديوانه ج٢ ص١٠٥ •

(١٢) راجع ديوانه ج٢ ص/د

(١٣) نلمس هذا في دواوين شعراء المهجر الكبار ــ كالقروي ــ والمعلوف ــ وأبي ماضي ــ والجر ــ وفرحات ــ وغيرهم •••

(١٤) قد نختلف مع الشاعر المرحوم (دعوس) بما ذهب اليه في أواخر حياته من تفكير عقائدي • ولكننا نكبر فيه روح الشاعرية العربية ، ودفاعه المجيد عن (لغة الضاد) •

ابن رشد
فيلسوف العرب الأكبر

ابراهيم الخال

كتب المفكر الانجليزي « جون روبرتسن » ، أحد أقطاب حرية الفكر الذين ظهروا في تاريخ انكلترة ، فقال عن ابن رشد في كتابه « موجز تاريخ الفكر الحر » [– ١/٢٧٧ –] بأنه « كان أكبر المفكرين المسلمين تأثيراً في الفكر الاوربي ، وانه أحسن من شرح أرسطو ، وكان فضله ظاهراً بشرحه مذهب الوهية العالم ، وهو المذهب الذي يقول بأزلية الكون ، وبأن النفس المنفصلة انما تخلق من النفس الكلية ، ثم ترجع اليها وتتلاشى فيها ، وهو شرح جعل لابن رشد شأناً باذخاً في دنيا الفكر الاسلامي والفكر المسيحي سواء بسواء . »

ذاك هو أبو الوليد ، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أكبر فلاسفة العرب والاسلام ، الذي لعبت افكاره وشروحه دوراً جباراً في عصر النهضة الأوربية التي أعقبت ليل القرون الوسطى الطويل ، وهي نهضة تمخضت عن كتاب عباقرة كبار ، فتحت أفكار ابن رشد عيونهم خلالها على تراث الفكر اليوناني وما انطوى عليه من حرية فكرية وغير ، ليتمكنوا بعدها مع مر السنين من تهيئة الشعوب الأوربية لاسترجاع حرياتها السليبة ، فكانت هناك الثورات المتلاحقة التي تفجرت على صعيد أوربا ، والتي امتد شررها بعد ذلك من أوربا الى أربعة أركان العالم .

ولد ابن رشد بمدينة قرطبة بالأندلس عام ١١٢٦ في بيت علم عريض الجاه ، فقد كان أبوه قاضياً لقرطبة ، وكذلك جده ، وهما من أعلام المذهب المالكي في ذلك العصر . ولمحمد بن رشد – الجد – مجموعة من الفتاوى ، جمعها بعض مريديه وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، وتحمل الرقم « ٣٩٨ – مخطوطات عربية » . أما أبو الوليد نفسه ، فقد تولى القضاء أيضاً ، ولكن في اشبيلية ، ومن بعد في قرطبة .

وكان ابن رشد قد درس في مطلع حياته الفقه المالكي على أبيه ، كما درس الطب على كبار أطباء عصره ومنهم هرون المكنى بأبي جعفر[1]. أما الفلسفة ، فقد درسها على اساتذة ذوي اقتدار كما يظهر ، لم يحتفظ لنا التاريخ ببعض اسمائهم بين فلاسفة العالم الكبار . وكان رأينا أن نرفض رأي العالم الطبيب المؤرخ ابن ابي اصيبعة في ان ابن رشد قد درس الفلسفة على فيلسوف الاسلام الكبير ابن باجه ، وذلك بعد أن رأينا بأن وفاة ابن باجه كانت عام ١١٣٨م ، أي عندما كان ابن رشد لم يزل بعد طفلا لا يستطيع استيعاب افكار اسطو واضرابه . غير ان استاذنا الفاضل الدكتور مصطفى جواد ، وهو الحجة السند ، قد نبهنا الى ضرورة الاحتراس وعدم الاعتماد على التواريخ الميلادية في مسائل مثل هذه بسبب ان المؤرخين الغربيين يخطئون أحياناً في نقلهم التاريخ الهجري الى التاريخ الميلادي .

كذلك فان الذي يظهر لنا هو ان ابن رشد كان يدرس الفلسفة أيضاً على نفس الاساتذة الذين درس في بيوتهم الطب ، فقد كان الأطباء كما هو معلوم ، أكبر الناس عناية بدراسة الفلسفة تلك الأيام . ولقد كانت لابن رشد علاقات وثيقة مع كبار علماء عصره وفي طليعتهم آل زهر الذين برز منهم أبو بكر بن زهر ، طبيب الأمير الحاكم في الاندلس آنذاك ، وغيره ممن برزوا في ميادين الفقه والأدب . على أن صلة الود بين ابن رشد وصنوه فيلسوف الاسلام الكبير ابن طفيل ، لم تبلغ مثلها بين فيلسوفين كبيرين ورجلين عظيمين يوماً من الأيام .

وكان ابن رشد قد شد الرحال من قرطبة الى مراكش عام ١١٥٤م قاصداً ابن طفيل الذي كان ذا حظوة ونفوذ كبيرين في بلاط الأمير عبدالمؤمن ، الحاكم الثاني لدولة الموحدين . ولقد استقبله ابن طفيل استقبالا حسناً ، وأنزله منزلا كريماً ، ثم أصبحا لا يفترقان الا للضرورة ، فكانا يتبادلان وجهات النظر في القضايا الفلسفية كلما اجتمعا ، وبقيا على تلك الحال كأحسن ما يكون عليه صديقان عظيمان مدة طويلة من الزمن . وعندما توفي عبدالمؤمن ، وخلفه على الحكم ابنه الأمير يوسف ، طلب هذا من ابن طفيل أن يجد له من يزيل الغموض عن كتابات ارسطو المترجمة الى العربية ويشرحها ، فما كان من ابن طفيل الا ان يبادر الى صديقه ابي الوليد ليخبره رغبة الخليفة ، ويرجوه بأن يضطلع بهذه المهمة الكبيرة ، معتذراً عن نفسه بكبر السن ومشاغل الحياة التي تحول دون قيامه هو بالأمر ، فوافق ابن رشد . وبهذه المناسبة ، لابد من الاشارة الى ان ابن رشد كان قد انكر « اشتغاله بالفلسفة » عندما جمعه قبل ذلك ابن طفيل بالأمير يوسف . لكنه بتشجيع من ابن طفيل الذي راح يتكلم أمام يوسف ويعرض آراءه الفلسفية بصراحة ، بدأ ابن رشد يدلي برأيه في المسائل الفلسفية التي

(١) الاقلام : في عيون الانباء لابن ابي أصيبعة انه « جعفر بن هارون » .

استفسر عنها يوسف ، وهو ما يدلنا بوضوح على أن دراسة الفلسفة وتدريسها كان يجري بصورة سرية خوفاً من تهم الكفر التي قد يوجهها رجال الفقه الى دارسي الفلسفة .

ولم يكن ابن رشد يعرف اللغة اليونانية بحال . لذلك فان شروحه لارسطو كانت قد وضعت بموجب الترجمات العربية التي قام بها العلماء في حواضر الشرق الاسلامي في القرن الثالث الهجري ، وهو ما أدى الى وقوع ابن رشد في بعض الأخطاء بسبب ضعف بعض التراجم العربية وسوء فهم بعض اولئك المترجمين القدامى لليونانية . من ذلك انه كان يخلط بين فيثاغورس وبروتاغوراس ، كما كان يظن بأن اسم هيروقليدس يعود الى جماعة يقف على رأسهم سقراط ، الى غير ذلك من الاخطاء التي استغلها ضده اعداء الفلسفة من أحزاب كنائس عصر النهضة في أوربا . على أن ابن رشد لم يكن ليثق بترجمة عربية واحدة بعينها . انه كان يجمع كل ما يتيسر له من التراجم ، ثم يقوم بالمقارنة الدقيقة فيما بينها الى أن يضع يده على الغرض الأصلي الذي يرمي اليه ارسطو ، وبذلك جاءت شروحه بمثل تلك الروعة والهيبة ، مما يؤكد على عظمة الفكر الجبار الذي كان يتمتع به ابن رشد . ولقد قال ارنست رينان عن شروح ابن رشد هذه بأن « ارسطو كان قد ألقى نظرة صائبة على الكون فشرح منه ما غمض . ومن بعده جاء ابن رشد والقى نظرة صائبة على فلسفة ارسطو فشرح منها ما غمض . » . وكان ابن رشد قد وضع ثلاثة شروح لارسطو هي الصغير ، والوسط ، والكبير . والشرح الكبير بالطبع ، هو أوفاها وأوسعها ، اذ تناول فيه فلسفة أرسطو فقرة فقرة ، وقام بشرح كل منها شرحاً مستفيضاً . أما الشرح الصغير ، فهو ملخص لتحليل فلسفة ارسطو . غير انه في الشرح الوسط ، كان يتناول الجمل الأولى من الفقرات ثم يستطرد في شروحه لها على طريقة من سبقه من فلاسفة المسلمين .

ولم يكن ابن رشد شارحاً وحسب ، انما كان ذا مذهب فلسفي خاص به أيضاً ، فقد نقد فلسفة ابن سينا والفارابي نقداً شديداً واستخلص منها ما يتفق مع آرائه ، ثم وفق كل ذلك مع فلسفة ارسطو بعد أن جردها من الثنائية التي امتازت بها — القوة والمادة — مستعيضاً عنها بوحدانية الله العلي العظيم الذي قال بأنه مصدر الكائنات وكل الوجود . وكان ابن رشد قد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين فوضع لهذا الغرض كتابين هما « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وهي نفس المحاولة التي حاولها قبله أبو نصر الفارابي . ففي الكتاب الأول ، برهن بمختلف الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة على أن الشرع يبيح دراسة الفلسفة ، كما بين ضرورة استعانة الفيلسوف أو الحكيم بآراء من سبقه من الفلاسفة ، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم . وقال بأن ما يوافق الحق من آراء هؤلاء فهو مقبول ،

وما هو مخالف له مرفوض وعلينا أن نحذر منه • ولقد رد ابن رشد في هذا الكتاب أيضاً على الغزالي في القضايا التي كفر بها ابن سينا والفارابي •

والكتاب الثاني – مناهج الأدلة – هو من قبيل الأول دونما شك ، وقد حاول فيه التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، كما هاجم بعض الفـــرق الاسلامية التي عاصرته ، كالأشعرية والحشوية والباطنية ، وراح يبرهـــن على ضلالها • ثم هو يلتفت الى ابن سينا ويشير اليه اشارة مهينة كونه يميل الى ما يشابه بعض آراء الأشعرية في العالم والوجود ، وذلك بأسلوب خشن ما كان يصح أن يستعمله ابن رشد ، وهو النابغة الألمعي ، ضد نابغة مثله من أفاضل الرجال • بعد ذلك يتكلم عن أهل التصوف وطرقهم في معرفـــة الله والوجود ، ثم يبين بأنه لا يتكلم عن المتعزلة لعدم تيسر كتبهم لديه • وفي هذا الكتاب أيضا ، يبرهن ابن رشد على وجود الله ، ويتكلم عن صفاته سبحانه ، ويبين وجه اختلافه مع العقيدة المسيحية ، ورأيه في خلق العالـــم والقضاء والقدر والمعاد وغير ذلك من المسائل التي اختلفت فيها الشريعة مع الفلسفة •

ولابن رشد كتب كثيرة تربو على الخمسين مؤلفاً ، أغلبها في الفلسفة ومنها في الطب والفقه أيضاً • على أن أكبر كتبه صدى في العالم الاسلامي في حينه ، بعد شروح ارسطو ، هو « تهافت التهافت » الذي رد به على الامام الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » •

وكان أبو حامد الغزالي قد وضع « تهافت الفلاسفة » بعد أن درس الفلسفة دراسة وافية ، وهو يركز فيه على فلسفة ابي نصر الفارابي وابـــن سينا المستمدة من فلسفة ارسطو ، ويكفرهما بسبب ما جاءا به من آراء اعتبرها خروجاً على الاسلام واهانة لشعائره • وفي ذلك يقول أبو حامد : « ابتدأت بتحرير هذا الكتاب رداً على الفلاسفة القدماء ، مبيناً تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عندالأذكياء••• » ، بعد ذلك يشير الى الفلاسفة المسلمين الذين نهجوا نهج هؤلاء الفلاسفة القدماء فيقول ساخطاً عليهم ، معلناً كفرهم في انهم « قد رفضوا طوائف الاسلام والعبادات واستحقروا شعائر الدين ، وخلعوا ربقته ، ولا مستند لكفرهم غير سماع الغي وسماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وافلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم • » •

ولقد فند الغزالي آراء الفلاسفة وبين تناقضاتها على طريقته في عشرين مسألة ، منها ثلاث مسائل أكد فيها على كفرهم ووجوب قتلهم ، وهو رأي ما كان بودنا أن يصدر عن الغزالي الذي كان نفسه رجلا من رجال الفـــكر الكبـــار •

أما المسائل الثلاث هذه ، فهي رأي الفلاسفة في :

(١) أزلية العالم •

(٢) علم الله بالجزئيات ٠
(٣) حشر الأجساد وبعثها ٠

وكان الغزالي يتفق مع الذين هاجمهم في الكثير من الآراء ٠ غير أنه في « تهافت الفلاسفة » قد ظهر بمظهر المناوىء لتلك الآراء جميعها ، ثم أصبح أكبر المدافعين عن الشريعة ضد الفلسفة في عصره ، اعتقاداً منه بأن الطرفين لا يمكن أن يعيشا سوية ويزدهرا على صعيد واحد ٠ على أن واقع حال الأمام الغزالي لم يكن بالحقيقة مع هذا الجانب أو ذاك : لقد عاش الرجل بعقلية فيلسوف جبارة ، في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه بعاطفة من اسمى العواطف النبيلة التي دفعته الى التطلع بحرقة الى الذات العلية ، وهو سبب احتضانه للشريعة ٠ بعد ذلك كان حب الغزالي لله وتلهفه للتقرب منه قد أدى به أخيراً الى الاعتكاف والانقطاع الى العبادة فعاش عيشة الصوفية الزاهدين الى أن توفي عام ١١١١م ٠

وكانت الفلسفة قد عاشت محنة مخيفة مدة سنين طويلة بعد « تهافت الفلاسفة » الى أن انبرى للدفاع عنها ابن رشد بكتابه « تهافت التهافت » الذي فند فيه اتهامات الغزالي جميعها وأبطل مفعولها بمنطق فلسفي لا تلمس فيه غير الأصالة والعمق ، ولا تلمح من وراء متونه غير بروق فكر جبار آلمه استعداء علم من أعلام الفكر الاسلامي كأبي حامد الغزالي ، الناس على الفلسفة ورافعي ألويتها في دنيا الأسلام ٠ ولقد كان عتابه للغزالي في الأوج من الشدة والحدة ، ثم في الأوج من الروعة عندما يقول :

« وأما قوله ــ قول الغزالي ــ ان قصده هنا ليس هو معرفة الحق ، وانما قصده ابطال أقاويلهم ــ أقاويل الفلاسفة ــ واظهار دعاواهم الباطلة ، فقصد لا يليق به ، بل بالذين في غاية الشر ٠ وكيف لا يكون ذلك كذلك ومعظم ما استفاد هذا الرجل من النباهة وفاق الناس فيما وضع من الكتب التي وضعها ، انما استفادها من كتب الفلاسفة ومن تعاليمهم ؟ وهبك اذا اخطأوا في شيء ، فليس من الواجب أن ينكر فضلهم في النظر وما راضوا به عقولنا ٠ ولو لم يكن لهم الا صناعة المنطق ، لكان واجباً عليه وعلى جميع من عرف مقدارها شكرهم عليها ، وهو ــ أي الغزالي ــ معترف بهذا المعنى وداع اليه ، وقد وضع فيها التآليف ، ويقول انه لا سبيل الى أن يعلم أحد الحق الا من هذه الصناعة ، وقد بلغ الغلو فيها الى أن استخرجها من كتاب الله تعالى ٠ افيجوز لمن استفاد من كتبهم وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها حتى فاق أهل زمانه ، وعظم في ملة الاسلام صيته وذكره ، أن يقول فيهم هذا القول ، ويصرح بذمهم على الاطلاق وذم علومهم ؟ »

ولقد سبق ابن رشد علماء النفس المعاصرين بثمانية قرون حينما ربط بين الأحلام واللاشعور أو العقل الباطن ــ وقد أشار اليه باسم « العقل الفعال » ــ وذلك عندما رد على الغزالي حول موضوع الرؤيا

اذ يقـــول : « ان ما حكـــــاه الغـــزالي في الـــرؤيا عن الفلاســـفة فلا أعلم أحداً قال به من القدماء . والذي يقول القدماء في أمر الوحي والرؤيا انما هو عن الله تعالى بتوسط موجود روحاني ليس بجسم ، وهـــو واهب العقل الانساني عندهم ، وهو الذي يسميه الحذاق منهم العقل الفعـــال ، ويسمى في الشريعة ملكاً . » .

وكان ابن رشد أكبر رجال الفكر المسلمين الذين دعوا الى النظـــام الجمهوري . ولا غرابة في ذلك ، فهو شارح جمهورية أفلاطون . لذلك نراه يقول بوضع السلطة بأيدي الشيوخ ، وبضرورة تربية ابناء الأمة عـــلى مباديء الفضيلة التي جاء بها أفلاطون ، ثم بضرورة وجود الجيش القـوي لحماية أمن الجمهورية .

كذلك كان ابن رشد من أكبر انصار المرأة . ولقد بلغ به انتصاره لها درجة جعلته يرشحها لمنصب رئاسة الجمهورية ، وقال بانها تستطيع أن تقوم بالاعمال التي يضطلع بها الرجال ، حتى في ميادين الحرب والفلسفة، بل وقد تفوقهم في ميادين فنية معينة ، كالموسيقى .

وهناك بين نظريات ابن رشد ، نظرية الحق المزدوج ، أو الحقيقـــة المزدوجة ، وهي نظرية تقول بأن في الوجود حقيقتين مستقلتين عن بعضهما ومتناقضتين . الحقيقة الأولى دينية ، والثانية فلسفية . فحشر الأجساد وبعثها مثلا ، قد يكون شيئاً حقيقياً من وجهة النظر الدينية ، لكنـــه شيء باطل من وجهة النظر العقلية الفلسفية ، اذ قد يجري الحشر والبعث عـلى صورة لا تدركها عقولنا ثم شاءت حكمته سبحانه تقريبها لأذهان ســـائر الناس على الصورة التي وردت في الشرائع .

وكانت هذه النظرية مع تعاليم ابن رشد الأخرى قد اجتازت الاندلس الى فرنسا ودرست في موتبلييه ، كما أدت الى ظهور مدرسة من أحرار الفكر في باريس ، راحت تحاول الحد من سلطان الكنيسة التي استعبدت في حينه أفكار الناس ، وسلاحها ــ سلاح المدرسة ــ فلسفة ابن رشد ، فكانت تقول بأن قصة « التكوين » و « آدم » ، وبعث الأجساد وغير ذلك من المسائـــل الدينية المشابهة انما هي حقيقية بالنسبة للدين ، وباطلة بالنسبة للعقـــل والفلسفة .

ثم وصلت نظريات ابن رشد هذه الى ايطاليا قادمة من فرنسا . بعد ذلك راحت تسري مسرى النار في الحطب في جميع أرجاء أوربا ، فاحتضنتها احرار الفكر في كل مكان على الصعيد الأوربي الذي جثم كابوس الســـلطة الكنسية الكهنوتية الغاشمة على صدر ساكنيه مدة ألف سنة بالتمام ، وهي المدة التي استغرقتها القرون الوسطى . ولم يكن هناك في أوربا جميعهـــا من استطاع أن يرفع اصبعاً واحداً بوجه تعاليم الكتاب المقدس طيلة هـــذه السنين الطويلة دون أن يدركه الموت حرقاً بالنار أو تمزيقاً على الخوازيق . لذلك كانت نظرية الحق المزدوج بالنسبة لأحرار الفكر الناقمين على طغيـــان

الكنيسة تمثل فرصة العمر الذهبية التي ستقرر مصير الحرية في أوربا ، فراحوا يفتحون عيون الناس بواسطتها على زيف السلطة الكنسية ، وعدم شرعيتها ، وضرورة فصلها وابعادها عن حياة المجتمع السياسية التي لا يمكن أن تقوم الا على أساس من الحقائق الواقعية العقلية بعيداً عن السفاسف والخرافات التي كان يسيطر بها القساوسة على حياة الجماعة : السفاسف التي لا يمكن أن تقبل كحقائق الا عندما تكون منعزلة داخل جدران الكنيسة فقط بالنسبة للذي « يرغب » في تقبلها .

وعندما راحت هذه التعاليم تضرب عميقاً في وعي الشعوب الاوربية المظلومة ، وشعر الحكام الطغاة من رجال الكنيسة بمدى خطر هذه التعاليم كسلاح سياسي ، ازداد الصراع حدة بين الكنيسة وأحرار الفكر ، كما راحت نقمة الشعوب تأخذ في الازدياد يوماً بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، وهو ما كان يرتجف منه الكرسي البابوي رعباً ، لذلك أصدر البابا جون الحادي والعشرون أمره بتحريم نظرية « أفيروس » — ابن رشد — في الحق المزدوج ، والأمر بقتل من يؤمن بها دونما شفقة .

على أن طبول ابن رشد كانت تدوي في كل مكان ، منذرة السلطة الكهنوتية وطغيانها بالويل والثبور . اذ رغم كل وسائل الأرهاب التي استعملها رجال الدين لسحق تعاليم ابن رشد في اوربا ، استطاعت تلك التعاليم بما كان لها من حيوية ، ان تجتاز أسوار الكنيسة ذاتها وتهاجم الكهنوت المسيحي في معاقله لتسحق الأصفاد التي كبل بها القساوسة افكار الناس وامتهنوا حرياتهم الفكرية والسياسية ، وذلك عندما نهض توماس اكويناس — توما الأكويني — اكبر أعلام المسيحية في عصره (١٢٢٥—١٢٧٤) ، ليضع يده بيد ابن رشد ثم ليتخذ من أرسطو اماماً من أئمة الدين الهادف الى خير البشرية والعالم ، وأخيراً قال بأن الله انما هو الطبيعة الفعالة ، وبذلك ضرب الخرافات التي كانت تروجها الكنيسة والمتاجرون بالدين عرض الحائط ، وفتح أمام شعوب أوربا واحرارها درب الثورة الذي بدا آنذاك طويلا دامي الآفاق .

وهكذا ابن رشد ، كما أشرنا في صدر هذا المقال ، كان العامل الأكبر في بعث النهضة الأوربية التي ابتدأت في ايطاليا في القرن الثالث عشر ، وامتدت منها الى شمالي أوربا ، لتهيء مع الأيام الظروف الملائمة لمجيء عصر الثورة الفرنسية . وقبل العودة الى سيرة الرجل العظيم ، أود أن أشير الى بعض ما لقيه اتباع ابن رشد في اوربا على يد محاكم التفتيش . ذلك ان هذه المحاكم كانت تحسب على الناس أنفاسهم ، وخاصة من تظن بأنه يميل الى تعاليم ابن رشد . ولقد حكمت تلك المحاكم على الكثير من أحرار الفكر بالموت ، فمنهم من مات بدواليب التعذيب المخيفة ، ومنهم من فارق الروح تحت السياط ، ومنهم من مزقت امعاؤه بالخوازيق ، ومنهم أيضاً من أحرق حياً بالنار .

وكانت أبرز المحاكمات مما يتعلق بابن رشد ، القضية التي نظر فيها مجلس التفتيش في مدينة لاهاي عام ١٥٠٢ ، والتي حكم فيها المجلس المذكور على القسيس « هرمان فان ريزويك » بالسجن مدى الحياة . وكان ريزويك نفسه من قبل ، من أكبر القساوسة المتعصبين للكنيسة ومن غلاة القضاة التي شهدتهم محاكم التفتيش ممن كانوا يدفعون المشتبه في عقيدتهم الى الموت دونما رحمة . ويشاء ربك أن يدفع حب الاطلاع هذا القاضي الى دراسة شروح ابن رشد لأرسطو فينقلب بين عشية وضحاها من جلاد للرشديين ، الى رشدي لم تر أوربا طوال عصر النهضة رشدياً مثله جسرأة واخلاصاً لابن رشد قط . وهو عندما مثل أمام مجلس التفتيش للمحاكمة ، قال بجرأة نادرة المثال : « ان العالم قديم أزلي ، وان السيد المسيح لا يمكن أن يكون ابن الله ، واني قد ولدت مسيحياً ، غير اني لم أعد منكم الآن ، لانكم مجانين . » .

وبعد أن قضى في سجنه مدة عشر سنوات ، اعيدت محاكمته مجدداً للنظر في ما اذا كان باقياً على آرائه المعادية للكنيسة ، فظهر بانه أشد تمسكاً من ذي قبل ، وأشد عناداً وتحدياً ، اذ أعلن في المحكمة على رؤوس الأشهاد قائلا : «ان أكبر العلماء انما هو أرسطو، وشارحه أفيروس وهما اللذان وجهاني الطريق الصواب، وقد كنت قبلهما أعمى.» . عند ذلك رأى مجلس التفتيش أن لابد من القضاء عليه ، فأصدر حكم الموت عليه حرقاً بالنار ، ونفذ فيه الحكم واحرق حياً في الرابع عشر من أيلول عام ١٥١٢ في مدينة لاهاي، بعد ذلك دخل اسمه التاريخ كشهيد من شهداء حرية الفكر الكبار . . .

وأخيراً ، وبعد أن فعلت افكار ابن رشد في أوربا ما فعلت ، تفضل دانتي ومنحه مركزاً بارزاً في جحيمه في الكوميديا الآلهية ، كما تفضل ميكيل انجيلو ومنحه مركزاً مشابهاً في الفاتيكان .

وكان ابن رشد من أكابر أطباء عصره بالأضافة الى نبوغه في الفقه والفلك فضلا عن الفلسفة . وابن رشد كطبيب ، كان يرى في العلوم الطبية شواهد عظيمة من شأنها تعميق ايمان الانسان بربه ، فهو القائل : « ان من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله تعالى . » .

وعندما توفي ابن طفيل عام ١١٨٥م ، أصبح ابن رشد طبيب الأمير الخاص بدلا عنه فكان الأمير يرى في شخصيته شخصيتين اجتمعتا سوية في وقت واحد ، هما شخصية ابن رشد نفسه ، وشخصية صديقه الراحل ابن طفيل . عليه كان من الطبيعي أن نرى الامير ، وهو العالم الفاضل ، يقدم ابن رشد حتى على ابنه يعقوب ، بعد أن استصفاه وقدمه على جميع رجال الدولة والدين .

ولقد توفي الأمير يوسف عام ٥٨٠هـ ، وولي الحكم من بعده ابنه يعقوب الملقب بالمنصور بالله . وكانت منزلة ابن رشد لا تقل في شيء لدى الامير الجديد عنها لدى أبيه . بل وربما كان يعقوب قد تعلق بالحكيم العظيم

لدرجة أصبح معها ابن رشد رجل الغرب الاسلامي الذي لا يدانيه في نفوذه أحد ! وكان المنصور قد شغف بدراسة الفلسفة خلال حياته ايما شغف . لكن الظاهر عليه ، هو أنه كان قلق الشخصية ، فقد كان يتعصب أحياناً ، ويتسامح في أحيان أخرى ، وهو بين التعصب والتسامح كان قد أضر بالكثير من الناس . كذلك كثيراً ما كان الغرور يركب هذا الأمير . ويشير ابن ابي أصيبعة الى أنه كان يتضايق حتى من ابن رشد عندما يخاطبه هذا المفكر الكبير بكلمة « يا أخي » . بل وان التاريخ يسجل عليه بأنه امتنع عن نجدة صلاح الدين الأيوبي عندما سدت عليه الجيوش الصليبية الآفاق في احدى سني الحرب ، لا لشيء سوى ان صلاح الدين خاطبه في رسالته التي بعث بها اليه يطلب فيه العون والنجدة ، خاطبه ب « أمير المسلمين » وليس ب « أمير المؤمنين » !

وفي آخر سني حياته — وقد توفي قبل أن يبلغ الخمسين — اتجه المنصور هذا نحو التصوف معرضاً عن الفلسفة . وعندما بدأ البلاط الاندلسي يمتليء بالمتصوفين ، ثم بخصوم ابن رشد المتاجرين بالشريعة ، وهي سمحاء وكانت منهم براء ، انتهز هؤلاء الخصوم الفرصة وراحوا يشنون حملة نفاق واسعة النطاق ضد الفلسفة والفلاسفة وعلى رأسهم ابن رشد ، فمن قائل بأنه يقول ان كوكب الزهرة من الآلهة ، ومن قائل يقول بأنه ينكر قصة عاد وغيرها مما ورد في كتاب الله الكريم ، وآخر يوغر صدر الأمير في أنه وصفه ب « ملك البربر » عند كلامه عن الزرافة في كتاب الحيوان ، ولم يصفه ب « أمير المؤمنين » ، الى غير ذلك من الافتراءات التي ادت بذلك الأمير الغريب الشخصية الى أن يجمع الناس في المسجد الجامع بقرطبة ليشهدوا محاكمة ابن رشد وتلامذته بتهمة المروق من الدين .

وفي ذلك المسجد الذي ضاق على سعته بالناس ، حضر الخليفة مجلس المحاكمة . وبعد أن مثل ابن رشد وتلامذته أمام القضاة ، وقف القاضي أبو عبدالله بن مروان ، أكبر خصوم ابن رشد ، وألقى كلمة حمل فيها حملة قاسية عليه . ثم بادر خطيب المسجد ، أبو علي بن حجاج وأعلن للملأ بأن ابن رشد وتلامذته « قد مرقوا من الدين وخالفوا عقائد المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل . » . وأخيراً انتهت المحاكمة دون أن يسمح لابن رشد بالدفاع عن نفسه ، ثم صدر عليه قرار الحكم الذي قضى بنفيه الى مدينة « لوسينا » احدى المدن المجاورة لقرطبة ، وهي خاتمة اختلفت بعض الشيء عن خاتمة حياة سقراط الذي حكم عليه بالموت في محاكمة مماثلة قبل ابن رشد بقرون طويلة .

كذلك الشعراء قاتلهم الله ، فانهم كالعادة ، لم يتأخروا عن المساهمة في حملة النفاق . ولقد كانت قضية ابن رشد مجالا رحيباً لقرائحهم فنظموا فيها ما لا يحصى من الأبيات والقصائد المشحونة بالسخرية والازدراء والتجاوز على مفكر العرب العظيم . وكان مما يؤسف له حقاً ان يشارك رجل فاضل ،

وأديب عالم كابن جبير ، الرحالة العربي الشهير ، في تلك الحملة • ولقد قال ابن ابن جبير في بعض ما قال بعد صدور الحكم على ابن رشد :

نفذ القضاء بأخذ كل مضلل — متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة — ان البلاء موكل بالمنطق

ومما قاله أيضاً

كان ابن رشد في مدى غيه — قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمد لله على أخذه — وأخذ من كان من أتباعه

وبعد ان تم نفي ابن رشد ، أمر المنصور بكتابة منشور يوزع على مدن الغرب العربي لاعلام الناس بما آل اليه أمر ابن رشد ، وتحذيرهم من فلسفته وآرائه وكتبه • وكان مما جاء في ذلك المنشور قول كاتبه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام ، حيث لا داعي يدعو الى الحي القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفا مالها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون ان العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً ، ويسيرون فيها شواكل وطرقا ، ذلكم بأن الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » ألا ساء ما يزرون • ونشأ منهم في هذه الحجة البيضاء شياطين انس ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون الا انفسهم وما يشعرون ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون •••

فاحذروا ، وفقكم الله ، هذه الشرذمة على الايمان حذركم من السموم السارية في الأبدان • ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه ، واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه • ومتى عثر منهم على مجد في غلوائه ، عم عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ، ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ••• والله تعالى يطهر من دنس الملحدين اصقاعكم ، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، انه منعم كريم • » •

على ان محنة ابن رشد لم تطل أكثر من سنة واحدة ، فلم تكن الاندلس العربية لتخلو يوماً من احرار • ولقد هب احرار الفكر والضمير من وجوه العرب في اشبيلية وغيرها لنجدته فاستطاعوا أن يقنعوا المنصور بأن ابن رشد انما هو من أكابر رجال الدنيا الاسلامية المؤمنين بالله ، وان ما قيل

فيه كان من قبيل الدس ، فعفا المنصور عنه وعن جميع تلاميذه ، وندم كل الندم على ما فعله بهم ، ثم رجع الى مراكش ، وأمر بالغاء المنشور الذي أصدره بحقهم ، واستدعى ابن رشد اليه ثانية ، وقربه وتلاميذه منه كل القرب ، وكان ابن رشد يومها قد جاوز السبعين .

لكن حياة ابن رشد كانت قد اقتربت من نهايتها ، اذ لم يطل به العمر بعد تلك النكبة اكثر من سنة . وفي ليلة الجمعة في العاشر من كانون الأول عام ١١٩٨م ، شهدت مدينة مراكش نهاية الرجل العظيم ، واذاعت على الدنيا كلها الكلمات الخالدة لفيلسوف العرب الأكبر اذ قال وهو يسلم الروح : « تموت روحي بموت الفلسفة . » .



من مراجع البحث :

ابن ابي اصيبعة : عيون الأنبياء .

الغزالي : تهافت الفلاسفة .

ابن رشد : تهافت التهافت .

ابن رشد : فصل المقال ...

ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ...

بيوري : حرية الفكر .

روبرتسن : موجز تاريخ الفكر الحر .

بغداديات *

شاكر حسن آل سعيد

« الان ، وقد انقضت عـدة سنوات لاتـزال ذكرياتها باقية في ناحية من نواحي هذا القلب الذي يصعب عليه الوفاء مع ذلك والاحتفاظ بالذكرى . وان عدت اليوم الى تلك الكثبان الجرداء فانا اعلم ان السماء ذاتها ستمعن في القاء ما تحمل من ريـاح ونجـوم . هـذه ارض البراءة . . »

البير كامو – وقفة وهران او الميناتور

ولأول مرة يدرك المتعدد في الموحد والكلي في الجزئي .

وبغداد ، هكذا ، ليست أكثر من رصيفـين من الاعمدة الرماديـة المتوازية ، تحف شارعاً وسطياً من أهم شوارعها[1] . . . ومع ذلك فـعلى آجرة واحدة من هذه الاعمدة . . آجرة واحدة مصبوغة بلون باهت تلوح لنا لغة كاملة دونما رموز . فبغداد هي نفسها رمز كبير [كمدينة] و [كقطعة آجر] في نفس الوقت .

والبغدادي ، بدوره ، ليس أكثر من ذلك المخلوق الرمزي :

ليس هو هذا الرجل المسن ذا السترة والسروال المغبرين ، والـذي يواظب على حضور صلاة المغرب منذ أن أحيل على [التقاعد] . ولا هو ذلك الرجل [المشوارب] المتمنطق بحزام جلدي عريض داكن ، وعلى رأسه عمامة خفيفة مرقطة [وتسمى بالعامية الجراوية] ، وبيده مسبحة صفراء كالشهد . لا وهو بالشاب الحاسر الرأس الانيق الوسيم ، ولا برجل الأعمال الجدي السحنة ، الغضوب . ولكنه [طفل] من أطفال المدرسة الابتدائية ، بوجهه المتمرد وكتبه المتهرئة . يركن الى بلاط زقاقه المظلل يملأ قاره الاسمر الجامد برسومه وعلاماته . فهو ههنا وهيهناك حاضر أبداً بين طباشيره و [فحمه] ، قذر اليدين ولكنه نظيف السريرة . ينهمك ابداً في التعبير عن حاجاته الذوقية بصدق وبراءة لكيما يرمز لنا من طرف خفي عن عاصمته الاسطورية التي

سرعان ما تصبح ازاءه من مـــدن حكايات [السعالي] و [بلبـــل هزار] الدارسات(٢) ٠

وليس من شك في ان هذه المدينة التي ولدت من قلب السهل الرسوبي ، وقدت من قرميد غرين [رافدينه] هي في أول الامر مدينـــة [الأسـوار] و [الاسواق] و [القصور] ٠ ولقد بنيت قبل (١٢ قرناً) كأضافة لابد منها لسلطان خليفة كان على شيء من بعد النظر والشح لكيما يؤمن على أمواله في مشروع بناء وليس مشروع دعاية آنية ٠ فما ان بوشر بدق أول معول في أرضها حتى كانت بعد جهود متواصلة تلوح من بعيد أمام رواد الطريـــق الصحراوية ، القادمين من الشام ، أو البصـــرة أو خراسان أو الكوفـــة ، بمنائرها ، وقبابها ، بشرفاتها وأطواقها ، عالماً من اللازورد والكهرمان ٠

وليس من شك أيضاً ، في أن هذه [الغادة] المضواع ، ذات الحجـاب والاقراط ، والتي تجملت بالقداح وأوراق الليمون وتعطرت بماء الــورد ، ولونت شفتيها بلحاء ثمر الجوز ، وضمخت كفيها بالحناء ، ان هي الا مزيج من ارادة الانسان ، وسكون الطبيعة وسخائها معاً - ومع ذلك فهي لا تلبث أن تبعث في نفوسنا الريب بأنها [فحسب] عاصمة مملكة شاسعة الاطراف كان ما يفتأ أحد [خلفائها] ينادي غمامات سمائه المتسللة ويتوعدها ، وهو في عرشـــه :

« أيتها الغمامة ٠ امطري أينمـــا شئت ٠ فانت في نهايـــة الامر في حياضي(٣) » ٠

لا لا ٠

انها لم تكن في يوم من الايام [عاصمة] بقدر ما هي [ضرورة تأريخية وجغرافية وذوقية] معينة ، تعاون على تدليلها سخاءالطبيعة وشهامةالانسان معاً ٠ مثلما كان سينفق على اذلالها غضب الطبيعة وعقوق الانسان ٠ وشتان ما بين حالتيها ٠ مع ذلك فقد كانت بمثابة القلب من الجسد ، وذرة الغبار من قطرة المطر ٠ ومهما كان عليها ان تصدع [بخلفاء] كانوا ما يفتأون يتعهدونها بالترميم والانشاء ؛ ومهما كان عليها أن تدل أو تذل فقد ظلت مع ذلك ملك ذلك الطفل القذر اليدين ، والنظيف السريرة ٠ يرسم بطباشيره على أرضها فيعبر عن أفراح وأحزان ، ويتمخط بطرف ردائه عن آمال وحسرات ٠ لقـــد وهبت مرة واحدة والى الابد قلبها للبراءة والفن ٠ ومهما كانت لتعمر فقـــد حكم عليها أن تظل في ريعان صباها ، دونما حاجة الى اصلاح أو افساد ٠٠

تلك هي بغداد المدينة التي أفاقت ذات يوم ماطر على سر لم تقـــدر غمامات سمائها الرمادية على البوح به الا حينما استحالت حماماتها [الظاهرة الطبيعية] الى حمـــامات من الخطوط والســـطوح ـ حماماتها [الظاهـــرة الفنية](٤) ٠ أجل ٠ فبغداد ضرورة تأريخية ، لانها ثمرة التزاوج ما بين [الصحراوي] و [ساكن الواحة] ٠ ومن خلال زجاجهـــا الملون ونوافذها المطوقة وأفنيتهـــا المفتوحة للغبار الموهوبة لنور الشمس ستختصر ملامح

[الخيمة] و [القوس المدبب] معاً • وهي ضرورة جغرافيسة لأنها نمت وترعرعت كما تنمو وتترعرع زهرة شقائق نعمان على سفيح من سفوح جبال حمرين • فقد كان على اية بقعـة يقترب فيهـا نهران عظيمان جاريان أن تصبح مسرحاً رائعاً للتمثيلية [العبور] أو [التحصن][٥]• ومن بغـداد [الضرورة التأريخية] وبغداد [العبور أو التحصن] ستولد بغداد الضرورة الذوقية • لقد حكم عليها أن تكون المنبع الرسمي لأذواق الجيل • فهـي [المأذنة والقبة] كما انها عمارة [دفتردر][٦] •

وتحدثنا الكتب التأريخية عن بعض ملامحها الجنينية :

فحينما « سار أبو جعفر المنصور بنفسه يرتاد الاماكن انتهى الى بغداد وهي اذاك قرية يقوم بها سوق في كل شهر فأعجبه المكان »[٧] كان ولا بد أن يسير الى مصيره المحتوم، كسبب وعامل لبناء مدينة ستسمى في نفس الوقت بدار السلام وبغداد •

لقد تم بناء هذه المدينة الرائعة في بداية فترة الاستقرار التي أعقبت ظهور الدولة العباسية فكانت بلا ريب رمزاً لسلام مدينة نموذجية ، وعاصمة انبراطورية شاسعة ، وحضارة لم يسبق لها ان اكتسبت مقوماتها في التأريخ كما ستكتسبها ابتداء من هذا التأريخ ، من الناحية المادية على الاقل •

الا ان هذه الارض التي قدت عليها أول الامر أسس اسوار مدورة ، وأسواق تستدير حول قصور ملكية ومسجد جامع ، وتتقاطع فيها أزقـة تقفل أبوابها ليلا بالاقفال ، ويطأ أرضها رجال يتمنطقون بالحرائر ويلبسون برؤسهم العمائم والقلانس ويتشحون باردية فضفاضة مفتوحة الجوانب ، سرعان ما امتلأت بالتفاصيل : فمن القصـور بحدائقها ، والشاذروانات ، والشرفات والبرك • ومن دروب البساتين الملآى بمناظر زراعة الفواكـه الحمضية والورد حتى لكأنهـا ترهص بقول الشاعر الشعبي على لسان امـرأة :

درب ابغـداد امشيته
كلـه زرع ليمـوني
والكحـل مـا خليتـه
ومـا كحليت عيـوني

هذه الارض التي تختلط فيها وتزدحم أنواع الطبقات الارضية سرعان ما بدأت تتجاوز نطاق اختيار نفس تنفرد بدسبست مملكة أصبحت الوريث الشرعي لحكومة الرسول محمد (ص) • أجل انها التربة الخليطة ، والطبقة الارضية الجديدة لحضارة ستتجمع ، عرضياً ، تراث [الرمال] و [الغرين] ، وطولياً ، اثار الحضارات المتعاقبة على وادي الرافدين • أو كانت اذن لا تنفك ترسم لنا ملامح [الانسان ـ الطبيعة] معاً دون أن تحسب حساباً لزمـان أو مكان ؟؟؟ لكن بغداد [المدينة ـ الواقع] ، ومدينة حكايات الجن والسعالى

هي نفسها بغداد هذا العصر ... كانت ولا تزال تمثل لعبة المدينة التي لا يموت فيها ميت ولا يولد فيها مولود [وملامحها هنا من ملامح اية مدينة مسحورة من مدن حكايات الف ليلة وليلة]

انها وان تبدلت سحنتها ، على مر الزمن ، لمن خالدات العصور . وذلك لأنها مدينة الانسانية وليس الانسان . .

« الاسواق .. والانسانية »

ومن بغداد [الضرورة] ستتبدى لنا بغداد [العالم ـ الانساني ـ اللانساني] . فههنا ، أو هناك ، ومنذ مطلع الفجر الصيفي كان سيعلو صوت المؤذن يدعو الى الصلاة ، فاذا ما طفقت اذن النائم المؤمن تميز فصاحة الاصوات فان صوتاً خفياً كان يلح عليه بالنهوض ، والتوضوء ، والتوجه الى المصلى . وهناك ستقطع نصف الساعة وليس الا [الوحدة] . وعند الرجوع تكون السماء ضاربة الى الزرقة ، وحينئذ ، يظل فيه أي انسان على صلة ما مع المطلق . ومع النجوم البعيدة ، وقمر الفجر المعكوس . وستمتلأ نفسه باليقين ، وتتلألأ مشاعره الصوفية [كمجموعة الثريا] في السماء . انه الآن وحيد عار أمام الطبيعة والعالم والكون . ولكنه ممتلىء ثر أمام نفسه . فوجوده ينبع من وجود الآخرين . ومع ذلك فقد كان من الممكن في وحدته الصباحية هذه أن يعيش أي شهيد لحظاته الاخيرة في محنته . لقد قطع البغدادي طريقه في فجر اليوم الصيفي من خلال الاسواق دونما بضاعة ولا تجارة .. دونما بيع ولا شراء ، لكي يستقر في ضمير مدينته ، ويقبس في وعيها ولكن ، وحينما يشق انسان ما طريقه الأزلي في الأسواق ، دونما فجر أو صيف فسوف تلوح له الكتل البشرية وكأنها مقيدة بالسلاسل . ذلك انهم جميعاً سيتحركون من اتجاهين متعاكسين . فهم ما بين ذاهب وقادم . وثمة وقوف على الجانبين ، الا ان سحناتهم لم تكن لتساهم بسوى البحث عن الحاجة وامتلاكها . لقد استحال الانسان خلالهم الى ماكنة ذات اختصاص ، تجيد اعداد النسخ المتشابهة . أما في هذه الطريق المظلمة ، ذات السقف المطوي ، والارض المرشوقة بمياه هي ليست بمياه الامطار في شيء فان النسخ المتشابهة ستكون أكثر دقة وشبهاً ببعضها البعض . والانسان الماكنة هو اما مشتر أو بائع مصمم على عدم التنازل لعميله بشيء .

وعلى العموم فما بين اتجاهين متعاكسين سيكون آخر المطاف هو الوقوف عند دكان بائع الاقمشة ، او الأواني او العطور أو الأحذية أو أية حاجة أخرى ذات قيمة شرائية ، ممزوجة برائحة العرق ، وفحيح الانفاس . فما بعد جولة حافلة بالمساومات تعقد صفقة ما بين طرفين متعاقدين يعتقد كل منهما في نفسه انه قد استدرج صاحبه الى الخسارة . وتنتقل الحاجة الكمالية بالتالي ، طالما هي غير قابلة للامتلاك ، الى الطرف الثاني لتستحيل الى حاجة ضرورية .

ولكن ما بين لغط الانسان المتعامل يقبع سكون [الطبيعة ـ البضاعة] ففي سوق كسوق السجاد[8] مثلا لا يسع الانسان الا ان يتناقض • ذلك ان [القيمة الجمالية] ستقف وجهاً لوجه أمام [القيمة النفعية] :

تلك هي القطعة الزخرفية • انها من الوان أسوار الاعرابية المتشحة بالسواد • وفي الاذنين قرطان متدليان ، وعلى ارنبة الانف [خزامة] وهناك اللون الوردي [ازاء الازرق اللازوردي] ، وهو يعيش في سوق الاعراب كما يعيش تماماً في لون دواء العيون الحزاقي ـ [الكبلي] • وما بين اللـــون الوردي [الحاجة] واللون الوردي [الرمز] سيحكم اخر الامر عـــلى شيء ما يدفع عنه ثمن أقل من المعقول ؛ وحينئذ ستسقط [البضاعة] الى درجة [الترف] • لقد دارت المعركة وانتهت في نفسية المشتري البغدادي • فهـو ما بين ان يشتري بضاعته لا على التعيين على شرط أن تكون جيدة الصـنع لا للزينة وما بين الا يشتريها • وهو في النهاية ضحية غريزته الخصبة باختيار [دواء عيونه الخرافي] وهو على شكل بساط أو وجه الفراش أو الغطاء أو البرذعة (ان وجدت) او اللجام •

وتطغى الطبيعة على الانسان في سوق الصفافير[9] الى الحد الـذي تستحيل فيه العلاقات الانسانية الى مجموعة من الاصوات لا على التعيين • أصوات تعزل الانسان عن نفسه ، وتقيم جدرانه وحجبه مابينه وبين العالم • لكنه حاضر هنا وهناك في نفس الوقت ، فهو عند هذا السوق كما هو في وعيه عند استماعه لدقات قلبه المنتظمة • وهو ما بين اصوات المطارق وموجاتهـا المتنوعة الاطوال كما هو بين الاصوات الخارجية التي تداهمه في مدخل [خانق] جبلي سيردد صداها لعشرات المرات • وهذا الذاهب أو القادم على ارضيـة السوق الموحلة ان هو الا بغدادي ضائع في بيته حتى ولو كان من الغرباء • معزول عن لآخرين ، محاصر بصوته الداخلي خلال همسة مستمرة [كردة الفعل] لما تزدحم على طبلتي اذنيه من أصوات غير منغمة ـ هي على الاغلب وقع المطارق على الصفائح النحاسية • ولكن مهلا • فـــذاك هو الابريق أو السماور او الطشت أو كف العباس ••• مرصع في مكانه من الدكان ، لا يلبث أن يغمر عين الناظر بلونه الاحمر الهندي • انه ينطق بسحر الصنعة التي انعزلت بدورها في هذه البقعة المستطيلة من المدينة التأريخية كما يعزل أي انسان أمام مصيره • وهكذا سيعاد لنا على عدد اللحظات تمرد الحرفـة اليدوية المنزوية ـ من خلال الهواة ـ كدفاع عن القيم الذوقية ضد غـــزو الحضارة الآلية • وههنا ايضاً ستطمس صورة [الانسان التاجر] أو رجل الاعمال أمام جبروت الانسان الهاوي أو الفنان • ويستبدل دواء العيـــون الخرافي بدواء الصمم السحري •

وفي سوق الشورجة[10] و [سوق هرج] تستبدل القيم الروحية من جديد بالقيم المادية ، وسرعان ما يستحيل فيهما البغدادي الى حمال أو بائـع

جملة ازاء نفر جم من الشراة بالمفرد أو الجملة ، والنساء المحجبات ، والرجال [انصاف ــ الحفاة] •

فمن خلال روائح العطور ــ في السوق الاول ــ الممزوجة بأنفاس زبائنه المرهقة ، من ذوي الميول التجارية تظهر بوادر التغاضي عن كل القيم الجمالية والذوقية من أجل احراز ميزة ما ذات رنين : فلس أو درهم أو دينار أو الآلاف المؤلفة ••• وجميعها لا تبخس الخاسر ــ الخسارة الحقيقية هي خسارة الجمال وليس الربح ــ الذي هو في آخر الامر من اولئك الذين يتصببون عرقاً من أجل الافطار على رأس بصلة و [شمة] ملسح • الا أن المأساة حينئذ تكمن في أن يكون الخاسر والرابح على مستوى واحد من المنظور • ذلك ان أية صفة جمالية لن تكمن فيما يسمو اليه الزبون فيما يسد به رمقه ، أو يزيد من جشعه [باعتبار الطرفين المتناقضين] فان شراء ثقاب العيد الملون أو شموع الاعراس المذهبة [مما يستقبل الداخل الى هذا السوق من بضاعة] هو رصيد روحي بالنسبة للاطفال والأعراس فحسب ، وليس بالنسبة للتاجر أو البائع ازاء الشاري [الاب] او [والد العريس] السري •

وفي حالة السوق الآخر [سوق الهرج][11] يستحيل البغدادي الى [فاقد سلعة] ازاء مجموعة من الدلالين والنصابين والسراق وبائعي الخردوات • وعلى حين يختفي بصورة موقتة الانسان الانساني يبرز لنا وجه بغداد المسؤول خلال اختلال نظام المشي • فلم يعد فيه من حاجة الى ذاهب أو قادم ، وبالتالي الى شاري أو بائع فالجميع هنا باعة وشراة • وهم لهذا السبب بالذات يقتسمون بضائعهم من مستوى بدائي وشعبي • واذا ما نسنى لنا أن نشهد عفوية زقزقة عصفور أو رفيف أجنحة الفراش من خلال لقى من الاصداف والودع وأحجار الخواتم الكريمة ، وفي نسق من أوراق الزينة وأنغام الاسطوانات الريفية البدائية ، فذلك لأن ملامح بغداد المدينة العاس لم تعد في غنى عن مجد اسواقها العازبة • وسرعان ما يقضى على حجة البغدادي المساوم بسحر بضاعته الازلية •

وهذا هو بطبيعة الحال وجه بغداد الحقيقي ، دونما مساحيق أو عطور • فالشورجة هي ملتقى شوارع مدينة تآمرت على تشويهها جهود الطبيعة والانسان الجائع • وسوق هرج هو [نكتة] البغدادي المساوم الكبرى ، وخدعته المفضلة في احراز نصر البائع على الشاري الخالي الوفاض • ولكن في بغداد اسواقاً أخرى كان على مرتادها أن يظل مشتركاً في مساومة من نوع آخر أكثر تعقيداً من مساومات الاسواق الاعتيادية • وفيها سيبرز التناقض أكثر فأكثر ما بين الطبيعي والمفتعل ، وما بين التضحيةوالطغيان ــ دعك عن أسواق الخضروات [وخصوصاً علوة المخضر التي تمتاز بكونها سوق آخر الليل حيث يرتفع لغط المساومين مع ارتفاع صياح ديك الصباح] ، وعلوة اللحوم [أو بالاحرى المجزرة التي تسفك فيها دماء الابرياء من الحيوان ، والتي تباع فيها لحوم الضحايا باثمان يقبضها الطغاة] ، وسوق الحاجات

الكمالية والملوازم البيتية ، والمنازل ، ووسائل النقل الخ ... فثمة سوق يعقد في بغداد بأجمعها :ــ بمنازلها وميادينها ، وفيالسينما والبيتوالمدرسة والمقهى وعلى شرفات المنازل وفي الحدائق العامة . انها ســوق الضمير .. ضمير البغدادي الممزق ما بين التردد والتصميم حيث تقف في وجهه ، كعالم خارجي ، جميع ضروب التقاليد البالية وسوء الظن المتأصل ، وعقدة النقص وغيرها من جدران حائلة ما بين الانسان وحريته المشروعة المنال . ان أي تصرف يقدم عليه البغدادي يصبح ضرباً من المساومة اذا هو لم يصدر عن ضمير حي . فالذاهب يفكر ابداً في الذاهبين وليس الآيبين أيضاً ، ومن هنا فان أي [مستطرق] يكون عرضة لأهانات مجانية لا تلبث أن تنهال عليه من كتف ماش أو ضحكة هازل أو تعليق فضولي ، وهو بالتالي سيتقمص شخصية [المبارز] رغماً عنه اذا ما تطلب الامر الى دفاع عن النفس . وبرفة عسين يصبح قانون القبيلة البدوية هو الحكم الفاصل دونما محاكمات عقلية ولا استنتاجات منطقية . ويبرز [طابع] وجنتي السومري البارزتين ، وأنف الاعرابي المستقيم . لقد باتت معالم السوقماثلة بطريقيها اللذين يتعاكسان، وبات الضمير الحي لائذاً [بصمم] رائد سوق الصفافير ، و [عمى] الوان سوق الاعراب ، و [خرس] سوق الخضروات الفجري .

ومن طرف آخر تطفو مصالح وذوق البغدادي عند مساومات ذات طابع شبه ازلي لأنها تتعلق بقسط وافر من مصير الانسان ... فازاء شاب مكتمل الرجولة تتقاطر جميع ذكريات الطفولة السعيدة التي يتذكرها الهارب من جحيم وحدته الجنسية لكيما تحيط عينيه بهالة من الحزن الفطري [ويكثر هذا النوع من الحزن في عيون الفلاحين وسكان الضواحي .]

[فالجنس] بالنسبة له بمثابة ذرة الغبار من قطرة المطر . ذلك انه سيضحى فيما بعد أي حينما يساوم على زواجه كبضاعة الى بائع أو شـاري سيخسر أو سيربح حتى نهاية عمره . والمعادلة التي توضعفي مثل هذه الظروف العقلية والنفسية هي كالآتي :ــ

١ ــ يتزوج . وعليه في مثل هذه الحال أن يجمع أتعاب عدة سنوات من جهـد متواصل لجمع تكاليف المهر والزفاف الا اذا غامر بزواج مجاني ؛ وهذا نادر الحدوث .

٢ ــ لا يتزوج . وسيقاوم في سبيل ذلك فورة الجنس داخلياً مما قد يدفع به الى الجنون بالعادة السرية .

٣ ــ لا يتزوج . مع الانجراف بتيار [البغـاء] وملحقاته . أي الاستسلام الى مساوىء حياة العزوبة المفتوحة .

ونفحة السوق هي التي تملأ خياشيمه في شتى الأحوال . اذ تحيله الى أحد اثنين . بائع أو شاري . فزواجه هو صفقة شراء تحتمل الخسارة أو الربح . وعدم زواجه خسارة مستمرة من رصيد شخصي ــ انساني قد

يكلف اعصاب الانسان وصحته • وقد يركن به الى حياة العزوبة بمساوئها التي يبيع من جرائها ذاته — مع شعور مسبق بالخسارة ، وبالتالي تنمية روح الطاعة العمياء في نفسه ، واللامبالاة في الانغمار بمستنقع اللهو : الملاهي والحانات ودور البغاء والمقامرة الخ ••• وفي هذه المرحلة التي قد تطـــول حتى نهاية عمر الانسان يسقط من خلاله [الشاري] الحر الى حضيض فلاح اقطاعي أجير • ولسوف يتطبع في الحانة لا على عادة احتساء الخمرة فحسب ولكن على جميع تقاليد هذا النوع العابث من [الخلاص] • بما فيسه من آداب شراب ، واحتساء متواصل ، وطلاوة حديث • وهكذا فالمساومة التي نمت وترعرعت في ضميره قبل الاعتياد على الشـــراب تتشكل الآن ضمن عملية استبدال رائعة لمسرات التعود على حفلة ما • والواقع ان مجالس الشراب عريقة في بغداد عراقة ظهور طبقة المجان من التجار والنبلاء منذ أوائل العصور العباسية ، مع فارق ما ، وهو ان ارتفاع تلك المجالس الى مستوى الندوات الأدبية والفنية يستحيل الآن الى تزجية وقت يدور في مناقشات وانتقادات مشبعة بروح التعصب •

وتترجم صورة الصفقة [الحانـــة] الى الصـــفقة [الملهـــى] أو [المبغى] • انها أيضاً أسواق نخاسة موهوبة ابداً [للتظاهر] بالخسارة أو الكسب • فالزبون اللاهي قلما يكتشف ان في مقدوره الخلاص •• ذلك أنه سيشتري بخسارة متكررة جميع [لياليه] المهدورة سواء منها المقمرة أو المظلمة ، ومن أجـــل أن يكسب أو يتظـــاهر بالكسب • كما ان مايربحه في الليل سيخسره في النهار • ومتعة الليل الحمراء لا تؤدي الا الى نشدان المزيد منها في الليلة التالية دونما تطور ملموس أو اكتشاف جـديد • والرقصة أو الاغنية هي مدركة بصورة مسبقة من قبل الجميع • والبغدادي [اللاهي] متعود على أن يخسر باستمرار مكسبه من الحب الجارف والعاطفة المشبوبة على أقدام غانية شقراء • انه زبون مثالي من زبائن سوق هرج • وهو يتظاهر بل يتوهم أنه يتظاهر • وذلك حينما يمتلك في ليلة واحـدة مجالسة راقصة أو مغنية حتى ولو من بعيد ••• مؤمناً بأن احلامه بالغرب ، وهو الشرقي الذي غزته الحضارة الغربية لا يمكن أن تتوج سباته الطويل على [عاداته] و [مشاكله] و (ذوقه) الا بامتلاك نسخة واحدة ولكنهـا واقعية من الحضارة الاجنبية(١٢)• ومؤمناً بأن احلامه بالخلاص الارضي لاتتم دونما مقايضة ، ولا استبدال مستمر لنماذج داخلية بخارجية • ويفيـــق المخمور اللاهي بعد أمسية صاخبة على صداعه المشبوب بتأنيب الضمير في صبيحة اليوم التالي المعادة •

الا ان تأنيب الضمير هذا لم يكن وليد [حاناته] ولا [ملاهيه] • وهو يمثل ههنا نهاية التوتر العبثي لعواطفه • ان المسرات البغدادية التي يمكن أن تختصر في وليمة سمك مسقوف [الاكلة المثالية لمدينة دار السلام] على شاطىء النهر كانت تصل ذروتها ما بين الحانة والملهى • الا أنها لن

تنته الا في [المبغى السري] وهناك كان على الانفاس الكحولية ان تسترد نفسها ، وأثناء نهايتها في صحراء شاسعة من الوحشة والغربة • ويتم ضياع الانسان المساوم ما بين [ذاته] و [عالمه] ، وتعقد الصفقة على خسارة محتومة •

« الطريق والازدواج »

قد يبدو لأول وهلة أن لا حاجة في بغداد الى طريق • صحيح أن وسائل النقل هي من الكثرة الى الحد الذي يتحتم فيه ظهور شبكة من الطرق الا أن انعدام الحاجة الى الطريق هو النتيجة المنطقية لاستحالة المدينة المأمولة الى طريق واحد يزخر بحركة مرور أزلية • والبغداديون مع حاجتهم الى استقرار يتطلبه عدم استقرارهم كرواد فهم مولعون بالمكوث معظم الوقت خارج البيت الا في الليل • ومع ذلك فسيظل هذا المكوث ترفاً لا قبل بالمدينة عليه • ولما كانوا [بتطبعهم] غير مترفين فسينقلون [طرقهم] الى بيوتهم ، وسيحملون [مركباتهم] معهم حتى اسرة نومهم • ان عائلة كبيرة تعيش تحت سقف واحد لا تجد [مواصلاتها] الا حينما يلتأم شملها في صبيحة اليوم التالي ، على [طبلة] الافطار [وفي رمضان يستبدل الصباح بالمساء]• وحينئذ ستتشق بنفسها طرقها الجديدة على طابوق فنائها الاصفر الشمعي ! وعند أعتاب سلمها غير المسيج • ويمكننا أن نضيف أيضاً أن الشارع عند البغدادي في أول الامر [عدا الزقاق أو الدرب أو الممر] كمكان مخصص لوسائل المواصلات هو ردهة من ردهات المستشفى العام ، أو المتنزه أو المطعم بالاضافة الى الدار • في حين أن الساحات العامة تنفرد أحياناً بميزة ما • فهي تصلح لأن تكون فندقاً بالمجان ، وملتقى الجدران بالارض في الاحياء القديمة [دورة مياه] أو مبصقة] ، وبعض الحدائق الوسطية ملاعب لكرة القدم عند الصبيان [وفي جميع هذه الاحوال سينقل العراقي ، بالطبع ، بيته الى الطريق •

ولكن قد تمتاز بعض الشوارع العريقة من الاحياء القديمة بميزات أخرى أكثر متعة وعمومية من سواها - ففيها سيبلغ القلب البشري ذروته من السكينة أو الفورة على السواء • وكما ان البغدادي [غير المترف](١٣) يحمل معه طريقه في البيت فكذلك الحال على النقيض عند البغدادي [المترف] ، فهو سيحمل معه بيته في الطريق(١٤)• وحينئذ سيعكس لنا ذروة شعوره الانساني من أجل الامتلاك أو على الاقل الشروع به • ذلك أنه في الوقت الذي تطغي فيه مياه الاقذار الاسنة على بعض المنخفضات فتغلقها بوجه السابلة تسنح الفرصة وقتئذ الى نوع من المطاردة التي تعيد لنا حياة مجتمع باكمله ، وتبعث في نفوسنا نزوات انسان بدائي من أجل حصوله على فريسته • فهذا هو [المعيدي] الذي لوحت جبينه شمس الصيف المحرقة ، وقد شمر عن ساعديه ، وأشكل أطراف ثوبه في محزمه • انه

يتصبب عرقاً ويتنفس بصعوبة ، وقد قطب ما بين حاجبيه اذ هو يسوق أمامه [جاموسه] الذي يضايقه الذباب ، وحر الصيف ، وهو يتهادى في مشيته ويلوح بذنبه • وفجأة ودونما سبب حقيقي يثور الحيوان وفي ثورته يكتسح كل ما يصادفه : الناس والاشياء • فتكتسح من خلال ذلك أحقاد الضحية ضد الجلاد ، وتتجلى ما بين اظلاف الحيوان نفايات وفضلات الانسان • ولكنه لن يهدأ حتى تراق دماء ركبتيه أو رسغيه • وهكذا يصبح [البيت ـ الطريق] في لحظة مسرحاً يعكس لنا مشاكل أكثر من كونها انسانية ، ويغدو [الطريق ـ البيت] ملجأ لمتمرد هائل يترنح تحت قبضة متوعد غاصب [الصورة المارة الذكر مقتبسة من تفاصيل مجازر الجاموس في حي [العوينة] من بغداد القديمة في غضون الاعوام ١٩٣٨ـ١٩٤٢] •• وعند عتبة باب أو بداية زقاق ذي نهاية واحدة يسجل أطفال ابرياء ترجمة شعرية رائعة يزدوج فيها الخوف والاطمئنان ، ولو على حساب الطرف البريء • وتعلو الترنيمة ذات المقطعين :

جاموسه عينتج حمره
بالليل تجدح جمره ••

وتعاد نفس المتعة أحياناً ولكن لحساب عواطف اقل عنفاً وهي التي تسجلها اشعار طفولية كالتي يهجي فيها ملك الصحراء :ـ

أبـو حـلك الجايف
•••• مـو جايـف ـ

وفي هذه الحال لن يكرس الشارع لمجرد الخصومة العريقة ما بين الانسان والحيوان بل لأمل لا ـ انساني بالحصول على عش الحياة الزوجية أو ملجىء للعجزة بل مقبرة للموتى • فمن المناظر المألوفة شتاء [غزل] الكلاب في الصباح وتسكع جواد عجوز في ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى مشاهدة جثث طيور موتى على كومة من الازبال • [من الطريف ان مرآى الطيور الحية يقترن بقباب الاضرحة في بلاد الشرق وفي الميادين العامة في الغرب] وبالرغم من ذلك فان مزية أي شارع في بغداد تكمن في مدى استحضاره استقرار الانسان اثناء تهويمه ، ومكانه في زمانه • فاذا كان يبدو وهو المسرح الطبيعي بفعاليات الحيوان فانه كذلك الملاذ الاخير للانسان • واذا تيسر للباعة المتجولين أن ينقلوا أقدامهم ويلصقوا عجلات عرباتهم على لزوجة القار المنصهر صيفاً لكيما يتخذوا من ممشى الناس [وهم كل الناس من غير ذوي الدخل الذي يؤهلهم لامتطاء المركبات] حانة ، أو مطعماً ، أو مقهى ، فان في ميسور المتشردين والمتسولين والغرباء والعاطلين ان يتخذوا منه ملجأ لا غنى عنه ؛ وهناك بالاضافة الى ذلك مثلا المنظر الذي يتقاطر فيه سرب من العوام بجلساتهم المنتظمة الهادئة ، وهم خافضو الرأس ، حاسروه؛

مطرقون حزانى أو مهمومون عند ظلال جدران عالية قذرة ، وازاء كل منهم حاذق لفنه بعمامته المرقطة وصـــداره ذي الخطوط الحمراء ، وحزامـــه المتعدد الادراج ، وهو ينهمك في ازالة شعر رأس زبونه بالموسى ، في حين سيكون آخر منظر من مسرحية الحلاقة هذه هو منظر الحليق نفسه حاملا رأسه على طبق (كناية عن غسل رأس الحليق باناء يوضع عند الرقبة) .

وكلا المثلين المارى الذكر يمثل الذروة في [تحول] الانسان عـــن انسانيته وخروجه من أبعاده . فهو في كليهما ، وعلى المستوى الشعبي غارق في عبوديته مستسلم لمصيره ، ممسوخا عن كونه حرية واختياراً ، ومتخلفاً عن كل تأريخه في التطور البشري والحيواني [كنوع واحد] حتى حياتـــه الجنينية [الاميبا = الحجيرة الحية في الجسم]

وهذا هو البغدادي في آخر الامر : حجارة على قارعة الطريـــق ، أو فضالة مرشوقة على رصيف السابلة . انه يستسلم الى موسى الحلاقة كما تستسلم الخراف الى شفرة القصاب ؛ أو يفقد كرامته من خلال يده الممتدة ، وماء جبينه المراق . فمتى سيحين له ان يستعيد كرامته : رأسه وكفـــه فيستعيد بهما حريته وكرامته ؟؟؟

الا ان بغداد تسترد انسانها اخيراً في الطرف النائي من نفسها ، وذلك حينما تؤدي المقاهي الصيفية فيها أدوارها كملاجيء ضد غزو جميع المشاكل البيتية الزاخرة بنزوات الطريق .

- مرور متقابل ما بين ذهاب وایاب
- مشاكل اصطدام متكرر ما بين ارادتين
- حوادث دهس وازدحام واعتداء الخ ....

فلا يكاد اسبوع يمر على العائلة البغدادية المتوسـطة الحال الا وقد امتلأت ذكريات افرادها بما هو غير قابل للنسيان .

- رب العائلة المشوش الذهن ، المتمزق العاطفة .
- حنان الجدة المهان في خلال بكاء حفيدها
- دموع الام المضحية باحزانها المتجددة
- حيرة الشبيبة ما بين حدة الاطار الذي يمسكهم ولا منطقية العلاقات التي تحيطهم .

وفي المقهى الصيفي تستبدل تحت السماء الصافيـــة جميـــع الاحزان العائلية ومشاكل الحياة اليومية بمتعة الغياب عن بغداد [الطريق] وبغداد [البيت] في بغداد [التسلية] . ان الشجرة الوارفة هي هناك منذ أكثر من ثلاثين عاما عند فناء المقهى ، والاثاث يكاد أن يكون هو نفسه دونما تصليح أو طلاء ، والسياج الحديدي الأخضر الباهت كاطار لوحة زيتية قديمة ، والمقصف ومحل الشواء هما هما لم يتغيرا . اذن سيسترد البغدادي انفاسه وينسى متاعبه بل كيانه الانساني برمته ، وذلك في بضع ساعات يقضيها

في [شبه محطة فضائية] معلقة ما بين الارض والقمر • وفي هذه المحطة سيخضع الجميع لمنطق معين يختصر فيه الوجود الى [زمان] فحسب حيث تتحول الحركة الى سكون محض [وهو سكون يتضمن الحركة بالطبع] اذ ليس من قبيل الصدفة أن لا تستبدل الاشياء المتهرئة باخرى جديدة، ولا حتى ان يستبدل الزبائن أنفسهم بزبائن جدد • فالجميع فيها ، مسحورون وهم في أماكنهم : الشجرة في الفناء ، والنذل في صداره ، وصاحب المقهى في مجلسه • ... الجميع هنا مهملون في أماكنهم • يمر عليهم عامل الزمان فيترك آثاره على ملامحهم • وفي المقهى الصيفي ايضا تقوم اللعبة بدور (الجسر) الذي يوصل ما بين حضور البغدادي وغيابه • ولعبة الطاولة التي تشتق من علاقة الانسان بالقدر تربط لاعبيها بخيوط شفافة وتزرع في قلوبهم نياطا جديدة توصلهم بالابدية • فما أن يفيق البغدادي على نفسه في النهاية الا ويجر خطاه الى داره وهو صفحة جديدة ناصعة هزيلة النزوات خاوية ، فارغة • الا ان لعبة المقهى الشائعة هي من صميم غياب الزبون المنهمك • فقد يصادف ان يتكلم مع رفيقه أو ينصت الى مقطع يغني ، أو يلوك بذور الباقلاء أو يمضغ قطع الشواء وهو مع ذلك في صميم غيابه البريء •

لقد سحر ذات أمسية مرتاد المقهى النائية عند ضفة النهر المخضرة بالمزروعات الى انسان آخر • وساحرته هي هذه الاحجار ذات الاوجه المنقورة ، والقطع المستديرة التي تتناقلها الاصابع بنظام خاص • فلم يعد في كيانه من مكان لطريق أو بيت • وعند الليالي المقمرة حينما سيغمر الضياء الناصع ضوضاء المدينة البعيد •• يظل السحر الخفي من مكانه يهب الجميع عطاياه بما يغرقهم فيه من موج فضي • وحينئذ ستجد بغداد انسانها الغائب بغتة • ستجد طريقها وبيتها ومقهاها •• ستجدهم في نفسية كهل عاد في لمح البصر طفلا نقي السريرة ، قذر اليدين • طفل بغداد الازلي ، والذي كان سيظل يرسم بطباشيره على الارض • لقد اغدقت الطبيعة من خلال قمرها الفضي هباتها على الانسان [وما هي الا هبة الله من خلال الطبيعة] فجددت شبابه بما ستعبث باجفانه ، وتوغل من دخيلته •

لقد ثبتت البغدادي من مكانه من بغداد •

« اللوعة والضيافة »

« في زمان ومكان ما لا على التعيين كان رجل صالح يدعى بالحسين • وقد حكم عليه بالموت لانه أفشى (سر) الله على لسانه هو • ومن دون ان يخشى في (محنته) الناس • وسواء أكان يتعذب من أجل ذلك أم يؤلب مريديه على الغوغاء فقد قال من احدى (مواقفه) انا الحق » •

••• والبغدادي المتاع المضياف هو (حلاج) بصورة من الصور • وسيولد ويموت على عدد اللحظات • وذلك حينما سيمتزج لديه الفرح

بالحزن ، السعادة بالشقاء ، واللذة بالالم · لان في قلب البغدادي تستقر بغداد ·

وبغداد بدورها من منظور الضيافة واللوعة لا تلبث ان تترنم بصوتها العذب الا ان صوتها سرعان ما يموت على شفتيها قبل ان يبلغ الاسماع : فالاغنية الشائعة التي تغنيها على الرغم من مجونها هي نشيد صوفي يتعالى من خلال هدير الرحى ، وخرير المياه ؛ وهو لهذا السبب يعيش على رصيد روحي وعاطفي يستنفد جميع لذة [السماع] خلال [الالم] وفرحة [الترنم] من خلال احزان الذكرى :

اطحن بگـايا الروح   موش اطحن شعير

بعد ان كان :

وبگلبي حفرو بير   وادراجه مرمر

واذا كان ما سيسعد به البغدادي فيما بعد فهو هذه البشارة التي تهبها رخامة الصوت الشهي النابض بالحياة ، الدافق بالرضا · ولكن · من ذا الذي بمستطاعه أن يعرف زمن البشارة وموعدها ؟؟ لقد طفق زميل العريس المضياف يرتع من احداق العذارى عبر اغنية المغني أو المغنية · وهو ما بين صحوه وسكره المتناوبين يفيق بغتة عند زملائه على رنة فرح عميم يمس نياط قلبه ويهزها · وبشيء من العنف والحماقة يعب كاسه حتى الثمالة في الوقت الذي تسقط به قبضته الى جانبه · لقد تغلغل صوت بغداد منه حتى السويداء · وفي لحظة ما كان سينسى كل شيء ما عسدا جمال الكون المجرد ·

ان ما يميز بغداد حقا ـ حتى من خلال بغداديها ـ هو هذا التعارض المتآلف ما بين القيم ؛ والذي يظهر بغتة مثلما يختفي بصورة عفوية · فليس من المنطق ان تهدم مثلا روائع الزخارف الماثلة على جدران بعض البنايات القديمة في الوقت الذي تشاد فيها بنايات على نفس الشاكلة بكاملها [وهذا رثاء ضمني لجامع الازبك القديم الذي استبدل ببنايته الحالية] ·

وليس من المعقول أن تنقض في لحظة واحدة مشاريع قضى عمر على اقامتها لاستبدالها فحسب بمشروع آخر طاريء · ولكن هذا هو ما يحدث بالضبط فمن خلال نزوة البغدادي المفاجئة تستحضر حياة القبيلة باجمعها في صميم المدينة المتحضرة وكما تطير بغتة حمامات (الحسن البصري) في جنينة أخواته سيقلع البغدادي ذات يوم ببساطة مغيرا موقفه · وسيهجر من خلاله ويتنكر لجميع قيمه مستبدلا اياها بقيم هي على النقيض منها ·

وهنا يكمن (سر) لوعة الانسان الشهم وحبه في آن واحد · انه اشبه شيء ببدوي مجاهد يلفظ آخر أنفاسه على أرض الغربة ، فلا يذكر عند احتضاره روعة الفاتح المسلم بقدر ما يتذكر نجمة كانت تطالعه في سماء صحرائه (١٥) · وهذا التحول القاطع بلا مبرر ، والحكم الذي لم تسبقه أية

محاكمة هو ما تمتاز به سماء بغداد المرعدة في الربيع بمنظرها المفاجيء ، كما تدل بها طبيعة [دجلتها] الذي يفيض في عدة اشهر حتى يوشك ان يغرق المدينة ولا يلبث ان يغيض في ايام معدودات ·

وتقترن اللوعة عند البغدادي بالشهامة · وبعد ان كان سلفه [في أدوار بغداد الجنينة] أو ساكن الخيمة الفارس[١٦] يرهص بها من خلال نخوته التي ينحر بسببها فرسه الوحيدة لاضيافه فسيتصدقسليله ساكن المنزل ذي الفناء في المدينة بكل ما معه ، ومن أجل سؤال يسأله جائع · ولا يلبث [المحتضر] ان يعيش حياة الجوع والفقر لانه كذلك فحسب جدير ان يظل في بغداد ·

ومنذ آلاف الاعوام كان على (جلجامش)[١٧] أن يقطعرحلته للوصولالى جده (وسيحاول ذلك من بعده كثيرون) · فلم يثنه مجد ولا حب عن ان يغامر بنفسه عبر بحر الموت · ولابد انه كان سيضحي بحبه الاخير لعشتار (التي غازلته منذ ان غلب خمبابا فرفضها بأباء) لان صديقا وفيا كان قد ضحى بنفسه من أجله ـ كان قد نذر نفسه ـ · وهكذا تغلبت الشهامة على الحب : شهامة البغدادي المضياف (قبل ان توجد بغداد) على جبه الملتاع (بعد ان وجد الحب) · الا ان ثمن ذلك كان سيدفع مضاعفاً حينما ستسرقه افعاه · لقد افلس جلجامش من كل ثروته ـ لقد غيض كنزه ـ ليربح قناعته · كما أفلس من نفسه ليربح قلبه ، وبذلك فحسب أصبح جديرا أن يكون [بغدادياً] كالآخرين بعد ان ظل غريبا حتى على أي عراقي وضيع · الا انه سرعان ما عاد البغدادي من جديد في اهاب جلجامش آخر ولكن بلا عودة · فلقد كان على أبي ابن زريق عاش في بغداد في العصر الوسيط ان يضحي بحبه من اجل شهامته فيودع في فجر ما بغداده لكيما يستضيف وهو في بلاد الاندلس جميع ذكرياته وعواطفه وآماله · بعد أن كان قد فارق بلاده بكل رباطة جاش طلبا للمجد ·

ودعتـــه وبـودي لـو يودعنـــي
صــفو الحيــاة واني لا أودعـــه

وهنا فقط سيستيقظ في اهابه اى بغدادي ملوع آثر الغياب عـلى الحضور والمجد على السعادة · وهكذا كانت ستعاد في لمح البصر كلمة (جلجامش) بالرفض من خلال [صمم] ابن زريق المحنق · كما ستستعاد لمئات بل لآلاف المرات كلمات حق اخرى على شفاه لاتجد نبراتها العـذبة لها آذانا صاغية تسمعها · اجل فحينما يصمم البغدادي على شيء فلن يثنيه عنه حتى ولا عذل حبيبته المنطقي · لا ولا ذكريات [كرخه] و [ازراره][١٨] :

لا تعذليه فان العـذل يولعـه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

وفي الطرف الثاني من المدينـة الملكية حيث يلفظ الشبـاب المغترب أنفاسه وما تحت رأسه صدر ليس هو [بالوساد الخافق] الذي طالما كان يتمناه

كي لا ينام على وساد خافق(١٩)

ستظل أية وحشة صاخبة تستحضر للبغـدادي (بغـداده) وهو في (اندلسه) وتستمطر له وهو المحتضر امطار (واحته) وهو في (صحرائه) ٠ وهناك على حصير (الخان) القذرة ، ومن خلال خصلات شعرالانسانالمنسرح على الارض تستقر قصاصة ورق مكتوبة هي شهادته الوحيـدة على براءة الرجل من (زيفه) وهي وثيقته (الموسومة) برجولة البغدادي الشاعر ٠

« ايه أيتها الغمامة الهائمة ٠ ها أنت ذا تمطرين بمدامع البغـدادي الملتاع وانت في عليائك ٠ ولطالما توعدك من قبل خليفة بغدادك السري وهو في دسته ٠ أكان اذن يخاطبك وان تهملين في قلب هذا الشاعر الحزين ؟ » الا ان امطار هارون الرشيد الحقيقية بدورها لم تكن سوى صميم أحزانه بالغربة وهو في بيته ، وبالفقر وهو في غناه ، وبالموت وهو في [حياته] ٠ لقد كان الخليفة الباذخ يستيقظ ما بين الفينة والفينة على رذاذ المطر في قلبه ، وسرعان ما يهجر مجلسه العامر بالافراح ليحج ماشيا حتى (مكة) ، أو يقرر بغتة الوصول الى (نقفور) وهو على رأس جيشه لما يجيش في قلبه من دماء البغدادي المتحدي ، أو كما اختتمت حياته ، يتذوق اثمار نخلة [حلوان] ٠٠ نخلة بلده البعيد القريب وهو في نهاية مصيره الابدي ٠

« أجل ٠ أمطري ثانية يا غمامة الرشيد ، ويلي بنداك رفاته الآن ٠٠٠ فانما انت تبلين منه رفات شاعر » ٠

ولكن قد تستحيل الضيافة عند البغدادي الى لوعة عاصفـة وسـيل جارف ٠ فلا يقف في سبيلها سوى (وصول) البدوي المحتضر في آخر المطاف الى (كثبانه) ، سوى رضا النفس المشمخرة بتضحيتها ٠

٠٠ وتطوى مئات بل الآف الاميال في لحظة واحدة ٠

فهذا هو الخليفة [المعتصم](٢٠) جالس فيمجلسه يشرب أو يغنى له ، أو يتسلى بين جواريه وحاشيته ٠ وبغتة يقف شعر ساعديه ، ويحتقن وجهه الابيض الوردي بالدماء ، وترتجف وجنته حماسا ٠ وذلك لان [بغداد المرأة] هناك تستنجد به ٠ انه يستمع الى نداء القلب البشري وهو في ذروة يقظته الحسية ٠٠ والمرأة العمورية يعتدى عليها من قبل رومي ٠ فليكن اذن هو الند لهذا الرومي من أجل حماية [بغداده] ولينزل حاكم بلخ المندهش بدعوى الجمال الضائعة فيسطوح قصوره الىأرضالشارع(٢١) ، وتزحف بأقل مدة من التحضر فيالق الجيش الملكي وعلى رأسها أحلام المرأة المهـانة بالخيول البلق ٠ فلا يهدأ دجلة عن فيضه الا على رضا البغدادية المغتربة ٠ ويمتزج الحب بالشهامة واللوعة بالضيافة وهو على نأى من مدينة الحب والشهامة ٠

وتتحقق (بالمعتصم) الرجل أحلام المرأة العمورية (بالحرية) ٠

ولكن ما بعد مئات من السنين ودونما غضبة شاعر ولا نخوة خليفة تتسابق ببساطة يدان من مركبة عامة لكيما تستقر كف احداهما تدفـع ثمن التذكرتين ٠ وفي بغداد بالذات تلتمع عينا شاب مولع شهم سيحقق احلام (الطائي) بضيوفه و (ابن زريق) بحبيبة مجده ، و (الرشيد) بغيمته ، و (المعتصم) بعموريته ٠ وذلك من خلال تطبيق عادة حسنة تكرر له بصمت مزية أي بغدادي حي ٠

« اغتنِ بسرك اذن يا جلجامش ٠ فهنها قد جاءك المدد بعد ستة آلاف عام ما بين أنامل بغدادي كالآخرين » ٠

وعلى قارعة الطريق يبتسم الإنسان في مدينته ٠ كما تتحقق نبوءة عراف طفل برسوم شارعه ٠

وفي قلب البغدادي ٠٠ تستقر بغداد ٠

(*) تخليداً لذكرى الفنان الراحل جواد سليم في بغدادياته ٠

(١) هو شارع الرشيد ٠ ولعله اقدم شارع رئيسي في بغداد في الوقت الحاضر ٠ ومن حسن الصدف ان يقترن اسمه باسم الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد ٠

(٢) لا يخفى ان الاشارة هنا هي الى بعض الحكايات البغدادية غير المـدونة والتي كانت تقصها (جداتنا) العجائز في أيام الطفولة الغابرة ٠

(٣) هو الخليفة الرشيد ٠ وهذه العبارة هي (معنى) حواره المروي وليس (نصه) ٠

(٤) وهي هنا الصورة المحسنة لحمامات الحسن البصري في حكاية من حكايات الف ليلة وليلة الشهيرة ٠

(٥) لعل هذا هو السبب في نشوء قرية (بيت كداد) على رواية من الروايات التي اصبحت بغداد فيما بعد ٠

(٦) من اضخم العمارات الحديثة في بغداد ٠ وهي هنا كناية عن الاسلوب الحديث في الفـن ٠

(٧) الدينوري ـ الاخبار الطوال ص٣٢٣ ٠

(٨) وهو من الاسواق الشعبية الشهيرة على ضالته ٠ ويقع قرب جسر الشهداء ٠

(٩) من اعرق اسواق بغداد ببضاعته وتقاليد طبقته التي ربما تعود جذورها الى العصور الوسطى الاسلامية ٠

(١٠) في هذا السوق تباع ـ بالجملة والمفرد ـ جميع مواد الاستهلاك على أساس شعبي هو وسط ما بين المقايضة والبيع والسوق يتكون من طريق طويل يقع في قلب بغداد ٠

(١١) واسمه مشتق من الضوضاء والاضطراب اللذين يسودانه وان كان اضطرابا ظاهريا والواقع ان سوق هرج عودة بالانسانية الى عصورها البدائية ـ فجر الانسانية ٠

(١٢) قد يبدو لاول وهلة ان ارتياد الملاهي ، وهي زاخرة بالراقصات والمغنيات المحليات والاجنبيات على السواء بعيد الصلة بالحضارة الغربية ٠ كما ان الرقص المحلي الحسي هـو ممارسة محلية بحتة ٠ الا ان هوى (الملاهي) الشرقي يظل مكرسا أبدا للوصول الى المستوى الحسي الاكثر اثارة ، وهو ما يتجلى باستقدام الفرق الغربية باستمرار الى الملاهي الشرقية وتكالب اللاهي على مجالسة الغواني الغربيات ٠٠٠ فمجرد (الوصول) وتحقيق الآمال هو محاولة لامتلاك [الغرب] بواسطة ممثلاته الشقراوات ٠

(١٣) لا يخفى ان استعمالنا لكلمة [غير معرف] و [معرف] هنا هو استعمال

رمزي يختلف عنه في معناه الدارج [كعدم امتياز ذي دلالة طبقية] أو [كامتياز] ، فهـو هنا بمعناه المجرد فحسب .

(١٤) انها هذه الخصوصية الغريبة عند من لا يعيش في مستوى الاسوياء ، فهـي ميزة المتشرد والعبقري على السواء .

(١٥) الرجل هو مالك بن الريب الشاعر المشهور .

(١٦) الاشارة هنا الى حاتم الطائي الشاعر والكريم الجاهلي المشهور .

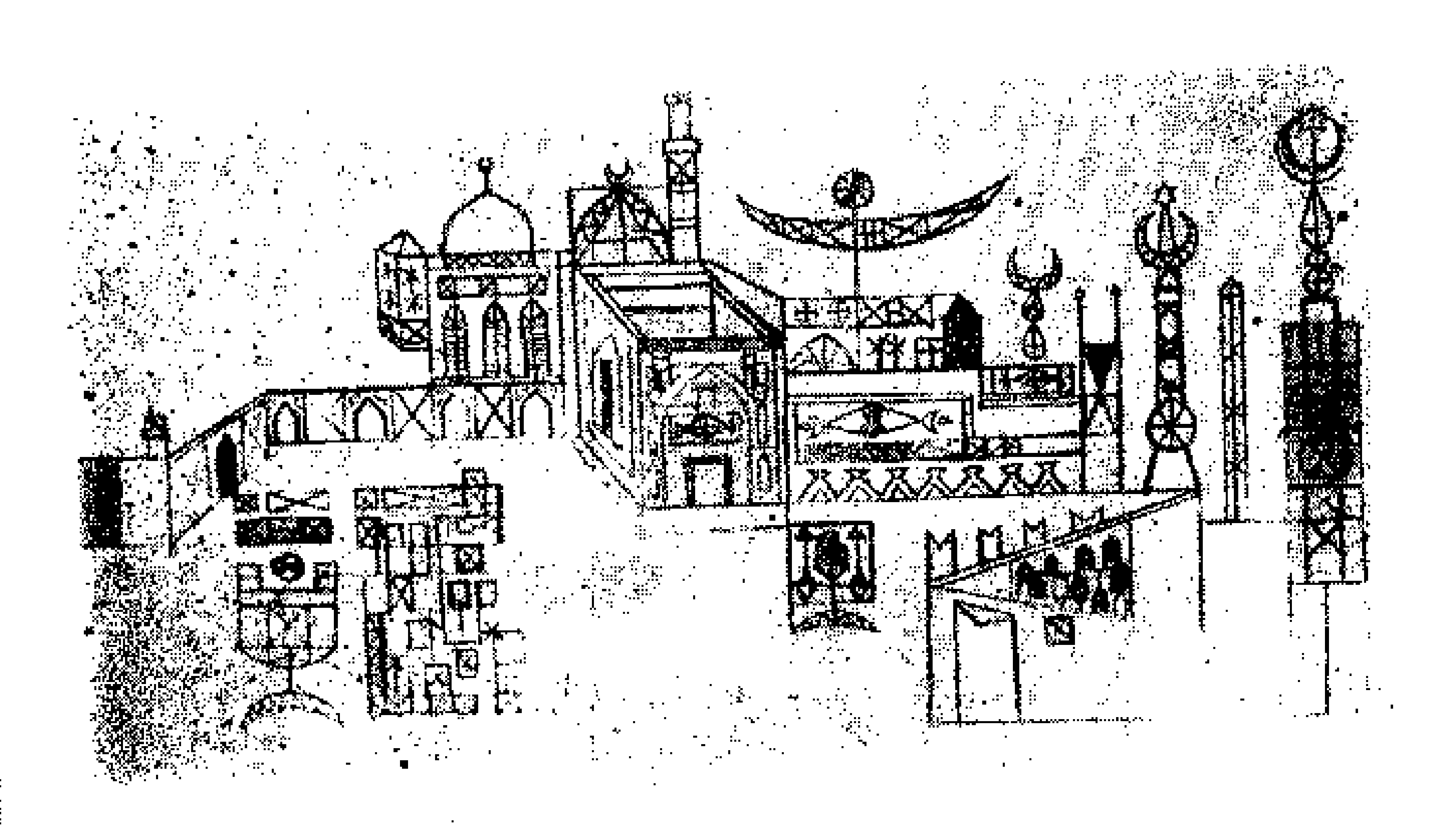
(١٧) جلجامش هو حاكم مدينةاورك السومري،وهو نفسه بطلالاسطورة المسماة باسمه.

(١٨) اشارة الى قول الشاعر نفسه [أستودع الله في بغـداد لي قمرا – في الكرخ من مطلع الازرار مطلعه] .

(١٩) هذا شطر من قصيدة لشاعر اسلامي لايحضرني اسمه الآن .

(٢٠) لاشك ان المعتصم لم يتخذ بغداد لوحدها عاصمة له بل أتبعها بسامراء ، ولكننا آثرنا نسبته الى بغداد لان نشأته كانت في بغداد ، فالمعتصم هنا بغدادي بعواطفه وحماسه ، وبما بغداد الرمز سوى المرأة التي كانت تحتمي به ، فهي التي ملكت لب الخليفة الشـاب بجماع حياته وليس لفترة معينة ، انها امرأة بغداد وعمورية على السواء .

(٢١) الاشارة هنا الى المتصوف الشهير (ابراهيم بن الادهم) ، قصـته معروفة في تاريخ التصوف ، وهي التي – في بعض الرويات – تذكر نه هجر اهله وملكه فجأة بعد ان كان حاكما لمدينة بلخ فقد اكتشف ان بعض (الجمالين) يبحثون عن جمالهم في سطح قصره ، فلما استفسر منهم عن السبب اجابوا بانهم يفتشون عن جمالهم الضائعة فقال وهل تضـيع الجمال في سطوح المنازل فأجابوه وهل يصح لك أن تحكم الناس وأنت في عرشك ومن دون أن تنزل الى الشوارع ؟؟ ويقال ان ذلك كان سببا في تصوفه .

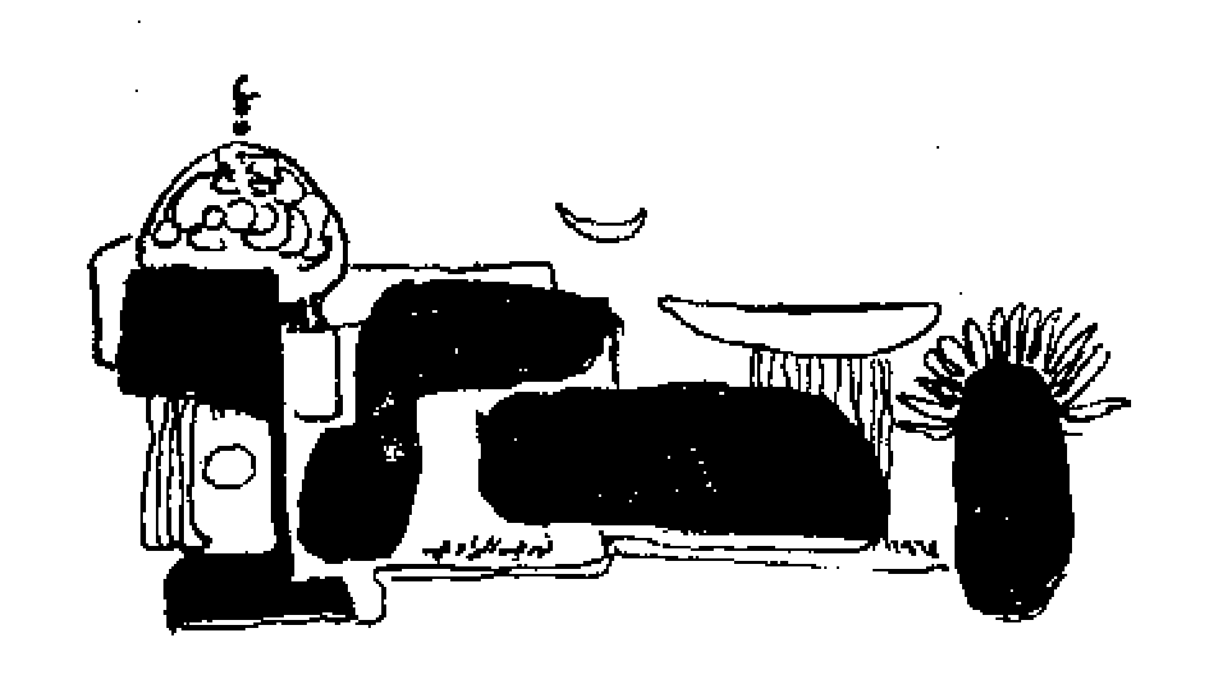


رجاء

ضياء خضير

أنا في الضياع أعيش ، أقضم مهجتي … وأبث أنفاسي دمـــاء قانيــه
أجـــري ، ولا أجـــري لمبلغ غاية … لـكن لأبلغ في الضلال شقائيه
أنا ظامىء لا أرتوي من مشرب … الا وقد ألفيت روحي ظاميــه
آليت أن أجد الدواء لعلتي ، … فوجدت دائي هازئاً بدوائيــه
فطفقت أضرب في ضلالي سادراً … ومضيت أسخر من قيود باليــه
يا ليت لي من مهرب أرتاده … عن بحر احزاني وعن أشجانيه
رحماك يا رب السماء فانني … لا أرتضي أبداً سواك شفائيه
فتأمل النجوى ، وحقق بغيتي : … روحي تحن الى ذراك العاليه !!

« كلية التربية »



عرض موجز للافكار والمطبوعات

سارتر وجائزة نوبل

منح الاديب الوجودى الاول « جان بول سارتر » جائزة نوبل الادبية لهذا العام فرفضها ، واذاع بيانا ذكر فيه الاسباب التى دعته الى رفض هذه الجائزة المهمة ، فكان لرفضه دوى بعيد الصدى لانه ذكر فى بيانه اسبابا جعلت هذه الجائزة الادبية الكبرى فى العالم « فى حالة خطر وارتباك » على حد تعبير الصحف الادبية التي علقت على الموضوع ، اذا ما سار غيره من الادباء ممن هم فى وزنه على هذا المنوال فى المستقبل ·

ولو أخذت القضية بشكل موضوعى فان رفض سارتر للجائزة لا يقلل من قيمتها لانه قال فى تصريحه المعروف عن رفض الجائزة انه كان مستعدا لقبولها والاعتزاز بها لو انها منحت له في وقت آخر عندما كان يدافع عن قضايا كبرى معروفة · اما وقد منحت له الان فانه لا يريد أن يكون بقبولها محسوبا على العالم الذي يعتبر مؤسسة غربية بحتة وهو ينتمي بتفكيره الى عالم التناقض القائم بين الشرق والغرب ، ويريد أن يتجه فى هذا التفكير الى تخفيف الصراع وتحديده واخراج الادباء من حظيرته ·

وقال فى تصريحه المعروف انه « مصنوع » من هذه التناقضات بين اليمين واليسار ، لانه ولد بورجوازيا فى وسط بورجوازى ، ولكنه نشأ اشتراكيا فى عالم يتجه نحو الاشتراكية من الناحية الفكرية ·

المؤتمر الموسيقي في بغداد

عاشت بغداد مؤتمر الموسيقي العربية الذى اشترك فيه كل المعنيين بهذا الموضوع الحيوي في البلاد العربية مما يؤمل معه ان تزدهر الدراسات الموسيقية فى المستقبل ، وأن يكون للعراق النصيب الاوفر فى هذه الدراسات ، وبخاصة الطابع العراقي البحت الذي يعتبر من التركات الذهنية الكبيرة من عصور الازدهار الفكري العربي في الماضي ·

وقد ساهمت وزارة الثقافة والارشاد بنصيب وافر في هذه الجهود بالمشاركة مع منظمة اليونسكو التي كانت في الاصل صاحبة الفكرة في عقد المؤتمر المذكور ·

مؤتمر المهندسين العرب التاسع

وكذلك شهدت بغداد مؤتمر المهندسين العرب الذي يعد من الاحداث الفكرية الهامة في هذه الحقبة ، والذي يؤمل أن يكون له أثر كبير في تقدم الهندسة العربية في المستقبل ٠

مؤتمر الادباء العـــرب

وسيعقـــد في بغداد في شبـــاط المقبل مؤتمر الادباء العرب وكذلك مهرجان الشعر العربي الذي سيعقد في أثناء انعقاد المؤتمر نفسه ٠

وستكون بغداد قبلة انظار رجال الفكر العرب في جميع الاقطـــار العربية في تلك الاثناء ٠

المطبوعات

المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث

للدكتور محمد عبدالرحمن شعيب

ان المتنبي جواب اهلته الطبيعة للرد عن تهجمات المتهجمين على الفكر العربي الاصيل والدعوة الشعوبية القائلة ان العرب لم يساهموا فكريا قدر مساهمة العناصر غير العربية في التركة العربية نفسها ، وهو قول شـــاع ذكره مدة طويلة وتبناه بعض المستشرقين واخـــذوا به ، ثم عـــاد اغلبهـــم فأسقطه لانه لم يعد قولا علميا يعتد به ٠

وكان الرد الطبيعي على هـــذه التهجمات المتنبي وابا العـــلاء المعري والجاحظ ، وكل واحـــد من هؤلاء طود من اطواد الفكر العربي الاصيل ، ولكن المتنبي يمتاز بأنه « اصل » قابل للشرح والابـــانه ، او كمـــا يقول المناطقة « نص ثابت » استطاع ان يقف امام النقد والتجريح الف سنة كاملة دون أن ينثلم ٠ وبالرغم من فارق الزمن بعد هذه القرون العشرة فان شعر المتنبي لا يزال المعين الذي لا ينضب لدراسة الشعر العربي والفكر العربي في جميع ادواره ٠

والكتاب الذي نعرضه اليوم من خيرة ما كتب عن المتنبي الذي كتب

عنه في الواقع الشيء الكثير ، ولكن ميزة هذه الدراسة انها تعتمد اسلوب النقد المحدث الذى يقوم على الموازنة المنصفة ولا يميل مع الهوى .

وقد درس المؤلف حياة المتنبي دراسة شاملة لطبقة القدامى والمحدثين، وقسم بحثه الى كتابين احدهما عن المتنبي بين ناقديه في القديم ، وفي الحديث ، وقسم كلا من الكتابين الى ابواب فكان القسم الاول عن الدراسة اللغوية والدراسة الادبية ، اما القسم الثاني فقد اضاف اليه الدراسة الفلسفية ، وكان كما قال في مقدمة كتابه « مع الحقيقة غير متحيز لابي الطيب ولا متعصب لنقاده من موءيدين وحاقدين » .

والكتاب في الحقيقة من مصادر الدراسات النقدية في هذه الحقبة ، ولعله خير ما كتب عن المتنبي من الدراسات الادبية حتى الان .

البخلاء للخطيب البغدادي

٣٥٠ صفحة ــ مطبعة العاني ــ بغداد

يعد كتاب البخلاء للخطيب البغدادي من خيرة الكتب التي فاتها حظ التحقيق العلمي ، ولكن الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي قاما بهذه المهمة خير قيام فأخرجاه محققا تحقيقا وافيا .

وقد ساعد المجمع العلمي العراقي في اصدار هذا الكتاب .

ديوان رشيد الهاشمي

١٦٠ صفحة ــ مطبعة المعارف ــ بغداد

قام الاستاذ عبدالله الجبوري أمين مكتبة الاوقاف العامة بجمع وتحقيق ديوان الشاعر العراقي المرحوم رشيد الهاشمي المتوفي سنة ١٩٤٣ بعد محنة فكرية عاناها في اواخر ايامه .

وقد ساهم المجمع العلمي العراقي باصدار هذا الديوان وقدم له الاستاذ محمد بهجت الاثري .

تجارب الامم لابن مسكويه

اعادت دار المثنى طبع كتاب تجارب الامم لابن مسكويه الذى كان قد اصداره المستشرق هـ . ف . آن روز سنة ١٩١٤ بثلاثة مجلدات تحتوي حوادث السنين بين ٢٩٥ الى ٣٩٣ هجرية .

وهو يقع في حوالي الف صفحة مطبوعة طبعا انيقا على ورق صقيل .

اضواء على السياسة العالمية

القيادة السياسية الموحدة :

تنفيذا لسياسة الوحدة التي انتهجتها الحكومة الوطنية اعلنت في أوائل الشهر أسماء أعضاء القيادة السياسية الموحدة في الجمهوريتين العراقية والعربية المتحدة برياسة الرئيسين عبدالسلام محمد عارف وجمال عبدالناصر .

ان اعلان أسماء أعضاء القيادة السياسية الموحدة وعلى المستوى الذي عرفه الناس في كلا القطرين يدل دلالة أكيدة على ان السياسة الموحدة للبلدين ستكون في مجال التطبيق الفوري دون حاجة الى ان تتخذ مقرراتها الخطوات التدريجية التي تتخذ عادة في مقررات اللجان . فليس في البلدين جهة أخرى أعلى من المستوى الذي ضمته القيادة الموحدة ، وليس أدل على نية التنفيذ الفوري من وجود الرئيسين عبدالسلام محمد عارف وجمال عبدالناصر على رأس هذه القيادة ، كما انها ضمت من الجانب العراقي رئيس الوزراء الى جانب وزراء الدفاع والثقافة والارشاد والتربية ...

ومن الجمهورية العربية المتحدة نواب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ونوابه الذين لهم صلة مباشرة بأعمال القيادة السياسية .

ان القيادة السياسية الموحدة لها السلطة الكاملة لاتخاذ الخطوات العملية لتحقيق الوحدة الدستورية خلال الفترة التي حددت من قبل ومقدارها سنتان .

ولهذه القيادة سلطة اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق الوحدة السياسية بين الاتحاد الاشتراكي في كل من القطرين .

وتشرف القيادة السياسية الموحدة على السياسة الخارجية ، والقوات المسلحة وشؤون الدفاع ، والتخطيط الاقتصادي والثقافة والارشاد القومي والتعليم والامن القومي .

كما تبحث القيادة الشؤون الداخلية للبلدين وتعمل على ايجاد الحلول المناسبة لها ومتابعة تنفيذها .

وتنص اتفاقية القيادة السياسية الموحدة على ان تجتمع القيادة مرة كل شهرين ويجوز ان تعقد اجتماعا استثنائيا اذا اقتضت الضرورة ذلك وستكون قرارات القيادة نافذة المفعول بمجرد صدورها الا ما يستلزم تنفيذه تصديقا من السلطة التشريعية في كل من البلدين .

هذا ويؤمل ان ينعقد اول اجتماع للقيادة السياسية الموحدة في بغداد .

مجلس الشورى :

لقد قوبل قانون مجلس الشورى بارتياح عظيم في الاوساط المختلفة في أنحاء الجمهورية واعتبر خطوة كبيرة نحو الحياة الديمقراطية السليمة اذ سيشترك الشعب مع الحكومة في رسم السياسة العامة وتشريع القوانين وسيكون المجلس الذي حددت مدة عمله سنة واحدة تجربة تسبق الانتخابات العامة لاختيار أعضاء مجلس الامة الذي تتمثل فيه الحياة الدستورية والنيابية في أعقاب فترة الانتقال ٠

ان هذه الخطوة ستسلم الثورة الى الشعب وستكون للشعب الكلمة العليا في تسيير شؤونه بنفسه وستتيح للمواطنين جميعا فرص العمل السياسي وتوفر لهم مجال الخدمة الوطنية التي يرغبون في ادائها ٠

ان هذه الخطوة التي تخطوها ثورةالثامن عشر من تشرين تدل دلالة كاملة على عمق التجاوب بين المسؤولين عنها والقاعدة الشعبية التي تسندها وهي تدل كذلك على ثقة هذه الثورة بنفسها واصالة شعبيتها ورغبتها الاكيدة في الافادة من الكفايات التي سيوفرها مجلس الشورى لها في الفترة القادمة ومجلس الامة فيما بعد تلك الفترة ٠

ان النجاح الذي سيحققه مجلس الشورى في المجال الديمقراطي وفي مجال الوعي الشعبي المتمثل في افراده ومدى ما يقدمونه لابناء الامة ، سيرسم كذلك بداية الطريق الذي سيسلكه مجلس الامة ٠

ان المسؤولية التي تناط بمجلس الشورى مسؤولية خطيرة وهي نفسها مسؤولية مجلس الامة ٠

ان مجلس الشورى يحقق هدفا من أهداف الثورة الا وهو الحياة الديموقراطية الصحيحة وهذا يعني ان يتحمل الشعب مسؤولية الحكم وان يختار العناصر الكفوءة لتلك المسؤولية ، ومن القانون الذي حدد صفة العضوية في هذا المجلس يتلمس الناس عظم المسؤولية في العضو وهي تكليف بالعمل من أجل خدمة المجموع وليس من أجل خدمة فرد معين أو مجموعة أفراد ٠

*

مؤتمر المحامين ومؤتمر المهندسين العرب :

انعقد في بغداد خلال شهر كانون الثاني من سنة ١٩٦٤ مؤتمران كبيران اولهما مؤتمر المحامين العرب وثانيهما مؤتمر المهندسين العرب افتتحهما السيد الرئيس عبدالسلام محمد عارف وقد شارك في المؤتمرين مئات من المحامين والمهندسين ، وكان المؤتمران مظاهرة عربية تميزت بالانسجام التام والخلو من المنغصات التي سبق ان عكرت صفو بعض المؤتمرات السابقة بسبب الانحرافات التي رافقت تلك المؤتمرات ٠

وقد انتهى مؤتمر المحامين العرب الى مقررات خطيرة تتصل بالوطن

العربي فقد ادان جريمة الانفصال بين اقليمي الجمهورية العربية المتحدة مصر وسورية ودعا الطلائع العربية المكافحة لمواصلة النضال من أجل الوحدة وغسل عار الانفصال · وكذلك دعا المؤتمر الى استعادة الاجزاء السليبة من الوطن العربي الكبير وأهاب بالحكومات العربية ان تتخذ الخطوات والاجراءات لتحقيق وحدة الامة العربية ووحدة الوطن العربي ·

واعلن عدم شرعية الوجود البريطاني في عدن والجنوب المحتل واستنكر حرب الابادة البربرية التي يشنها الاستعمار البريطاني في بعض أجزاء الوطن العربي كعمان وعدن ···

وطالب المؤتمر القيادة العربية الموحدة برد عدوان صنيعة الاستعمار وربيبته في الوطن العربي ···

وقد لاحظ المراقبون ان توصيات مؤتمر المحامين العرب كانت كلها تتصل بكفاح الشعب العربي ضد الاستعمار ومؤامراته في المنطقة العربية مما يؤكد ان العدو الاول في هذه الفترة بالذات هو الاستعمار ، ولم يلاحظ المراقبون على التوصيات شيئا يتصل بالمحامين انفسهم وفسروا ذلك بأن المحامين العرب قد جندوا انفسهم في معركة المصير العربي ضد الاستعمار وأعوانه ·

اما مؤتمر المهندسين العرب فقد افتتحه الرئيس عبدالسلام محمد عارف وسط مظاهرة قومية رائعة ومما قاله السيد الرئيس للمهندسين العرب بعد ان رحب بهم باسمه واسم شعب الجمهورية العراقية :

« لقد خلفنا وراءنا عهودا بذلت فيها قوى الشر والطغيان والحقد والحسد قصارى جهودها لجعل بلادنا في مؤخرة ركب الحضارة ولضرب القومية العربية في صميمها ولوضع كل العقبات أمام وحدة هذه الامة ولكننا استطعنا ولله الحمد ان نوقف ذلك ونحر الاستعمار وأذنابه ونزيل الحاقدين من طريقنا وان نخرج ظافرين بحريتنا واستقلالنا وبدأنا أعمالنا البناءة في معركة الوحدة وحدة الامة العربية التي هي أمل الجميع » ·

وتميز المؤتمر بالتركيز على البحوث والاتجاه العلمي حرصا من المهندسين العرب وشعورهم بدورهم الفعال في معركة البناء العربي ·

السياسة العربية :

كانت ذكرى الانتصار العربي في بورسعيد من الاحداث التي حفل بها العالم العربي كله وقد خصصت له دور الاذاعة والتلفزيون مناهج خاصة لا لان الشعب في الجمهورية العربية المتحدة قد انتصر على الاستعمار والصهيونية فحسب · بل لان الشعوب العربية في كل بلد عربي عاشت ازمة السويس وبورسعيد كما يعيشها ابناؤها وشعرت بشعورهم وارتبطت بمصيرهم فكان الانتصار هناك انتصارا في كل مكان ولكل فرد ·

وكان الخطاب الذي القاه السيد الرئيس جمال عبدالناصر من

المفاجآت التي لم يتوقعها الغرب ، فقد اعلن بصراحته المعهودة ان الجمهورية العربية المتحدة ترفض المساعدات الامريكية المقرونة بشروط تمس بالسيادة العربية ، وقد دلت تصريحات السيد الرئيس على ان الجمهورية العربية المتحدة في وضع يخولها الاستغناء عن المساعدة المذكورة وهذا مما يملأ نفوس العرب ثقة ويغمرها زهوا وافتخارا .

السياسة العالمية :

لم يكن في احداث السياسة العالمية في الشهر الماضي شيء يذكر سوى اجتماعات هيئة الامم المتحدة وقبول أعضاء جدد فيها بحيث أصبح عدد أعضاء المنظمة العالمية ١٨٥ عضوا والملاحظ ان الدول الافريقية يزداد عددها تدريجيا في المنظمة العالمية بعد ان ظفرت القارة باستقلالها ونفضت عنها غبار الاحتلال الاجنبي ، ويتنبأ المراقبون ان يكون لافريقيا شأن كبير في رسم السياسة العامة في المنظمة الدولية وهذا يجعل الدول الآسيوية الافريقية في موقف أقوى ويجعل الكتلة التي تمثلها ذات قيمة عظيمة في ترجيح الجوانب المتصارعة ان شاءت وفي تركيز سياسة عدم الانحياز التي تنتهجها الكتلة منذ ان قامت حتى الآن .

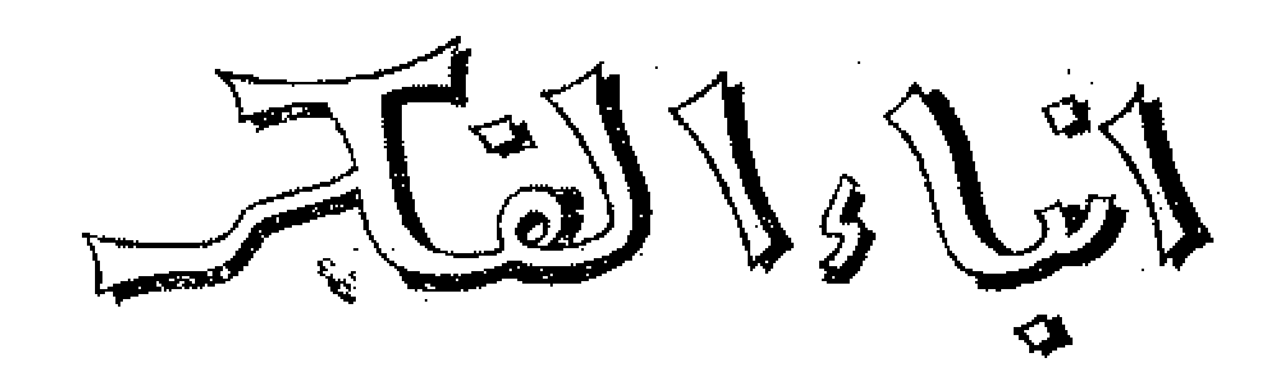
ايضاح لراغبى المشاركة

ترد الى الاقلام رسائل عديدة يستفسر فيها مرسلوها عن طريقة المشاركة في المجلة .

ونود ان نعلم حضرات الراغبين في المشاركة ان بدل الاشتراك هو :

	دينار	فلس
داخل العراق	١	٠٠٠
للطلبة	—	٧٥٠
خارج العراق	١	٥٠٠

وهذا المبلغ يرسل بالبريد أو يسلم رأسا الى مديرية الحسابات في ديوان وزارة الثقافة والارشاد ببغداد على ان يرفقه الطلاب منهم بوثيقة مدرسية تثبت تلمذتهم .



- **فقد عالم الشعر العربي في هذا الشهر واحداً من رواده المبرزين ذلكم هو المرحوم الاستاذ بدر شاكر السياب الذي توفاه الله في يوم ١٩٦٤/١٢/٢٤ في الكويت وفاضت روحه الى بارئها بعد طول معاناة من الداء الذي لازمه لمدة اربع سنوات •**

لقد كان المرحوم السياب احد الافذاذ الذين اضافوا الى دنيا الاخيلة الجميلة والفكر الخلاق ما سيبقى محل لاعجاب والتقدير والاكبار ، وان ذكرت الروائع يوماً ـ وعبر العصور ـ فلا مراء ان شعر السياب سيكون في رأس قائمة تلكم الروائع •

رحم الله السياب اضعاف ما قدم للفكر والفن من خدمات وتغمده برضوانه •

- (الجمان في تشبيهات القرآن) لابن ناقيا البغدادي ، هو الكتاب الذي عزمت وزارة الثقافة والارشاد على تحقيقه وطبعه وفق الخطة التي رسمتها لاحياء التراث ، وقد عهد الى الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي بمهمة تحقيق الكتاب المذكور •

- **بمناسبة انعقاد مؤتمر الادباء العرب في بغداد ، انتهت وزارة الثقافة والارشاد من طبع كتاب [المواسم الادبية عند العرب] من تاليف الاستاذ عبدالحميد العلوجي •**

- انتهى الاستاذان هلال ناجي وعبدالله الجبوري من وضع دراسة عن حياة الشاعر عبدالقادر رشيد الناصري ، وستضم الدراسة (٣٥٠) قصيدة من شعر المرحوم الناصري ، منها (١٥٠) قصيدة لم يسبق نشرها •

- **ينصرف الدكتور محمود الامين الى ترجمة [رحلة نيبور] • وستقتصر الترجمة على الفصول المتعلقة ببغداد والموصل فقط •**

- [البلاغة عند السكاكي] للدكتور أحمد مطلوب ، كتاب جديد سيصدر خلال أيام قريبة • والكتاب هو الرسالة التي نال بها المؤلف شهادة الماجستير ، ويقع في [٤٨٤] صفحة •

- **صدر مؤخرا ديوان شعر جديد يحمل اسم [دنيا] للشاعر أيوب عباس والديوان يحتوي على قسم من شعر الاستاذ ايوب ، وله مجموعة شعرية اخرى بعنوان (جنة) وثالثة بعنوان (جهنم) ومن المؤمل ان يدفع بهما الى المطبعة قريبا .**
- كما صدر ديوان شعر جديد بعنوان [شباب وسراب] للشاعر محمدعلي الخفاجي وقد قدم له الدكتور عناد غزوان .
- **[البرامكة والعلويون] كتاب جديد اصدره الاستاذ جاسم آل كلكاوي ، وقد قدم له الدكتور يوسف عزالدين . والكتاب عبارة عن بحث تاريخي في موقف البرامكة من العلويين خاصة والعرب عامة .**
- فرغ [علي الخاقاني والمحامي حسين علي الحاج حسن] من وضع كتاب (معجم المطبوعات العراقية) .
- **يوشك الاب يوسف ريتشارد مكارثي الاستاذ في جامعة الحكمة ان يفرغ من وضع الجزء الثاني من كتابه [المدخل الى العامية البغدادية] والمأمول ان يصدر الى الاسواق قريبا .**
- اقامت جمعية الفنانين العراقيين معرضها الفني السنوي في قاعة المتحف الوطني للفن الحديث .
- **اقيم في قاعة المتحف الوطني للفن الحديث معرض لفنون الحفر على الخشب ، قدمه بعض الفنانين الشباب الصينين .**
- زارت فرقة الفنون الشعبية الكورية بغداد خلال جولتها في العالم وقد قدمت خلال ذلك عدة حفلات في قاعة الخلد .
- **ستقوم وزارة الثقافة والارشاد بطبع المحاضرات التي القيت في المؤتمر الموسيقي العربي الذي اقيم ببغداد في شهر تشرين الثاني الفائت ، على شكل كتاب ، وذلك بعد تنسيقها .**
- دفع الاستاذ فؤاد التكرلي بمجموعة جديدة من قصصه الى احدى المطابع في بيروت .
- **تطبع في بيروت مجموعة شعرية جديدة للشاعر صفاء الحيدري .**
- ستلقي الشاعرة نازك الملائكة سلسلة من المحاضرات حول الشعر العربي المعاصر في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة .
- **صدر في القاهرة العدد الاول من مجلة [الفنون الشعبية] عن وزارة الثقافة والارشاد القومي . وقد ساهم في هذا العدد كل من : الدكتور عبدالقادر حاتم ، الدكتورة سهير القلماوي ، الدكتور عبدالعزيز**

الاهواني ، الدكتور محمود أحمد الحفني ، الاستاذ رشدي صالح ، الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، الدكتور محمد محمود الصياد ، الاستاذ فوزي العنتيل وغيرهم •• وستصدر المجلة مرة واحدة في كل ثلاثة شهور •

- المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ستقدم الى القراء سلسلة من امهات الكتب العربية في طبعات انيقة واسعار متهاودة ، ستشمل السلسلة كتاب الاغاني للاصبهاني ،، ونهاية الارب للنويري وعيون الاخبار للدنيوري ، وصبح الاعشى للقلقشندي والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى •
- **لجنة الشعر في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة ، قدمت مذكرة الى المجلس حول الشعر الحديث وما ينبغي ان يكون عليه موقف الدولة منه ، اثارت المذكرة ضجة لا يزال صداها يتردد في المحافل الادبية العربية •**
- [بيت سيء السمعة] كتاب جديد للقاص نجيب محفوظ ، وسيتضمن الكتاب (١٨) قصة قصيرة •
- **انتهى الاستاذ علي أحمد باكثير من وضع مسرحية جديدة بعنوان [ملحمة عمر] ومن المؤمل صدورها الى الاسواق قريبا •**
- فرغ الدكتور ثروة عكاشة من ترجمة كتاب عن الموسيقي المشهور (فاجنر) كان الاديب برنارد شو قد وضعه •
- **وضع مجلس الشؤون الاسلامية خطة لنشر الثقافة العربية والاسلامية بين شعوب آسيا وافريقيا • وتحقيقا لتلك الخطة اهدى المجلس الى المراكز الاسلامية هناك (٥٠٠٠) نسخة من المصحف المرتل و (٥٠) الف نسخة من المصحف الشريف و (١٠) آلاف مجموعة من اسطوانات تعليم الصلاة و (٢٥٠) الف كتاب ومجلة تبحث في شؤون الاسلام و (٣٠) الف كتاب تبحث في الصلاة والزكاة والحج •**
- تقرر دعوة ٣٠ كاتبا وصحفيا عالميا لحضور المؤتمر الاول للصحفيين العرب الذي سيعقد في الكويت ، ومن بين الذين ستوجه لهم الدعوة الفيلسوف الانكليزى برتراندرسل والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر •
- **الشاعر المهجري شفيق معلوف يعد كتابا جديدا للطبع بعنوان [حبات زمرد] وسيتضمن الكتاب دراسات أدبية عربية •**
- مجلة (الافق الجديد) التي تصدر في القدس ، ستستهل سنتها الرابعة بعدد خاص عن نكبة فلسطين يساهم في تحريره كبار الادباء العرب •

- **من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق صدر كتاب [فهرس المكتبة الظاهرية ـ قسم الشعر] من اعداد الاستاذ عزت حسن .**
- ينصرف الاستاذ (سيف بن مرزوق الشملان) الى وضع كتاب عن تاريخ الغوص واللؤلؤ في الكويت والخليج العربي .
- **من بين معروضات معرض الكتب العربية الذي اقيم في الدار البيضاء في المغرب مخطوطة للجاحظ بعنوان [رسالة في العميان والبرصان والعرجان] وهي من الرسائل النادرة .**
- **[الوجود والعدم] لجان بول سارتر ، ستصدر ترجمته العربية لاول مرة في وقت قريب ، قام بالترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي .**
- [لم يبق الا الاعتراف] ديوان شعر جديد يصدر قريبا للشاعر احمد أحمد عبدالمعطي حجازي .
- **ستقوم مؤسسة الشرق الادنى في أمريكا بترجمة كتاب (يوم ميسلون) باللغة الانكليزية .**
- رشح الدكتور محمد مندور لنيل جائزة الدولة التقديرية في الآداب ، قدم الترشيح المعد العالي للفنون المسرحية .
- **[مختارات من الشعر الفارسي] نقلها الى العربية وقدم لها الدكتور محمد غنيمي هلال وستصدر قريبا .**
- **يعد الاستاذ غالي شكري كتابا جديدا يشتمل على بحوث نقدية في الشعر والقصة .**
- انتهت فرانسوا ساغان من قصة جديدة ، هي القصة السادسة التي ألفتها ساغان ، وقالت ساغان عنها انها تناولت الموضوع بشكل جديد .
- **[دراسات في الوجودية والمذاهب السياسية] كتاب جديد للكاتبة الانجليزية ايريس مرووخ . كانت الكاتبة قد نشرت دراسات عن الفلسفة الوجودية عند سارتر .**
- سيعقد نادي القلم الدولي دورته القادمة في يوغسلافيا في شهر نيسان القادم ، سيكرس النادي هذه الدورة لبحث (مشكلة وتاريخ تطور اللغات) .
- **صدر الجزء الثاني من [ديوان الشعر العربي] للشاعر علي أحمد سعيد (ادونيس) تضمن نماذج شعرية مختارة من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الهجري .**

المحتويات